
مكتبة مصر
بين القصرين
نجيب محفوظ

بين القصرين

تأليف

نجيب محفوظ

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى " الفجالة "

دار الكتاب العربى بمصر

- ١ -

عند منتصف الليل استيقظت . كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على ايقاظها فى دقة وامانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس . حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية ان يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التى تترامى اليها اول الليل من سمار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى هى التى تترامى عند منتصفه والى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن اليه الا احساسها الباطنى - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هى العادة التى توقظها فى هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ فى منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست فى الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافىء ، وبسملت ثم انزلقت من تحت الغطاء الى ارض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول فى الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنبة . واضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية ، الا انها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة

والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان . واتجهت المرأة الى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناة وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم . كانت فى الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب ، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى . وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلافها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد الى الشمال ، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف فى أسافله بما يلقى اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة . منظر ألفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير ـ بفنائه الترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف ـ سواها ، أكثر النهار والليل . وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت

نفسه ، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير ، تعاونها على امره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام فى حجرة الفرن بالفنــاء تاركة اياها وحيدة فى دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق اخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها باحكام ، واحدة بعد اخرى ، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت تخاف الليـل فى عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها — هى التى عرفت عن عالم الجن أضـعاف ما تعرف عن عالم الانس — انها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هى الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها من همساتهم وكم استيقظت على لفحات من انفاســهم ، وما من مغيث الا ان تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار فى نفسـها المتهافتة من اشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من الســور والأحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من ســهرته . ولم يكن غريبا ، وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءا قط ، فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت له فى نبرات لا تخلو من دالة : « الا

تحترم عباد الرحمن ! .. الله بيننا وبينك فاذهبعنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمانينة الحقة حتى يعود الغائب . اجل كان مجرد وجوده بالبيت ــ صاحيا أو نائما ــ كفيلا ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب ام اغلقت : اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، ان تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب علىسهره المتواصل فما كان منه الا أن امسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة : « أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا اقبل علىسلوكى اية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به انها تطيق كل شيء ــ حتى معاشرة العفاريت ــ الا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرها ، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أم ما يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وانها لتستعيد ذكريات حياتها فى اى وقت تشاء فلا يطالعها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق الا ابتسامة رثاء ، ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته ابناء هم قرة عينيها وبيتا مترعا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة ؟ .. بلى ، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليها أو الى أحد من ابنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاح والمداعبات اشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، ففضلا عن انها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبهــا على بعلها وتفانيها فى اسعاده ، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة فى المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى

الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى المآذن ، او تسرحه بين البيوت المتكاكئة على جانبى الطريق فى غير انتظام أو تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذى تحبه ، هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدد مخاوفها ، لا يغير الليل منه الا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لأصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور : « لله هؤلاءالناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون بسيدى الآن ؟ ... وماذا يفعل ... فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال » . اجل قيل لها مرة ان رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء ، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل افضت بحزنها الى امها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا ، فاحمدى ربنا على انه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث امها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا انها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على اى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين ان تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله ان يكون وهما أو كذبا . ووجدت ان موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة فى مقاومتها الا ان تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره ،

فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الاخرى ، وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت راسها صوب النحاسين فرات « حنطورا » يقترب وئيدا ومصباحاه يسطعان فى الظلام ، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت « أخيرا ... » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » امام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة :

ـ أستودعكم الله ...

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا انها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته ، فما عهدت منه ـ هى وابناؤها ـ الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقة !.. وكأن صاحب «الحنطور» اراد أن يمازحه فقال له :

ـ اما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة .. قال انه من المؤسف أن اوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لايستحق أن يركب الا حمارا ...

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيدحتى عادوا الىالسكون ثم قال يجيبه :

ـ اما سمعت بماذا اجابته نفسه ؟.. قالت اذا لم توصله انت فسيركب اليك صاحبنا ..

وضج الرجال ضاحكين مرة اخرى ، ثم قال صاحب العربة :

ـ فلنؤجل الباقى الى سهرة الغد ..

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المراة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق ، وانزلاج المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ، خالعا مزاحه

الذى لولا استراق السمع لظننته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصـاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله ..

— ٢ —

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعـة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ــ مساء الخير يا امينة

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ــ مساء الخير يا سيدى

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت امينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه . وبدا فى وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليهـا جميعا جبـة وقفطـان فى اناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمة ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمسـتطيل الهيئـة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل فى جملته على بروز الشخصية والجمـال بعينيه الزرقاوين الواسـعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه واطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعنـاية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه

وجوربيه ، ولما كشفت قدمه اليمنى بدا اول عيب فى هذا الجسم الهائل الجميل فى خنصره التى تآكلت من توالى الكشط بالموسى فى موضع كالثو مزمن . وغادرت امينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق . فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والأبريق فى يدها على اهبة الاستعداد ، فاستوى السيد فى جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على راسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات فى البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل فى سرور وانشراح ، وبنفس الحماس الذى يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله ان يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدابها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فاغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها امام الكنبة وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى ان تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبة ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى فى اطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط فى الشرب حتى السكر ، الا انه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب ان يبدو به فى بيته . وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مريبا ، الا ما كان يبدر منه أول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة اقبالا منه فى الحديث وتبسطا فى فنونه قل ان تظفر بمثله فى اوقات افاقته الكاملة . وانها لتذكر كم ارتعبت يوم ادركت انه يعود من سهرته ثملا . واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع ، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته

كلما عاد آلاما لا قبل له بها . وبمضى الأيام والليالى ثبت لها انه حين عودته من سهرته يكون الطف منه فى جميع الأوقات . فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل فى الحديث . فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس ان تضرع الى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه ، وكم عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه . وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت أفكارها فى أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق ان يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه . اما السيد فكان احرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر ، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة ـ فى جلسته هذه ـ لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفتيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته . والحق ان سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها فى ذكرياته ، وفى قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه واصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حينا من بعد حين ، وما برحت تطن فى أذنيه الدعابات والطائف والنكات التى تجود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه امل الحياة المنشود ، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه انغام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من اعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها الى أطراف القاهرة ليسمع الحامولى أو عثمان أو المنيلاوى

حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت انغامهم الى نفسه السخية كما تأوى البلابل الى شجرة مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة فى السماع والطرب . وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، اما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية ، واما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الراس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاوعك وهجرك » او : « يا ما بكره نعرف .. وبعده نشوف » او : « اسمح بقى وتعالى اما اقول لك » وكان حسبه أن تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كى تهيج موطن السكر من نفسه فيهز راسه طربا وترف على شفتيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة فى طاقة يحلو بها وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافى والحبيب الوفى والشراب المعتق والملحة العذبة ، اما ان يصغو له وحده — كما يتلقى فى البيوت عن الفونوغراف — فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته وملابساته ، وهيهات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى ان يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وان يسابق الترديد بالنهل من كاس مترعة ، ويرى اثر التطريب فى وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد ان السهرة لم يقتصر اثرها على بعث الذكريات ، فمن مزاياها أيضا انها تهيئه فى اعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذى تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدى رجل حلو المعشر يتبسط معها فى الحديث ويفضى اليها بما فى طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن شؤون البيت فانبأها بانه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن ، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة اعوام ، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون فى المدينة كالجراد ويعيثون فى الأرض الفساد . والحق انه كان يحنق على الأستراليين لسبب خاص به وهو إنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب

فى الأزبكية فارتد عنها مغلوبا على امره ــ الا فى القليل النادر من مختلس الفرص ــ لأنه لم يكن يســعه ان يعرض نفســه للجنــود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل اغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

ــ وكمال ؟!.. اياك وان تتسترى على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه حقا فيما لا خطر له من اللعب البرىء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة اى لون من الوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

ــ انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السـعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من احـداث يومه فتذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان فى حال لا يستحب معها كتمان شىء مما يطفو على سطح الوعى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ ياله من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! اما علمت بما فعل؟.. ابى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى فى ظل الانجليز .

ومع أن المرأة علمت بوفاه السلطان حسين كامل أمس الا أنها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها ــ مدفوعة بعواطف الاجلال للمتكلم ــ كانت تخاف الا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

ــ رحم الله السلطان واكرم ابنه .

فاستطرد السيد قائلا :

ــ وقبل العرش الأمير احمد فؤاد أو السلطان فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل فى موكبه من قصر البستان الى سراى عابدين ... وسبحان من له الدوام .

وصغت أمينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره فى نفسها اى نبأ يجىء من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد فى حديث بعلها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها ، الى ما فى الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها ان تعيدها على مسمع

من ابنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلا تاما . ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من ان تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هى من اعماقها فقالت :

ـ ربنا قادر على ان يعيد الينا افندينا عباس .

فهز الرجل راسه وتمتم قائلا :

ـ متى ؟.. متى ؟.. علم هذا عند ربى .. ما نقرا فى الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا او ينتصر الألمان والترك فىالنهاية؟ اللهم استجب .

واغمض الرجل عينيه اعياء ، وتثاءب ، ثم تمطى وهو يقول :

ـ اخرجى المصباح الى الصالة .

ونهضت المراة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب ، وقبل ان تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

ـ صحة وعافية .

- ٣ -

وفى هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لاتزال ناشبة فىاسهم الضياء، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدوى الطبل . وكانت امينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فأيقظت ام حنفى ـ امراة فى الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق ـ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت امينة على اعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، فى اقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مد دبت اقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفى اقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان اقيمت الفرن فى احداهما واستعملت بالتالى مطبخا ، واعدت الأخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجره من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع اليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة ، وتتحلب الافواه لالوان الطعام الشهية التىتقدمهاموسمابعدموسم كخشاف

رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره . وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة . هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح فى اعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره. وإذا كانت امينة تشعر بانها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا ، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها ، فهذه القرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها . والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بالسنة اللهب باشارة منها . هى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها ، وآية ذلك انها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام احكمت صنعه وطهيه .
وام حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للادارة والعمل ام تخلت عن مكانها لاحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت اشرافها ، وهى امرأة بدينة فى غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب واهمل أعتبارات الجمال ، بيد انها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال. ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة — أو بالأحرى اناثها — بما تعد لهن من «بلابيع» سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون ، ومع ان اثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا انه برهن على جدارته فى أكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام . فليس عجيبا بعد هذا ان تسمن ام حنفى ، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما ان ايقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى « ماجور » العجين . وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت ، فترامى الى الأبناء فى الدور الأول ، ثم تصاعد الى الأب فى الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد ازف . وتقلب السيد احمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه ، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذى ازعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم انه يجب ان يستيقظ ، وتلقى أول احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الراس فقاومه بقوة ارادته وجلس فى فراشه

وان كانت تغلبه الرغبة فى معاودة النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ فى هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له فى القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه اسوأ اوقات يومه جميعا ، يغادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا فى الدماغ والجفون .

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى . وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا على كتب القانون ، فاذا استيقظ فاول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا : « مريم » . ولو اذعن لسلطان الاغراء للبث تحت الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بألطف الهوى ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى فى غير هذا الرقاد الدافىء من مطلع الصباح . ولكنه كعادته اجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس فى فراشه ، ثم مد بصره الى اخيه النائم فى الفراش الذى يليه وهتف :

ـ ياسين .. ياسين .. اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من انفه :

ـ صاح .. استيقظت قبلك .

فانتظر فهمى مبتسما حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :

ـ اصح ..

فتقلب ياسين فى فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقهما تقطيبة تنطق بالتذمر « اف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة !.. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظام .. دائما النظام .. كأننا عساكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال فى نومه الذى لن ينتزعه منه احد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « ياله من غلام سعيد ! » . ولما افاق قليلا تربع على الفراش واسند رأسه الى يديه ، ورغب فى معابثة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها احلام

اليقظة ولكنه كان يستيقظ ـ كأبيه ـ على حال من ثقل الراس تتعطل معها الأحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك فى حساسيته اثرا مما تترك فى صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة . .

وفى الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه الصحين ، كانت اشبه الأسرة بأمها فى نشاطها ويقظتها ، اما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى تنبعث فى السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى أرض الحجرة فى عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاةانقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من احلام اليقظة السعيدة قبل ان تغادر فراشها

ثم دبت الحياة فشملت الدور الاول كله ، فتحت النوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى اثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين فى جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمى بطوله الفارع وقده النحيف وكان ـ فيما عدا نحافته ـ صورة من ابيه . وهبطت الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأمهما فى حجرة الفرن ، وكان فى صورتيهما اختلاف قل ان يوجد مثله فى الاسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفى قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء

ومع ان السيد كان فى الدور الاعلى بمفرده الا ان امينة لم تدعه فى حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى انفه عرف البخور الطيب ، والفى على كرسى ثيابا نظيفة مرتبة فى عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء ـ ثم عاد الى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة ـ وكانت مطوية على مسند الكنبة ـ فبسطها وادى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذى يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى الانها التزلف والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على الوان الحياة

التى ينقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى فى عمله ، ويصادق فيفرط فى مودته ، ويعشق فيذوب فى عشقه ، ويسكر فيغرق فى سكره ، مخلصا صادقا فى كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيهـا برحاب المولى » حتى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك فى ذريته وتجارته

وفرغت الام من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا مازال يغط فى نومه ، فأقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى فارق الفراش . ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق فى عينيها :

ـ صباح النور يا نور العين ..

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسـم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين ــ وياسين خاصـة ــ بما يغمرانها به عادة من دعابة . وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم مالها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر ان تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبادرها ياسين قائلا :

ـ كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان النسـاء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب ..

فقالت على البداهة :

ـ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس ..

عند ذلك هتفت الأم قائلة :

ـ أعد الفطور يا سادة ..

— ٤ —

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس ورابعة خالية الا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال فى أوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الأخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين ابيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالته . جلس الاخوة فى أدب وخشوع ، خافضى الرءوس كأنهم فى صلاة جامعة ، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا ، فلم يكن أحد منهم ليجترىء على التحديق فى وجه أبيه . وأكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها . ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لأنهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم فى تحاميها ، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه . ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمالا بغلظة : « غسلت يديك ؟ » فاذا أجابه بالايجاب قال له آمرا : «أرنيهما» فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما » . أو يسأل فهمى قائلا : « أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام — التى استوجب عليها حنق أبيه — لم تقعد به عن الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبناءه

بالطاعة العمياء الأمر الذى لايطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام ، ولهذا يعلق على اجابة فهمى خائلا بامتعاض : «الأدب مفضل عن العلم» . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » ..

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه « قلة » ، ووقفت متأهبة لتلبية أية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض ، وفى أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة ، وفى الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الأسود ، فهاجت بطون الأخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى انزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السيد يده الى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم « كلوا » ، فامتدت الأيدى الى الأرغفة فى ترتيب يتبع السن ، ياسين ففهمى ثم كمال ، وأقبلوا على الطعام ملتزمين ادبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم طعامه فى وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا توقف ، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة — الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخللين — ثم يأخذ فى طحنها بقوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية ، الا انهم كانوا يأكلون متمهلين فى أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية اذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب . وكان كمال أشدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه ، واذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة ، فلذلك كان يتناول طعامه فى حذر وضيق ، مسترقا النظر بين آونة وأخرى الى المتبقى من الطعام الذى يتناقص سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر فى جزع أن يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه . وعلى رغم سرعة أبيه فى الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام — وما يتهدده هو بالتالى — من ناحية أخويه أشد وانكى ، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع ، أما أخواه

فكانا يبدءان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شهى يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ، ويدا للأطباق الصغيرة ، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ الى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد فى مثل هذه الحال ، وهى أن يعطس فى الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الأخوان ، ونظرا اليه حانقين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان فى الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا فى الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو « وصفة » من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها ـ كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة ـ رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الأهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بانواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية ـ الى فوائده الأخرى ـ فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء ، فنفر من أعراضه تلك التى تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج فى النفوس ووثبات المزاح والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمى بائع الكسكسى عند مطلع الصالحية بالصاغة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان ، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت المعشوقة امراة خبيرة بالرجال وأحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرآة وراح يرتدى ملابسه التى قدمتها اليه أمينة قطعة قطعة ، والقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود

المرسل على صفحتى رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين ليرى جانبه الأيسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التى عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث فى قلبه — مع الحب — الاجلال والخوف ، الا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان ايذانا بذهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الأسير الى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بانه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر اليها من زيق الباب المواريم ، فوقف أمام المرآة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا أمينة » ، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك الا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه فى المرآة من جانبه الأيمن الى الأيسر ، ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرآة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لى صحة وعافية ؟ » فغمغمت المرأة الضاحكة : « صحة وعافية يا سيدى » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية ابيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة فى الطريق ، وبدا السيد وهو يسير فى تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول

والفولى اللبنان وبيومى الشربتلى ، فأتبعته اعينا مترعة بالحب والزهو . وتلاه فهمى فى مشـــيته المتعجلة ، ثم ياسين فى جســـم الثـور واناقة الطاووس ، وأخيرا ظهر كمـال فلم يكد يخطو خطوتين حتى اســتدار ورفع بصره الى الشباك الذى يعلم أنأمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه ، وابتسم ، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا فى الأرض عن زلطة ليركلها . .

كانت هذه الســاعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها . .

— ٥ —

وغادرت الأم المشربية ، وتبعتها خديجة ، على حين تلكأت عائشــة حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربيــة المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك فى اهتمام ولهفة . بدا من لمعــة عينيها وعضها على شــفتها أنها تنتظر . ولم يطل بها الانتظار فقــد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه الى قســم الجمالية ، عنــد ذلك غادرت الفتــاة المشربية فى عجلة الى حجرة الاســتقبال ، واتجهت الى نافذتهــا الجانبية وادارت أكرتهــا ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا . ولما اقترب الضــابط من البيت رفع عينيه فى حذر دون أن يرفع رأسه ـ فلم يكن أحد يرفع رأسه فى مصر وقتــذاك ـ . فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتــاة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النــافذة وهى تشــد عليهــا بعصبية ـ كأنهــا تخفى آثار جريمة دامية ـ وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال ، فأسلمت نفسها الى مقعد وأسندت رأسها الى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهائى . لم تكن سعادة خالصة ، ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة

الخوف محذرة موعدة فلاندرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فى مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد . ولبثت فى تهويمها كثيراً او قليلا ، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، وذكرت — كما يلذ لها أن تذكر دائما — كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها فى دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك فى مخيلتها اثرا باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال ، فظل يتخايل لعينيها طويلا . وفى نفس الساعة من اليوم التالى — والأيام التالية — راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها ، ولمست فى فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب — الذى يتمطى مستيقظا لأول مرة — ينتظر هذه اللحظة فى لهفة ويذوقها فى سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة — هذه المرة — أن ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة — جنونية — وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو سماحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به .

***

استكنت هواتف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، ثم افاقت من حلمها ، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا للطمأنينة : « لم تزلزل الأرض ومر كل شىء بسلام » لم يرنى احد ولن يرانى أحد ، ثم انى لم اقترف اثما ! » ونهضت قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال

ترنمت — وهى تغادر الحجرة — بصوت عذب : « يا ابو الشريط الأحمر يا اللى أسرتنى ارحم ذلى » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم :

— يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، اعدت لك خادمتك السفرة .

وأثابها صوت اختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجة فهوت من عالم الشـال الى عالم الواقع مرتعبـة بعض الشىء لسـبب غير ظاهر — ما دام كل شىء قد مر بسلام كما قالت لنفسـها — ولكن اعتراض صـوت أختها — بالذات — لغنائها وخواطرها أرعبها ، وبما لأن خديجة كانت تقف منهـا موقف المنتقد ، بيد انهـا طاردت هذا القلق الطارىء واجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت الى حجرة الطعام فوجدت السماط معدا حقا وأمها مقبلة بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

— تتلكئين بعيدا حتى أعد كل شىء وحدى . . كفاية لنا الغناء .

ومع انها كانت تتلطف معها فى الحديث تفاديا من حـدة لسانها الا أن اصرار الأخرى على قرصـها بلسانها كلمـا سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانا بالفاظها فقالت مصطنعة الجد :

— الم نتفق على تقسـيم العمل بيننا فى البيت ؟ فعليك هذا الواجب وعلى الغناء . .

فنظرت خديجة الى امها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى :

— يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع ايضا :

— وماله !. . أنا صوتى كالكروان

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة الا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس عليها جمال صـوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تجهم :

— اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون اصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفـع

— لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا !

— طبعا !. . كنت تغنين وأرد عليـك ، تقـولين يابو الشريط الأحمر

يا الى فأقول لك أسرتنى ارحم ذلى ، ونترك للست « مشيرة الى أمها » الكنس والمسح والطبخ

وكانت الأم — التى ألفت هذا النقار — قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء :

— أمسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام . .

واقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

— انت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد . .

فتمتمت الأم فى هدوء :

— سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على الا تنسى نفسك . . « ثم مدت يدها الى الطبق » . . بسم الله الرحمن الرحيم . .

كانت خديجة فى العشرين من عمرها ، فهى كبرى اخوتها فيما عدا ياسين — اخاها من الأب — الذى ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت قوية ممتلئة — والفضل لأم حنفى — مع ميل الى القصر ، أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين ، وعن أبيها انفه العظيم ، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذى يغتفر له ، ومهما يكن من شأن هذا الأنف فى وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظا فقد لعب فى وجه الفتاة دورا مختلفا

أما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بديع الحسن ، رشيقة القد والقوام — وان عد هذا فى محيط اسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى — ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمـــرة ، وعينان زرقاوان احسنت اختيارهما من الأب مع انف الأم الصغير ، الى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها . وطبيعى لم تدرك خديجة مايقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتها الفائقة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشـــاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الأحايين . ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى النفس ، وكفاها أن تروح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته . وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية اما بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الأسرة التى لا تعفى افرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها

الا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخرية — الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة — خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى ، لاتقع عيناها من الناس الا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب أبدا ، واذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبيرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط اسرتها ، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر رنقها اثناء الحديث ، وهـذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا أسيادى » لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول « الأقرع » لصلعه ، واللبان «الأعور» لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشىء خصت بهاأسرتها ، فأمها « المؤذن » لتبكيرها فى الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبه كشر » لسمنته وأناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق انها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجافى عن التسامحوالعفو ، كما غلب عليهاعدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها ، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة بأعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظنها بالناس انهم ملائكة فلم تدر كيف تسىء الظن بأحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسىء الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها : « من أين تجيئها هـذه السمنة المفرطة ؟!.. من الوصفات التى تصنعها ؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام »

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح

ابنتها قالت : « فلتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لايتعداه فلن نجوع على أى حال » ؛ ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها اكراما لستها الطيبة . وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لافى بروده ولا فى رحمته

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة . وكان للطعام بينهن — الى فائدته الغذائية — غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكن يتناولنه فى تؤدة واهتمام ، ويبالغن فى سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعا لطاقاتهن ، فكانت الأم أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى أطباق مغسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيىء هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا انت ، تتظاهرين بالصوم : رتندسين فى حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » . وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يخلين فيها الى أنفسهن ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة فى الأمور التى يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها فى الأكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير

— نينة .. حلمت حلما غريبا ..

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة فى اكرام ابنتها المخيفة :

— خير يا بنتى ان شاء الله ..

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

— رأيت كانى امشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا او غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعنى فاهوى صارخة ..

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها فى اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر باكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم :

— اللهم اجعله خيراً

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

— لم اكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك .. اليس كذلك !

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

— انه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك « ثم مخاطبة أمها » .. هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ، حملنى وطار ....

وتنهدت أمينة فى ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

— من يدرى يا خديجة ؟.. لعله العريس ..!

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا فى هذه الجلسة ، وفى ايجاز بالاشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما أكربه أمر الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سروراً عميقا ، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها ــ ولو من نفسها ــ فقالت :

— اتظنين الجواد عريسا ؟.. لن يكون عريسى الا حمارا ..

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

— لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة !.. ما فيك من شىء يعاب ..

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول :

— أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك فى مهارتك أو نشاطك ؟.. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدين اكثر من هذا ؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

— الا يسد هذا طريق الأزواج ؟

فقالت الأم مبتسمة :

ـ كلام فارغ .. مازلت صغيرة يا بنية ..

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى سن الزواج وخاطبت أمها قائلة :

ـ لقد تزوجت يا نينة وانت دون الرابعة عشرة .

فقالت الأم التى لم تكن فى الحق دون ابنتها قلقا :

ـ لا يتقدم أمر او يتأخر الا باذن الله ..

وقالت عائشة فى صدق

ـ ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت احدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتساءلت :

ـ أتودين حقا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل فتتزوجى !

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ الاثنين معا ..

ـ ٦ ـ

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :

ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف البيت ، ثم تلحقان بى فى حجرة الفرن ..

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع أنهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة عادة بلا مناقشة ، الا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :

ـ أنزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسيل ، أما التمحك بالغسيل للبقاء فى الحمام حتى ينتهى العمل فى المطبخ فعذر مرفوض مقدما ..

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهى تدندن فقالت خديجة متهكمة :

ـ يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن فى نفير الفونوغراف فغنى وسمعى الجيران ..

وغادرت الأم الحجـرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقته الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة فى غير الأوقات التى يوجد فيها الأب فى البيت ، أو التى يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة ، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة ، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها ازاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها ، أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه ، وربما تمنته دون أن تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف ، وكأنها لاتحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب،تاركة للأب — أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد — تقويم المعوج والزام كل حدوده . لهذا لم يضعف النقار السخيف من اعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما ، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ماطبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه،فهى تأبى الا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت ، واذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فاذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف فى تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذى يناهز العاشرة الى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعى الا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل مافيها ، الى ماتجده من فرحة اللهو والمرح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها اليه ، خلقته بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من

وضعها ، وهذه الأكواخ الخشبية يقوقيء الدجاج فى مسارحها من تركيبها ، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق اليها الدجاج وراء ديكها ، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ . وكم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها باعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة متوقئة ، فى مودة متبادلة ينزلها قلبها الحنون . أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا ، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها ، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان ، وأحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها بأرضه وسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حى عاقل ، ثم لا تقتصر مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتبقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها ، واذا دعتها الظروف الى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق ، ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر ، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنان واوسع به على عباده . أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة ، فاستدعت نجارا فاقامها ، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ، ثم انشبت سيقانها فى السقيفة وحول قوائمها ، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى أرجائها عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه المعروش ، هو دنياها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته ، وسقت زرعه ، واطعمت الدجاج والحمام ، ثم تملت

طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين ؛ ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق . تارة عن قريب حتى لترى مصابيحها وهلاله فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفاصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر « وثالثة من افق سحيق فتتراءى اطيافا كمآذن القلعة والرفاعى وتقلب وجهها فيها بولاء وافتنان ، وحب وأيمان . وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، احبها - لحب صاحبها - الى نفسها . فتنفض نظرتها حنانا واشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من متواه . وتنهدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تتسلى بالنظر الى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق » ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الأحياء المتاخمة التى تترامى اليها أصواتها . ترى ماهذه الدنيا التى لم تر منها الا المآذن والأسطح القريبة ؟ ! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت فلا تفارقه الا مرات متباعدات لزيارة أمها بالخرنفش » وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حانطور لأنه كان لا يحتمل انتقع عين على حرمه سواء وحدها ام بصحبته ، لم تكن ساخطة ولا متذمرة ، انها ابعد ما تكون عن هذا ؛ بيد انها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب الى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان واحلام . ترى اين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هذه اللحظة ؟ .. وأين مدرسة خليل اغا التى يؤكد لها كمال انها على مسير دقيقة من الحسين ؟ .. وقبل ان تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة « اللهم اسألك الرعاية لسيدى وابنائى ، وأمى ويس ، والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمى الذى لا يحبهم ... »

- ٧ -

عند ما بلغ السيد احمد عبد الجواد دكانه الذى يقع امام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهياه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى فى الخمسين من عمره ، انفق منها ثلاثين عاما فى هـذا الدكان ، وكيلا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة ابيه ، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كمـا يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من اسباب العمل او الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين اهله ، اما بين سائر الناس من اصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبـل كل شىء ، ومحبوبة لظرفهـا قبل اى من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذى يقيم فى بيته ، ولا اهل البيت يعرفون السـيد الذى يعيش بين النـاس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والأرز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر فى قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره واوراقه وتليفـونه ، والى اليمين من مجلسـه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية ، وفى منتصف الجدار فوق المكتب على اطار من الابنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى ، فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السـابق بمثابرة ورثها عن أبيـه وحافظ عليها بحيـويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات فى صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المسـتمرة ، ورسوسة خافتة تنـد من آن لآن عن احرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتبه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع راسه من الدفتر فى فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة او يمد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المـارة وعربات اليد والـكارو ، وسوارس التى تكاد تترنح من كبرها وثقلهـا ، والباعة المغنون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها والفها اكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به ، واقبل نفر من اصحاب السـيد وجيرانه من

التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم — على حد تعبيرهم — على دعابة من دعاباته او نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة . لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها . لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم — مخالطة الند للند — حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك الممتازون من حب واحترام وتكريم . ولما قال له أحدهم مرة فى صدق واخلاص « لو اتيح لك يا سيد احمد ان تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال » نفخ قوله فى خيلائه الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا ، وتزايدت حركة العمل بالدكان . ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ، ووقف فى منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع أنه لم يكن يفصله عنه اكثر من ثلاثة أمتار الا انه اجهده فى معاينته بلا طائل . ثم هتف متسائلا :

— السيد أحمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسما

— أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل . حلت البركة . .

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت فى صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة ، واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه . وجلس على الكرسى الذى قدمه السيد له وبدا الشيخ فى صحة يحسد عليها على سنه التي جاوزت الخامسة والسبعين ، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد مايشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناسلة وان امكنه ان يستبدل بها خيرا منها بما يجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لأنه — فيما يقول — رأى الحسين فى منامه وهو يباركها فبث فيها خيرا لا يبلى ، وكان الى كراماته فى قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحجبة معروفا بالصراحة والظرف ،

وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع انه كان من سكان الحى الا انه لم يثقل على احد من مريديه بالزيارات ، وربما توالت الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد اشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ، ثم قال للشيخ مرحبا :

ـ اوحشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

ـ اغيب كما يحلو لى ، واحضر كما يحلو لى ، ولا اسأل عن السبب ..

فابتسم السيد الذى الف اسلوبه وتمتم قائلا :

ـ اذا غبت انت فان بركتك لا تغيب ..

فلم يبد على الشيخ انه تأثر لاطرائه ، وعلى العكس حرك راسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة :

ـ ألم انبه عليك اكثر من مرة بالا تفاتحنى بالحديث ، وان تلزم الصمت حتى اتكلم انا ؟ !

فقال السيد وبه رغبة فى التحكك به :

ـ معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت قد نسيت تنبيهك فعذرى انى انسيته لطول غيابك .

فضرب الرجل كفا بكف وهتف :

ـ عذر اقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت فى مخالفتى امتنعت عن قبول هديتك !

فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة ، فتريث الشيخ متولى ليتأكد من دخوله طاعته . وتنحنح ، ثم قال :

ـ ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

ـ عليه الصلاة والسلام .

ـ واثنى على أبيك بما هو اهله ، رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ، كأنى به متخذا مجلسك هذا ، لا فارق بين الأب وابنه الا ان الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

ـ فليغفر الله لنا ..

فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :

ــ وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمى وعائشة وكمال وامهم . آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من اذنى السيد موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى افضى اليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين ، وليست اول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات ــ ولو على لسان الشيخ متولى ــ حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين . بيد انه غمغم قائلا :

ــ آمين يا رب العالمين ..

فتنهد الشيخ قائلا :

ــ ثم اسأل الله المنان ان يعيد الينا افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر ..

ــ نسأله وليس شىء عليه بكثير ..

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

ــ وأن يمنى الانجليز واعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .

ــ ربنا يأخذهم جميعا ..

فحرك الشيخ رأسه فى اسى وقال بحسرة :

ــ كنت بالأمس سائرا فى الموسكى فاعترض سبيلى جنديان استراليان وطالبانى بما معى فما كان منى الا ان نفضت لهما جيوبى واخرجت الشىء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله احدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به فى وجهى .

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة فى اظهار استيائه صائحا فى استنكار :

ــ قاتلهم الله واهلكهم ..

فأتم الرجل حديثه قائلا :

ــ رفعت يدى الى السماء وصحت : يا جبار مزق امتهم كما مزقوا شال عمامتى ..

ــ دعوة مستجابة باذن الله ..

ومال الشيخ الى الوراء واغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس فى وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد

بصوت هادىء ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد . قائلا :

ـ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا ابن عبد الجواد ..

فابتسم السيد فى رضى وقال بصوت خفيض :

ـ استغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..

فبادره الشيخ قائلا :

ـ لا تتعجل ، ان مثلى لا يلقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد .. فلاح الاهتمام والحذر فى عينى السيد وتمتم قائلا :

ـ ربنا يلطف بنا ..

فأشار اليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :

ـ ماذا تقول ، وانت المؤمن الورع ، فى ولعك بالنساء ؟!

كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ما على من ذلك ، الا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟

فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :

ـ الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات ..

فمد السيد بصره للاشىء وقال بلهجة جدية :

ـ ما ارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أو كرامة قط ، والحمد لله على ذلك ..

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :

ـ عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟!

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

ـ أأنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟! كان أبى شبه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من انه لم ينجب سوأى الا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية فى حياته ، أما أنا فأب لثلاثة ذكور وانثيين ، وما يجوز لى أن انزلق الى

الاكثار من الزوجات فابدد ما يسر الله علينا من رزق . ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى احلهن الله بالبيع والشراء ؛ والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ..

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة :

— ما ابرعكم يا بنى آدم فى تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثنى وانت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما :

— اللهم استجب ..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :

— لولا مزاحك لكنت اكمل الناس ..

— الكمال لله وحده ..

فالتفت اليه وهو يشير بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم سأله بلهجة المحقق الذى ضيق عليه الخناق :

— والخمر ؟.. ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح فى عينيه ألضيق ولزم الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

— أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟

فبادره السيد قائلا فى حماس من يدفع بلاء محققا :

— لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

— باللسان أم بالعمل ؟!

ومع أن الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتى او التأمل الباطنى ، شأنه فى ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون الى أنفسهم ؛ ففكره لا يعمل حتى يبعثه الى العمل شىء خارجى ، رجل او امرأة او سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد ؛ وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية او تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء ، ولكنه

كان يصـدر فى سـلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقيـة واخلاص فى كل ما يفعل ، فلم تعصف بصـدره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان ايمانه عميقا ، اجل كان ايمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشـاعره ولطافة وجدانه واخلاصه اضـفت عليـه احسـاسا رهيفا سـاميا نأى به عن ان يكون تقليدا أعمى ، أو طقوسا مبعثها الرغبة او الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به ايمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الايمان الخصب النقى اقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصـيام وزكاة فى حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يسـتبق القوم الى الرى من منهله العـذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحيـاة ولذائذها ، يهش للمآكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا فى مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضـمير باحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته اياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبـه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر فى سـاعة من حياته بانه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه فى السلام . أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة ؟!.. أم كان اعتقاده فى السماحة الالهية بحيث لا يصدق انها تحرم هاتيك المسرات حقا ، وحتى فى حال تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا احدا ؟! الأرجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسـه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسـه بالتوفيق بينها . لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد ، وفى هـذه الحال يجد نفسـه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهمـا امام الله ، ولكن لأنه لا يصـدق أبدا أنه متهم ، او ان الله يغضبه حقا ان يلهو لهوا لا يصيب احدا باذى ، أما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشـف عن تفاهة علمه بدينـه من ناحية أخرى . لذلك تجهم للسؤال الذى القاه الرجل عليه متحديا وهو « باللسان أم بالعمل » واجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

ـ باللسـان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة ، بذكر الله قائما

وقاعدا ، وما على بعـد ذلك اذا روحت عن نفسي بشيء من اللهو الذى لا يؤذى احدا او يغفل فريضة . وهل حرم محرم الا لهذا او ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه واغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم :

ـ يا له من دفاع فى سبيل الباطل !

وتحول السيد فجاة من الضيق الى المرح كعادته فقال بأريحية :

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا اتصـوره عز وجل غاضـبا او متجهمـا ابدا ، حتى انتقامه رحمة خافيـة . وانى اقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر امثالها . .

ـ اما فى حساب الحسنات فانت رابح . .

فاشار السيد الى جميـل الحمزاوى لياتى بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فاخذها السـيد وقدمها الى الشيخ وهو يقول ضاحكا :

ـ فى صحتك . .

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ـ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك . .

فغمغم السيد « آمين » ثم ساله باسما :

ـ الم تكن يوما من اهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

ـ سامحك الله ، انت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة احذرك من التمادى فى الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد . .

فتساءل السيد دهشا :

ـ اتغرينى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ـ هديتى لا تجاوز القصـد فابدا بغيرها يا ابن عبد الجواد والسـلام عليكم ورحمة الله . .

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار . ولبث السيد مفكرا ، ومضى يدير فى نفسـه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه فى ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى ما تقدم وما تاخر من ذنب ، اللهم انك انت الغفور الرحيم »

— ٨ —

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل اغا يضطرب فى تيار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون فى التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرعة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السودانى والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق فى هذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم فى أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التى سيق فيها الى الاشتباك فى معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المرتين طوال العامين اللذين قضاهما فى المدرسة ، لا لندرة خلافاته التى لم تكن نادرة فى الواقع ، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره الى تجنبه أسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه فى السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء فى المدرسة ، يتعثرون فى بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم فى صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له فى فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا كالكرة ، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها فى فمه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة فى العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لباها حتى دعاه اليها أحد أقرانه الصغار ، فوجد فى الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة المكبوتة واستردادا لثقته بقوته ونفسه . وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لمعناه فحذره ، ومنه ما جهله فردده فى البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت أنباؤها فى صورة شكوى لضابط المدرسة الذى كان صديقا لأبيه . ولكن سوء الحظ وحده هو الذى قضى بأن يكون أحد غريميه فى المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالى المعركة وجد الغلام فى انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين

بالعصى فى هالة من نسر مسطير . ولما اشار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وادرك ما يتربص به من خطر فتراجع هاربا الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط . وعبثا حاول الرجل ان يصرف العصابة عن مقصدها ، واغلظوا له القول حتى اضطر الى استدعاء شرطى ليوصل الغلام الى داره ؛ وزار الضابط السيد فى دكانه وانبأه بما يتهدد ابنه من شر ناصحا اياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا به الى بيت الفتوات مستشفعين له . وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى الان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحد ابنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم نفحة من هداياه ، ونجا كمال من عصى الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصى .

غادر الغلام المدرسة ، ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسى فرحة فى نفسه لا تعادلها فرحة فى تلك الأيام الا ان نسائم الحرية التى تنشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصداء الدرس الأخير الحبيب ــ درس الديانة ــ من قلبه . وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم . فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه اكثر من مرة سائلا عما اغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ ؛ وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة فى النهاية اسوة باخوانهم من البشر . وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها فى نفسه حتى هذه اللحظة التى يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم انه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها فى البيت على أمه ــ كما اعتاد أن يفعل مذ كان فى الكتاب ــ فيلقى اليها بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن ابيها الذى كان شيخا ازهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ، ثم يحفظها الجديد من السور التى لم يسبق لها حفظها . وانتهى الى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملاليم التى احتفظ بها منذ الصباح ثم

ممـــا جعله يحلم كثيرا بأن يـكون يوما صـــاحب دكان حلوى ليأكلهـــا تناول القطعة فى ارتياح شامل لا يشعر به الا فى مثل هذا الموقف اللذيذ ، لا ليبيعها ، ثم واصل سيره فى شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسى وقتذاك انه كان سجينا النهار كله ، وانه كان محروما من الحركة فضـــلا عن اللعب والمرح ، وانه كان عرضـة فى اية لحظة لعصـــا المدرس المسلطة على الرءوس . بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرســة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع — بسبب تفوقه الذى يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمى — لا يحظى بعشر معشارها عنـــد ابيه . ومر فى طريقه بدكان ماتوســيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم فى مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين الى الاعلان الملون الذى يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيـــل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسـه « ابلة عائشة » لما بين الاثنتين من شبه يتمثل فى الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين ، ومع انه كان يناهز العاشرة الا ان اعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحيـــاة فى ابهج مظاهرها . وكم تخيل نفسـه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر مونق متاح لها — لهما — ارضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح فى الوادى الأخضر او يعبر النهر فى قارب بدا فى نهاية الصورة كالطيف ، او يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، او يجلس بين يدى الحسناء طامح الطرف الى عينيها الحالمتين . على أنه لم يكن جميلا كأخويه ، ولعله كان اشـــبه الأسرة باخته خديجة ، فمثلها قد جمع فى وجهه بين عينى امه الصغيرتين وأنف ابيه الضخم ولـكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثتـــه خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيـــه تبدوان غائرتين اكثر ممـــا هما فى الواقع ، وكان من ســـوء الحظ ان نبه الى غرابة صـــورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه احد الرفاق بأبى « راسين » فاهاج غضبه واورطه فى احدى المعركتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشـــكا فى البيت حزنه الى امه التى تكدرت لكدره وراحت تغريه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وأن النبى عليه الســـلام كان كبير الراس ،

وانه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة الى جامع الحسين الذى قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار اخيلة وعواطف لا تنضب . ومع ان المكانة التى نزلها الحسين من نفسه ـ تبعا لمنزلته من نفس امه خاصة والأسرة عامة ـ كانت وليدة قرابته من النبى الا ان معرفته للنبى وسيرته لم تكن شفيعا الى معرفته بالحسين وسيرته ؛ وما تهفو نفسه دائما اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بانبل القصص واعمق الايمان ، حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفا ومحبا مؤمنا واسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل له من ان راس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنا الا فى مصر فجاءها طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث يقوم ضريحه . وكم وقف حيال الضريح حالما مفكرا ، يود لو ينفذ ببصره الى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى اكدت له امه انه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضىء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سبيلا قنع بمناجاته فى وقفات طويلة ، مفصحا له عن حبه ، شاكيا اليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد ابيه مستنجدا به على الامتحانات التى تلاحقه كل ثلاثة أشهر ، ثم خاتما مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة فى منامه . ومع أن عادة مروره بالجامع صباحا ومساء خففت بعض الشىء من شدة تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات فى اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه ، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه . قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ، ومنها اتجه الى بيت القاضى ، ولكنه بدلا من أن يمضى الى البيت مخترقا النحاسين عبر الميدان الى درب قرمز على وحشته واثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه . كان يرتعد فرقا من ابيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به غاضبا . وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التى يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ، فلو انه اذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين

الدلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، فى البيت أو فى الطريق ، وظل الرجل على جهل بأمره الا أن يبلغه منه شىء بوشاية من أهل البيت اذا ضاقوا بغلوه وافراطه . من ذلك انه جاء يوما بسلم وارتقاه الى عرش اللبلاب الياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ، ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه ، وسرعان مادعا به وأمره أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذى ملأ البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد اخوته فى الصالة وهم يغالبون ضحكهم الا خديجة التى حملته بين يديها هامسة فى أذنه « تستاهل .. كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك زبلن ؟! » على انه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البرىء . ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بألوان شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان — على فظاعته — فملأ حجره بالشيكولاته والملبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما أسرع أن تغير كل شىء فتبدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا ، ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذه أداة لارهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن انه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذى شعر به نحو أبيه فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم القوى ، ومهابته التى تعنو لها الهام ، وأناقة ملبسه ، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شىء ، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذى هوله عنده فلم يتصور انه يوجد فى الدنيا رجل يضارعه فى قوته أو جلاله أو ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من فى البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بايحاء البيئة ، بيد انه ظل جوهرة مكنونة فى حق مغلق من الخوف والرعب . مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذى تتخذه العفاريت مسرحا لألعابها الليلية ، والذى آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه ، وعندما دخل فى جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن فى الظلمة تحت السقف المنحنى ، وسبقته عيناه الى فوهة القبو البعيدة حيث ينبع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد

الســـورة لطرد من تحدثه نفســـه بالظهور من العفاريت . فالعفاريت
لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله . اما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه اذا
ثار أن يتـــلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشـــطر الآخر من
الدرب ، وعند نهايته طالعه ســبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان ؛
ثم لاحت لعينيـــه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم ، والبـــاب الكبير
بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هـذا المكان
من افانين المرح . فعما قليل يهرع الغلمـــان اليه من جميع البيـــوت
من افانين الم.. . فعما قليـــل يهرع الغلمـــان اليه من جميـــع البيوت
تـ..ـطها الفرن فيـخون لعب ولهو وبطاطـــة . وفى تلك اللحظـــة رأى
ســـوارس وهى تقطع الطريق على مهل متجهة الى بين القصرين فوثب
قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبث ان دس حقيبة كتبه تحت ابطه
الأيسر وجـــرى وراءها حتى أدركهـــا ثم وثب الى ســـلمها الخلفى .
ولكن الكمسارى لم يتركه فى سروره طويلا فجاءه يطالبـــه بثمن التذكرة
وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحـــد فقال له متوددا أنه ســـيغادرها
حالما تقف لأنه لا يســـعه النزول وهى سائرة . فتحول الرجل عنه الى
الســـائق وهتف به أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغـــلام
فرصـــة تحوله عنه وثب على امشـــاط قدميـــه وصفعه ثم وثب الى
الأرض وانطلق هاربا وشـــتائم الكمسارى تلاحقه اشـــد من الأحجـــار
المطينة !.. لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولـــكنه رأى
غلاما يفعلها فى الصباح فراقت له ، ثم وجد سانحة لاعادتها بنفسه ففعل ..

- ٩ -

واجتمعت الأسرة ـــ ما عدا الأب ـــ قبيل المغيب فيما يعرف بينهـــا
بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط
بها حجرات نوم الأخوة والاســـتقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد
فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى أركانها الكنبات ذوات المســـاند
والوسائد ، وتدلى من سقفها فانوس كبير يشغله مصباح غازى فى مثل
حجمه . وكانت الأم تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة
دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمراتها التى يعلوها الرماد ، والى
يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، ويجلس
الأبناء حيالها ســـواء من يؤذن له باحتســـاء القهوة معهـــا كياسين وفهمى

أو من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محببة الى النفوس يستأنسون فيها الى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر . وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة فى حب صاف ومودة شاملة : وبدت فى جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع فى فناجينهم راح ياسين يحدث حينا ويقرأ فى قصة اليتمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب ان يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار ـ لا لاحساسه بنقص تعلمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبا صغيرا ـ ولكن غراما بالتسلية وولعا بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز فى جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا ان مظهره لم يتعارض ـ بحكم الزمن ـ مع قسامة وجهه الاسمر الممتلىء بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته ـ رغم حداثة سنه الذى لا يجاوز الواحدة والعشرين ـ على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى اليه بين آونة واخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على أخيه من الضيق كى يشبع اشواقا تشتعل بخياله فى مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما اسرع ان يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق فى المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر ـ كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة ان وجد بها الجواب على بعض اسئلته فما أحرى أن تستثير اسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ فى المطالعة التى تبيح له مفتاح العالم السحرى بعين الحسد والحزن ، فكم حز فى نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه ان يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون ان يسعه حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد فى هذا الجانب من ياسين مثارا لخياله هيأ له من الوان المسرة ما هيأ ، وهيج من اسباب الظمأ وعذابه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينيه الى أخيه ويسأله فى لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب قائلا : « لا تضيق على بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم اقص عليك اليوم فغدا » ، ولم يكن يحزنه شىء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد فى ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا ان يتحول الى امه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذلك » ولكن المرأة كانت

تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين الا انها يعز عليها ان ترده خائبا فتروى له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيزوغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . فى مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت اليه أحد ، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق فى سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه فى مجرى الحديث معترضا تياره بجراة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرا خطيرا بغتة :

— ياله من منظر لا ينسى الذى رايته اليوم وانا عائد !.. رايت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض باكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله فى بطنه بكل قوته ..

وقلب عينيه فى الوجوه ليرى اثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل راى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالاصغاء اليه ، ولمح الى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتى ياسين الذى لم يرفع راسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

— وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة ..

وأبعدت الأم الفنجان عن فمها وهتفت :

— يا ولداه !.. أتقول أنه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته فى نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

— أجل مات ، ورأيت بعينى دمه وهو يسيل بغزارة ..!

وحدجه فهمى بنظرة ساحرة كأنها تقول له : « أنى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا فى تهكم :

— قلت ان الكمسارى ركله فى بطنه ؟.. فمن أين سال الدم ؟!

وانطفأت شعلة الظفر التى تلألأت فى عينيه مذ جذب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :

— لما ركله فى بطنه سقط على وجهه فشج رأسه !

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :

— أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى

جرح ظاهرى » هنالك اكثر من تفسير لخبرك المكذوب — كالعادة — فلا تخف ...

واحتج كمال على تكذيب اخيه وراح يحلف باغلظ الأيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع فى ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء فى هارمونى واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

— ما اكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما ابقيت على احد من اهل النحاسين حيا ..

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على اخبارك هذه ؟!

ووجد فى خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بانفها قائلا :

— اقول له ان الحق على منخور اختى .. !

فقالت الفتاة وهى تضحك :

— من بعض ما عندكم ، السنا فى البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

— صدقت يا اختاه ..

وتحولت اليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :

— هل اغضبتك ! . . لماذا ! . . ليس الا اننى جاهرت بالموافقة على رأيك ...

فقالت له حانقة :

— اذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه متظاهرا بالحيرة ثم تمتم :

— والله ان اكبر عيب ليهون الى جانب هذا الأنف ..

وتظاهر فهمى بالاستنكار ثم تساءل فى نبرات وشت بانضمامه الى المهاجمين :

— ماذا قلت يا أخى ، اهو انف أم جريمة ؟

ولما كان فهمى لا يشترك فى مثل هذا النضال الا نادرا فقد رحب ياسين بقوله فى حماس وقال :

— هو الاثنان معا ، فكر فى المسئولية الجنائية التى سيتحملها من يقدم هذه العروس الى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الأم الى وقوع

ابنتهـا بين كثرة من المهاجمين فأرادت ان ترجع الحـديث الى أصـله وقالت بهدوء :

ــ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثنا عن السيد كمال أصدق فى أخباره ام لم يصدق ، ولكن اظن انه لا داعى الى الشك فى صدقه بعد أن حلف .. أجل كمال لا يحلف كذبا ابدا ...

وباخ سرور الغلام الانتقامى لتوه ، ومع إن أخوته واصلوا المزاح حينا آخر الا انه انقطع عنهم بروحه ، متبـادلا مع أمه نظرة ذات معنى ، ثم خاليا بنفسه متفكرا فى قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولهه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه فى مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه فى نظره الا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدرى الى التورط فيه . بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، من الهمّ والقلق ، ويود لو نقتلع الماضى السيىء من جذوره ، وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله فى ضراعة أن يعفو عن زلته وهو يشعر بفضاضة من اجترأ على حبيب باساءة لا تغتفر . وغرق فى توسلاته مليا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح اذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضى الأسرة البعيـد أو القريب ، وأنباء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين ، أمام أبيهما الجبار تنبرى خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت فى مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه السمحة العفوة . وانتبـه أخيرا الى فهمى وهو يقول مخاطبا ياسين :

ــ ان هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل فى هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فى هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمـان وبالتالى الترك وأن تسترد الخـلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمـد فريد الى الوطن ولـكن أمنية من هذه الأمانى لم تكن لتشغل قلبه فى غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

— مضى اربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..
فقال فهمى برجاء واشفاق :
— لكل حرب نهـاية ، ولا بد ان تنتهى هـذه الحرب ، ولا اظن الألمان ينهزمون ! ..
— هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رايك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الانجليز ؟!
ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :
— المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وان تعود الخلافة الى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهدا؟ ...
وتدخلت خديجة فى الحديث متسائلة :
— لماذا تحبون الألمان وهم الذين ارسلوا زبلن ليلقى قنابله علينا .. !
وراح فهمى يؤكد — كعادته — أن الألمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين فى جلسته ونهض الى حجرته ليرتدى ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ واخذ زينته ، فتراءى انيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت اكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته فى الطلاق ساخر ، فلم يغب عنه أن اخاه لم يعد يحاسب — منذ تعيينه كاتبا بمدرسة النحاسين — على ذهابه أو ايابه ، وانه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا واسعده ، وكم يكون انسانا سعيدا لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة — حين تتم له اداتها — على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :
— أيمكننى اذا وظفت أن اسهر فى الخارج كياسين ؟
وابتسمت الأم قائلة :
— ليس السهر فى الخارج بالغاية التى يصح أن تحلم بها من الآن !
فصاح محتجا :
— ولكن ابى يسهر ، وياسين يسهر كذلك
فرفعت الأم حاجبيها ارتباكا وتمتمت :
— شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا ، ووقتها يفرجها ربنا !
ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :

- ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟

وصاحت خديجة فى سخرية :

- تتوظف دون الرابعة عشرة !.. وماذا تصنع اذا بلت على نفسك فى الوظيفة ؟ !

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدراء :

- يالك من حمار .. لماذا لا تفكر فى دخول الحقوق مثلى ؟ ... ان ظروف ياسين القاهرة هى التى جعلته يأخذ الابتدائية فى العشرين من عمره ، ولولاها لأتم تعليمه .. الا تدرى حتى كيف تتمنى يا كسول !

- ١٠ -

عندما صعد فهمى وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء ، فلاحت قرصا أبيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين فى ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور « سطح الجيران . وكان فهمى يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه فى الهواء الطلق على الرغم من ان جو نوفمبر اخذ يميل الى البرودة خاصة فى هذه الساعة من اليوم ، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة - شابة فى العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت فى جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها فى سلة كبيرة ، ومع أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا انها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه الى مجىء الطارئين . أمل كان يجىء به دواما فى مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها » ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة المفاجأة ، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر ، وهى تتراءى تارة وتحتجب أخرى « أو يبدو بعضها ويغيب بعضها ، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشوره .. كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء العينين « تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا ان جمالها

وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتهـا لم تسـتطع ان تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه ـ وانيا حين حضورها ثم قويا اذا خلا الى نفسه ـ لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذى ينبغى أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه ، أو كأنها فتاة لاتبالى التعرض للرجال ، وطالما ساءل نفسه ما بالها لاتفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت احداهما نفسها فى مثل موقفها ! وأى روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعية والآداب المقدسة ! ، والا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها ؟ ! . . بيد انه داب على انتحال الأعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد أيضا . ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى . ولما لم يكن جريئا كجرأتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه ان يجرح شاب فى الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم فى طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا اقلقه دائما شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من ان يترامى نباها الى أبيه فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر شىء منها على افساد نشوته او انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهى تبدو أو تختفى حتى خلا مابينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان واصابعها تنقبض وتنبسط عى مهل وتؤدة كأنها تتعمد اطالة عملها وحدس قلبـه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد فى الانطلاق مع فرحته الى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصا وانغاما ، ومع انها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميهـا النظر اليه نمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على احساسها . وبدت فى هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هى هى التى تشيع الفرح والبهجة فى بيته اذا زارت شقيقتيه ؛ او ليست هى هى التى يعلو صوتها فى جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنـالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه فى يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقه طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز انغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من اصوات الآخرين الملابسة لها التى لايكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيسى يجذب اليه المطلب وحده من بين أخلاط شتى ، وربما لحظ بعضا منهـا وهو يعبر الصالة ، وربما التقت عيناهما فى لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملأ بنظراته المسترقة

من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من إنهـا كانت نظرات مسترقة خاطفة الا أنها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تاتى النظرة منها بما لا يســتطيعه النظر الطويل والسبر العميق . كأنها انبثاق البرق الذى يتوهج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتخطف الأبصار ، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل ــ كحاله أبدا ــ من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع ، لأنه لم يكن يكف عن التفكير فى الأربعة الأعوام التى يتم تعليمه فيها ، والتى لا يدرى كم من يد قد تمتد فى اثنائها الى الثمرة الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذى تشـد على عنقه قبضة ابيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس الى سلام قلبه اقصر السبيل ، ولكنه خاف دائما ان ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من ابيه قاسية تطيرها وتبددها . وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى اى أفكار تدور براسها ؟ . الا يشغله حقا إلا ما تجمع من قطع الملاليم !.. ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟.. وكيف يلقى قلبهـا هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟.. وتخيل نفسه متخطيا ســور السطح الى مكانها فى الظلام ، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار ، ثم تصــور ما يكون بعد ذلك ، وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد انها كانت محض تخيلات واوهام ، وكان أدرى الناس ــ بما جبل عليه من دين وآداب ــ ببطلانها ومحالها . وبدا الموقف صامتا الا انه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان ، وحتى كمـال لاحت فى عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسـائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذى يثير استطلاعه على غير جدوى ، ثم نفد صبره فرفع صوته قائلا :

ــ لقد حفظت الكلمات . الا تسمعها لى ؟

وافاق فهمى على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معانى الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا واى سبب فرفع صـوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

ــ قلب .. ؟

واجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس اثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ــ حب ... ؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :
ـ ليست هذه الكلمة فى الكراسة ..
فقال فهمى باسما :
ـ ولكنى ذكرتها لك مرارا ، وكان يجب ان تحفظها ..!
وقطب الغلام كانه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن اخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :
ـ زواج .. ؟

وخيل اليه عند ذاك انه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه فى سرعة وحرارة ، وملأه شعور بالظفر لأنه امكنه اخيرا ان ينقل اليها شحنة من الكهرباء التى تستعر فى صدره ، بيد انه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، الأنها استنكرت سابقتها أم ان الأخيرة كانت أول ما وعت اذناها ؟!.. وما يدرى الا وكمال يقول محتجا بعد أن اعياه التذكر :
ـ هذه الكلمات صعبة جدا ..

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فوره سروره او كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موضعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت أن تتصدى له وجها لوجه ، فبدت فى هجومها جريئة لحد اخافه واربكه ، وان عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حبوية وافراحا . ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت ان رفست السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة فى الانفراد لتملى ما استجد له من تجارب الهوى فقلب عينيه فى الفضاء فى تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه الى الظلمة الزاحفة فى الأفق لاول مرة ، وتمتم قائلا :
ـ آن لنا ان نعود ..

- ١١ -

وكان كمال يستذكر دروســه فى الصالة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمى وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه واختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذى يجدن فيــه على تفاهته متعة لا تدانيهــا متعة ، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة فى حين تربع كمال على كنبة أخرى قبالتهم فاتحا كتابه فى حجره يقرأ فيــه حينا ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينا آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمى يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام فى المدرسة شفع له فى اختيار المكان الذى يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التى تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ســاعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه واختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفســه لو كان حظ الذكور فى هذه الدنيا كحظ النسـاء الا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته فى أحايين كثيرة الى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفى صوته رنة التحدى « من منكن تعرف عاصمة الكاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالانجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجهلهــا ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلاسم الا من كان له راس كراسك ! » اما أمه فتقول له فى ايمان ساذج « لو علمتنى هذه الأشياء كما تعلمنى الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك أن أمه — على استكانتها ورقتها — كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن أنها بحاجة الى مزيد من العلم أو أنه اســتجد من العلم ما يســتحق أن يضـاف الى ما لديها من معــارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بعلمها انها تلقته عن أبيها أو فى بيته الذى نشأت فيه ، وكان الأب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله — لحفظهم القرآن — على العالمين ، فلم يكن معقولا أن تعدل بعلمه علما ولو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة . ولهذا

كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء فى المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء فى تفسيره أو فى السماح بتلقينه للناشئين . بيد انها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام فى المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسى لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادىء الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل فى اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبى والصحابة والأولياء ، وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة فى موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى . وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف فى تبسطه فى الحديث أحيانا — لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا ، ثم انه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله فى الدروس الجافة فكان درس أمه من اسعد ساعات اليوم واحفلها بالمتعة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت اسبابه ، من ذلك أنهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هى تدور حول نفسها فى الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الغلام اصرارا تراجعت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذى يحمل الأرض وهل ما زال على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة التى تحبها فقال لها ان الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذى سرها وان لم يمح من مخيلتها ذاك الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة منه فى الفخر بعلمه أو حبا فى النزاع الفكرى ، كان فى الحق يحب بكل قلبه الا يفارقهن ولو فى وقت عمله ، وكان يجد ثم الراحن سرورا لا يعادله سروره فهذه الأم يحبها اكثر من اى شىء فى الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهى تلعب فى حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ، وهذه عائشة التى وان لم تتحمس يوما لخدمة انسان الا أنها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا الى حجرة نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة

درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

— استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..

فاستوت المرأة فى جلستها وهى تقول باحترام واجلال :

— كلام ربنا عظيم كله ..

وسره إهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده الا حين هذا الدرس الأخير من اليوم . أجل كان يجد فى هذا الدرس الدينى أكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم فى أثناء نصفه على الأقل بدور المدرس ، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع فى نصفه الآخر بما تلقيه عليه امه من ذكريات وأساطير ، وأنه يستأثر وحده فى شطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال فى الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » حتى أتم السورة ولاح فى عينى الأم التردد والحيرة ، اذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة فى الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو احد الاسمين الخطيرين فى سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الغلام فى وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن تفصح أخيرا عن اشفاقها فى لون من ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت ، فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

— ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر

فقالت المرأة فى شىء من الضيق :

— لعلهم .. ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا الا نردد أسماءهم ..!

— لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرسنا ..

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

— المدرس لا يعرف كل شىء !

- وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :

- كلام ربنا بركة كله ..

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :

- ويقول شيخنا ايضا ان أجسامهم من نار !

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات اما كمال فاستطرد قائلا :

- وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابنى بحدة قائلا ان الله قادر على كل شىء ..

- جلت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

- واذا التقينا بهم فى الجنة الا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المرأة وقالت فى ثقة وايمان :

- ليس فيها أذى او خوف ..

وسرح الغلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :

- أنرى الله فى الآخرة بأعيننا ؟

فقالت المرأة بنفس الثقة والايمان :

- هذا حق لا ريب فيه ..

فلاحت فى نظرته الحالمة أشواق كما تلوح فى الغلس بتأثير الضياء ، وسأل نفسه متى يرى الله ، وفى أى صورة يتبدى ، واذا به يسأل أمه مغيرا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :

- أيخاف أبى الله ؟!

فتولتها الدهشة وقالت فى انكار :

- يا له من سؤال غريب !.. أبوك رجل مؤمن يا بنى ، والمؤمن يخاف ربه ..

فهز رأسه فى حيرة وقال بصوت خفيض :

- لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..

لهتفت المرأة فى عتاب :

- سامحك الله .. سامحك الله ..

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض

الغلام ليذهب الى حجرة النـوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشـه الصغير ، ثم وضـعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعمـاق قلبه الصـغير . وكانت تلقى دائما صـعوبة فى التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم نفز باستبقائها حتى يغيب فى نومه وهو بين ذراعيها » ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب اليهـا أن تتلو على رأسه ـ اذا ختمت آية الكرسى ـ سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له من أحـلام مزعجة لا تدفعهـا الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى فى تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد فى تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسـة التى هضمت أفظع الهضم يوم فصل عن أمه ظلمـا وعدوانا وجىء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضطجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهى تسكب فى أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سـهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهمـا ، وتطلع اليهـا ليرى أثر نفيـه فى نفسـها فما عجب إلا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقك أن يفرد لك فراش خاص » ، من قال انه يسره أن يكون رجلا أو أنه يطمح الى أن يفرد له فراش خاص !؟ ومع أنه بلل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع أنه أنذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحيـاة ؛ الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لأنه كان يعـلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة أبيه التى لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن فى أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه ـ لا لأنه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب ـ ولكن لأنها كانت آخر من يتصور أن يخيب عنده الأمل ، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودأبت على الا تفارقه بادىء الأمر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألست ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذى كان يفرق بيننا ونحن فى فراش واحد » . والآن لم تعد

تطفو على شـــعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنام الى حيـاته الجديدة ، الا انه لم يكن يدعهـا تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها الى جانبـه أطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتهـا فى حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين اطفال يتخاطفونها وراحت هى تتلو الآيات على راسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه فى جانبها الأيمن وتساءلت فى رقة : « نمتما ؟ » فجاءها صوت خديجة وهى تقول :

ــ كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة ! .

ثم بسمع صوت عائشة وهى تقول فى نبرات ناعسة :

ــ ما سمع احد لى شخيرا قط ، ولـكنها لا تدعنى انام بثرثرتها المتواصلة . .

فقالت الأم فى عتاب :

ــ اين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !

وردت الباب وسـارت الى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحت وأدخلت راسها وهى تقول باسمة :

ــ افى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فرفع فهمى راسـه عن الكتـاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة ، فردت البـاب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتـاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد ، وصوتها يسبقها تاليا الآيات . .

- ١٢ -

لما غادر ياسين البيت كان بدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصـد مسـاء بعد مسـاء ولكنه بدا ــ كعادته دائما اذا مشى فى الطريق ــ وكأنه لا وجهة له . كان شـأنه اذا سار ان يسـير متمهلا فى هوادة ورفق ، مختالا فى عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحـدة عن انه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفـائض حيوية وفحولة ، وهـذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها ــ وأكثر ــ من العناية الى منشة عاجية لا تفـارق يده صيفا او شتاء ، وطربوش طويل مائل يمنة حتى يكاد يمس حاجبه

ومن عادته أيضا اذا سار أنه كان يرفع عينيه ــ دون راسه ــ مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر فى نهايته بما يتسبه الدوار من كثره تحربك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتى يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه اردافهن مدبرات ، ويظل فى قلقلة كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده ، الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه ماخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد احمد عبد الجواد شفعتا له بالاغفاء والتسامح . كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها ، وشعر دائما بالسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخفه او يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيفا حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فراى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعينى ابيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى فى اجلال رافعا يده الى رأسه فى أدب ، فرد الرجل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال . والحق أن عنف أبيه المعهود ، ولو انه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى فى سلك موظفى الدولة الا أنه لم يزل فى نظره نوعا من العنف الملطف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وان الآخر الأب ، وما فتىء يتضاءل بحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما أن ابتعد عن دكان ابيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى الدبدبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن فبائعات الدوم والبرتقال ــ على سبيل المثال ــ وان شابهن الأرض التى يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟! . ثم اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية

الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاى . جلس بحيث يوجه بصره فى يسر ودون اثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة فى بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالمة» ولم تكن «العالمة» مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها فى صبر واناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة « العالمة » ونجمة تختها اللامعة . وكانت فترة توظفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجبارى عاناه محاذرا فى ظل أبيه الرهيب » فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر فى مهاوى الازبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر فى الميدان الاستراليون فاضطر الى التخلى عن مغانى العبث فرارا من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب فى أزقة جيه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقرأن الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة ، بيد انها كانت الى هذا ذات حسن فهرسته ، وليس الحب لديه الا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من الوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية فى جزع وقلق انسياه نفسه فحسا الشاى الساخن دون أن ينتبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السمار الذى أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن لسعته او انها السبب فى عدم ظهور زنوبة بالنافذة .. « ترى أين الملعونة ؟ .. أتتعمد الاختفاء ! .. من المحقق إنها تعلم بوجودى هنا .. ولعلها رأتنى قادما .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين فى أحاديثهم التى لا تنتهى ، فداخله ارتياح وأرجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد انه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته فى المدرسة اذ شك الناظر فى أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم

بدا منه شيء من التراخى فى عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفوه بقية اليــوم وجعله يفكر فى ان ينسكو الناظر الى ابيه ــ وهما صديقان قديما ــ لولا خوفه أن يجد أباه اشد عليه من النــاظر .. « اطر عنــك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. حسبى الآن ما الاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة » واذا بأحلام عارية تنثال على خيــاله « احلام كثيرا ما تمثــل على مسرح أوهامه وهو يرنو الى امرأة او يستعيد ذكراها ، تخلقها عاطفــة هوجاء تنزع عن الأجســد اغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جســده هو ، ثم تمضى فى فنــون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حماره «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة . وتساءل ترى اجاءت العربة لتحمل أفراد التخت الى فرح من الأفراح ؟ .. ونادى صبى القهوة ودفع اليــه الحســاب متأهبا لمغادرة المكان فى اية لحظة اذا دعا داع . ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نســوة التخت وهى تجر رجــلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، واعانه الحوذى من ناحية اخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين فى مقدمة العربة . وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثالثة متأبطة صرة ، وقد تبدين فى ملاءاتهن اللف سافرات ، كاسيات ــ بدلا من البراقع ــ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه . ثم ماهذا !.. رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب فى جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منــديل قرمزى ذى اهداب منمنمة ، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة . واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما الى أعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقــه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنيــة الجورب معقودة فوق الركبة على اديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالى .. « آه لو تغوص بى الأريكة فى الأرض مترا .. رباه .. ان وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك ! .. وكيف يكون البطن !.. البطن يا هوه .. » وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العــربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أربع .. « يالطيف

.. يا لطيف .. آه لو كنت على باب البيت .. او حتى فى دكان محمد الطرابيشى .. انظر الى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينيه .. ما اجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يا لطيف .. يا منقذ .. »
واخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وابرزت - خاصة - عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على اسنانه من شدة الانفعال .
وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه فى وسادة العوادة ، يذهب معها ويجىء حتى خالها بعد حين ترقص . وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق واخذت كثرة من الدكاكين تغلق ابوابها ، الى ان غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام فى امن ودعة .. « اللهم لاتجعل لهذا الطريق من نهاية » ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام .. يالها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدتها معا بالنظر المجرد .. وهذا المفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده .. وما خفى كان اعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس ركعتين قبل أن يبنى بعروسه .. أليست هذه قبة ؟ .. بلى وتحت القبة شيخ .. وانى لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ . يا هوه .. يا عدوى .. » وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولى فالتفتت زوبة وراءها ورائه ، ثم خيل اليه ، وهى تعيد راسها ، انه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه فى عنف وسرت فى وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها لأنه راى عن كثب معالم زينات وانوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على الارض ، وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الزغاريد . وتنهد تنهدة حامية ، ولفته حيرة خانقة فبدا قلقا كأنه لا يدرى اى وجهة يقصد .. « لعنة الله على

الاستراليين ! .. اين أنت يا ازبكية لأبثك همى واشجانى واتزود منك بشىء من الصبر » .. ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقى .. الى كستاكى » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى راسه حنينا الى حميا الشراب .. كانت المرأة والخمر فى حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة . ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد انه لم يتح لهما ـ المرأة والخمر ـ أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء . فلم يجد بدا من ان يخفف لوعته بالشراب ، وبكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه ، وقصد بدالة كستاكى عند راس السكة الجديدة ـ حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ـ ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون ابوه هنا او هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفا أمام الميزان والخواجه كوستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا واشمئزازا . لم يكن فى مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية ، كان فى الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشىء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

- ١٣ -

ارتمى على اول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نفاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة اشبه ، تدلى من سقفها فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسى خيزران جلس اليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل . من عجيب انه لم ينس الرجل ، وانه عرفه من النظرة الأولى ، متى رآه آخر مرة ؟.. لا يستطيع أن يجزم ، ولكن من المحقق انه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنتى عشرة سنة الا مرتين احداهما التى

زلزلته الآن . وقد تغير الرجل ما فى ذلك من شـك فغدا شيخا هادىء وقورا ! . . الا سـحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به فى سـبيله . والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشـعر بمرارة الهوان تجرى فى ريقه . ياله من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعنـاد حتى ترده اليه ذكرى من الذكريات المعتمـة او مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا . . ضائعا . وعلى رغمه حملقت عيناه فى الماضى البغيض ، بقوة الهياج المثار فى رأسه وقلبه ، فانشق الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشنه كرموز للعذاب والكراهية ، فميز من بينهـا دكان فاكهة يقوم على راس عطفة قصر الشوق ، وطالعته صورة غامضة المعالم ، هى صورته وهو صبى . فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به الى المراة التى بعثته وانتظرت . الى امه دون غيرها وا اسـفاه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسـة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته سـورة الرجل فتساءل جزعا ترى أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ . . أكان يذكر فيـه الصبى الصغير الذى عرفه قديما ابنا لتلك المرأة ؟ . . وقرضته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضاءل فى حسه حتى استحال لا شىء . وجىء عند ذلك بالدورق والقدح نصب ونهل فى نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من اعماق الماضى وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق . أيهما يلعن : الحظ الذى جعلها أمه أم جمـالها الذى شغف كثيرين حبا وأحاطه بالكوارث ؟! . . والحق انه لم يكن بوسعه أن يغير أمرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا ان يذعن للقضاء الذى هرس عزة نفسه ، افليس من الظلم ان يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كانه هو الجانى الأثيم ؟! . ولم يدر لم استحق اللعنـة ، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا فى حضانة أمهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف اكثرهم وجد من امه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدليـلا سابغا لا تشـكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سـعيدة قوامها الحب واللين والدمائة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القـديم بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على اسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربيته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشـموع ويكتنفها الفتوات فيتجلى اكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء . فى ذاك البيت

احب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت فى قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الأولى لنفور غريب ــ نفور ابن من امه ــ التى قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما كان فى وسع الارادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا ان يكون لنا ــ مهما أوتينا من ارادة ــ الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب . والآن يتساءل ــ كما تساءل من قبل كثيرا ــ متى فطن الى ان أمه لم تكن الشخص الوحيد فى حياته ؟!. . بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين . وما يذكر الا انه فى فترة ما من طفولته دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لآخر ، ولعله ــ ياسين ــ كان يتطلع اليه بغرابة وشيء من الخوف . ولعل الآخر بذل ما فى وسعه لايناسه وارضائه : انه يحملق فى الماضى على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضى دمل يود لو يتجاهله على حين لاتمسك يده عن جسه من آن لآخر . ثم أن هنالك أمورا لا يمكن ان تنسى . . ففى مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة او باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . فى ذاك المكان يذكر انه اطلع فجأة ــ فى ظروف قرضها النسيان ــ على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيا حتى اقبلت المرأة عليه فى اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره . وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما ؛ ثم صب من الدورق فى القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرا وأخرج منديله وانشأ يدلكها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته ، . . ولكن اى طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى مرآة الماضى البغيض . لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ له وطاب من الوان الفاكهة ، ثم كان يراه بعد ذلك فى دكان الفاكهة عند رأس العطفة اذا استصحبته أمه معها فى مشوار ، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه فى عنف بعيدا عنه وتمنعه من الأيماء اليه حتى تعلم ان يتجاهله وهو فى صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص فى نظره ابهاما وغموضا . ثم حذرته من أن

يعود الى ذكره امام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت — امه — اذا غاب الرجل عن البيت اياما يكون مبعوثا — اليه ليدعوه الى ان يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملأ له قرطاسا من التفاح والموز . ويحمله موافقته او اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال انه كان اذا اشتاق الى لذيذ الفاكهة استأذن امه فى أن يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ فى قهر ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا فى دمه ، وبدات تلعب دورها الساحر فى معاونته على حمل متاعبه . . « قلت الف مرة انه يجب أن أدع الماضى مدفونا فى قبره . . لا فائدة . . لا أم لى وحسبى امرأة أبى الرقيقة الطيبة . . كل شىء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدى أن اميتها . . ترى لم اجارى الحاحها على فابعثها من قبرها حينا بعد حين !. لم ؟!. . سوء الطالع وحده الذى رمى بالرجل فى طريقى اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما . . أود ان يموت كثيرون . . لم يكن الرجل الوحيد . . . بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه فى ظلمات الماضى رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد فى تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها — هذه البقية — تمتاز بما يضيئها من نور نسبى بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا فى السنوات القلائل التى سبقت انتقاله الى حضانة ابيه ، وقد وجدت امه الشجاعة لتصارحه بان ذاك « الفكهانى » يتردد عليها طلبا ليدها ، وأنها مترددة فى قبوله ، وأنها غالبا سترفض اكراما له !. ترى اصدق ما قيل له ؟. . هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته ، ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التى تتكشف للقلب دون العقل ، ويكابد الوانا من القلق اطار عن هامته حمامة السلام ، فتهيات فى نفسه تربة لتلقى بذرة النفور التى صارت مع الأيام الى ما صارت اليه . ثم انتقل فى التاسعة من عمره الى حضانة ابيه الذى لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بامه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذى غلته به أمه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة جائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح فى الابتدائية بعد ان نيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية فى بيت امه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبراته الجديدة انوارا فاضحة

فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم فى الحياة خطوة بدا له الماضى سلاحا مسموما منغرسا فى صميم نفسه وكرامته . وقد داب ابوه باديء الأمر على أن يسأله عن حياته فى بيت امه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة فى استثارة اهتمام أبيه وحب الترثرة الذى يستهوى امثاله من الغلمان . ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج امه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهانى» الذى زعمت يوما انها رفضت الزواج منه اكراما له !.. وانقطعت صلته بها من ذاك العهد — منذ احدى عشرة سنة — فلم يعد يدرى عنها شيئا الا ما ينقله اليه ابوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش فى العام التالى لطلاقها ، ثم طلاقها مرة اخرى بعد حوالى عامين الخ .. الخ .. وفى فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى ابيه من يستأذنه فى السماح له بالذهاب اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها باباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران واقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث انزلتها فعالها .. « امراة . أجل ما هى الا امراة .. وكل امراة لعنة قذرة .. لا تدرى امرأة ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا .. حتى امراة ابى الطيبة ، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا ابى ! » وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر ؟ ! كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا اقطع راسه .. الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر .. اما الخمر فكلها فوائد .. » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقال الرجل مستنكرا « وما فوائدها ! ما اعجب سؤالك !.. كلها فوائد كما قلت .. وأنت تعلم هذا وتؤمن به .. » فقال صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به .. الناس جميعا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟ ! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة اذن ، الكل » الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! » فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! ، زك .. حج .. أطعم المساكين .. أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر امثالها .. »

وابتسم ياسين فى شىء من الارتياح . اجل امكنه اخيرا ان يبتسم فى شىء من الارتياح .. « لتذهب الى الجحيم ، ولتاخذ الماضى معهـا .. لست عن شىء مسـئولا .. كل انسان ملوث فى هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبا .. شىء واحد يهمنى جدا هو عقارها ، دكان الحمزاوى وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشـوق .. وانى أعد أمام الله اذا ورثته كاملا يوما ان اترحم عليها بلا اسف .. آه .. زنوبة .. كدت انسـاك وما انسانيك الا الشيطان . امراة عذبتنى وامراة التمس عندها العزاء .. آه يا زنوبة ، ما علمت قبـل اليـوم ان باطنـك بهذا اللون الرائق .. اف ينبغى ان أمحو الفكر من راسى .. الحق أن أمى كالضرس الثائر ، لا يسكن حتى ينخلع .. »

— ١٤ —

جلس السيد احمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشـاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيـار خواطره ، ويرنو الى لا شىء بوجه تنم معالمه عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب أن يشـعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يبليه التكرار ، وقد واتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصـباح حتى وافاه الداعى وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا — فيما قالوا — انهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضـحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون فى منادمته ، وان مجلسـهم خلا — على حد تعبيرهم — من روحه . وها هو يستعيد اقوالهم فى سرور وزهو لطفا كثيرا مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضـمير حريص بطبعه على ارضـاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة فى اخلاص وايثار ، فكاد يكدر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم فى نفسه من أريحية الرضا والعجب ، اجل طالما كان الحب الذى يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يغدق عليه ما يشـاء من فرح بهيج وزهو برىء وكأنه

خلق للصـــداقة قبل كل شيء . وثمة آية اخرى على هــذا الحب ـ والأصدق ان يقال انه حب من نوع آخر ـ تجلت له ضحى اليوم حين الت به ام على الخاطبة وقالت له بعــد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران « الا تعلم أن ست نفوسه ارملة الحاج على الدسوقى تملك سبعة دكاكين فى المغربلين ؟ » وابتسم السيد . وفطن بالغريزة الى ما تومىء اليه المرأة ؛ وحدثه قلبــه بانها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتمان ، الم يخيل اليه فى اكثر من مناسبة أن الست نفوسه تكاد تعلن عن ودها أثنــاء ترددها على دكانه لابتياع حوائجها ؟.. بيد انه اراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال لها باهتمام ظاهرى «عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب !» ؛ وظنت ام على انها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك الســيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفســه ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ؛ اخفقت فى الأولى ووفقنى الله فى الأخرى ، ولن أبطر بنعمة الله » . والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لا تنثنى ، وكأنه لم ينس مثــل أبيه الذى انزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعى » بددت ثروته وجرت عليه المتــاعب ، ولم تبق له هو ـ عقبه الوحيد ـ الا على شيء من المال لا يغنى . ثم أنه من ربحه ودخله فى بسطة من العيش هيأت لأسرته هناء ورغدا وأتاحت له ما يشاء للانفاق فى مسراته وملاهيه فكيف يقــدم على ما يخل بهذا الوضــع البــديع المتناسق الذى يكفل له الــكرامة والحرية ؟ !. اجل لم يجمع الســيد ثروة ، لا لقصور فى وسائلها عن تجميعها ولــكن لما طبع عليه من جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وفضائله ملأ نفســه طمانينة وثقة وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم . على أن صــده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة ، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جميلة كالست نفوسه توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين واسارير حالمة باسمة ، وذكر ـ باسما أيضا ـ ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ، حســبك يا عجوز !.. » عجوز ؟!.. انه فى الخامســة والأربعين حقا ، ولكن ما قول العاذل فى هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشــعر

السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ؛ الى ان مزاياه لم تكن لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا فى أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بكر حسن عليه ، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا انه لم يثقل ابدا على احد من الناس ، لأن تواضعه كان طبعا وسجية كذلك ؛ ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة واخلاصا وحبا . والحق انه كان ينزع بفطرته الى ان يحب كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الظامئة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى أن يقال ان تواضعه كياسة او طبيعة والأصح أن يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة لا تدبير الارادة ، فتجلت طبعا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل ، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب احب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة دفعت المحبين الى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء ، واذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية باجمل جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة . وبهذا الوحى الغريزى نفسه استهدى حتى فى جانب حياته الماجن ، فى مجالس انسه وطربه ، فلم يتخل فيها - مهما لعب الشراب برأسه - عن لباقته وكياسته ، ولو شاء ، بما أوتى من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ، لاكتسح السمار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجالس الأنس بمهارة وأريحية تفسح المجال لكل سامر ، ويشجع اهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف مزاحه فى نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأسر الفؤاد . على أن كياسته الفطرية او فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ، فاعلنت عن نفسها أروع اعلان

فى كرمه المأثور - سواء ما يتجلى منه فى الولائم التى يدعو اليها من حين لآخر فى البيت الكبير او فى الهبات التى ينفح بهـا المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه - وفى شهامته ومروءته ونجدته التى فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا دعت الضرورة الى المشورة أو الشفاعة او الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال او شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا اجر - غير الحب - فكان سمسارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد دائما فى ادائها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذى تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطويها كأن فى نشرها أذى واى اذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا - اذا خلا الى خواطره وانقشع عنه الحياء الذى يتولاه حيال الناس - بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت فى قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسه هانم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت فى انا .. بيد اننى لن اتزوج ، هذا أمر مفروغ منه .. وليست هى بالمرأة التى تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج .. هذا انا وهذه هى فكيف يمكن أن نلتقى !.. ولو صادفتنى فى غير هذه الأيام التى سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن فى حاجة اليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربة وهى تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها فى بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها فى اثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهى تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر الى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية فى لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

- وسع يا جدع انت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب .

- الله يسامحك يا جلجل .. ملكة العوالم مرة واحدة !.. هلا عرفت

فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

ــ أهلا وسهلا ، كان حقا علينا ان نفرش الأرض بالرمل . .

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

ــ بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا اقبل غير مسبوق ببشير ؟..

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسى ليأتى به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسى بنفسه وهو يومىء براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت ــ ربما بلا شعور منه ــ لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، ولعله تأثر فى بسطها بما تركه فى خياله منظر العجيزة الهائلة التى ستملأ مقعد الكرسى وتفيض عن جوانبه حتما . وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

ــ الم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

ــ صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد ..!

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل والقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

ــ واخجلتاه !.. حدثتك من الدكان يا جلجل لا عن السيد احمد ..!

وشعر فؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

ــ الدكان والسيد احمد شىء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها فى دلال وقالت بعناد لطيف :

ــ ولكنا نريد الدكان لا السيد أحمد ..

وبدا أن السيد احمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو

الطيب الذى خلقته السلطانة . فهذا جميل الحمزاوى كان يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالمة ، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتمر فى الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار فى الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة وان يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين . بيد ان هذا لم ينسه ما كان فيه من اسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

ـ قضى الله جلت حكمته ان يكون الجماد احيانا اسعد حظا من الانســـان ..

فقالت بلهجة ذات معنى .

ـ أراك تغالى ؛ لن يكون الجماد أسعد حظا من الانسان ، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة ..

فثقبها السيد بعينيه الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

ـ اجل فائدة !.. (ثم مشيرا الى الأرض) .. هذا الدكان !..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

ـ اريد سكرا وبنا وأرزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان شيئا !..

(وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) .. ثم ان الرجال أكثر من الهم على القلب ..

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بانه مقبل على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

ـ ليست كل الرجال ســواء يا سلطانة ، فمن قال لك أن الانســـان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟!.. الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف ..!

فساءلته ضاحكة :

ـ انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ .. فكلاهما حياة للبطون ..!

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد أن ترفعه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحسلته انها غيرت

« السياسة » أو لعلها لم ترح كل الارتيـاح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول فى هدوء .

— افادك الله !.. ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر ..

وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فاوحى مظهره بانه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استعداد على اثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

— الدكان وصاحبه تحت امرك !

وكان للمناورة اثرها فقالت المراة فى دعابة :

— اريد الدكان وتابى الا ان تجود بنفسك !

— نفسى بلا ريب خير من دكانى ، أو خير ما فى دكانى ..

فاشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهى تقول :

— هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك .!

فقهقه السيد قائلا :

— ما حاجتك الى السكر وفى لسانك هذه الحلاوة كلها ؟!

واعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العالمة حقيبتها واخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر فى صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس فى وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بانها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه ، فلم يعد امامه الا ان يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه او يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الرواة ان السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهرا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد !.. وهى موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد ان المراة تهمه أكثر من العالمة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفىء المقرور فى زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب . واعترض افكاره مجىء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها فى الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا ، ولكن السيد أشار اليها محذرا وهو يقول :

— يا له من عيب .

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

ـ اى عيب يا سى السيد !.. ليس فى الحق عيب ..

ـ هذه زيارة ميمونة يحق علينا ان نحييها بما هى اهله من الاكرام . وهيهات أن نوفيها حقها ..

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

ـ ولكن كرمك هذا سيجعلنى اتردد مرة ومرتين قبل ان اقصدك مرة أخرى ..

فقهقه السيد قائلا :

ـ لا تخافى ، انى اكرم الزبون فى المرة الأولى ثم اعوض خسارتى فى المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار ..!

فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :

ـ الكريم مثلك يسرق ولا يسرق .. اشكرك يا سيد احمد .

فقال من كل قلبه :

ـ العفو يا سلطانة ..

ووقف ينظر اليها وهى تتبختر صوب الباب حتى صعدت الى العربة واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظريه . هنالك قال الحمزاوى وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب :

ـ كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب ؟!

فالقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :

ـ اكتب مكان الأرقام « بضائع اتلفها الهوى » ..!

ثم غمغم وهو يمضى الى مكتبه « الله جميل يحب الجمال »

- ١٥ -

وحين المساء اغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة وينضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ فى مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فراى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة فى تدفقه ، فواصل السير الى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استاذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة ، وجعل يقترب من البيت آمنـا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصــوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة :

ـ الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت اليــه الخادم رأسها وسألته بدورها فى تحفظ املته عليها ظروف وظيفتها :

ـ من انت يا سيدى ؟

فقال بصوته القوى :

ـ شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : « تفضل » ، واوسعت له فدخل ، ورقى وراءها فى سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا فى مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو يصت الى اقدام الخادم وهى تجـرى ، ثم وهى تعود حاملة مصـباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجىء بكرسى الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشـعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسى الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة فى ادب « تفضل بالجلوس يا سـيدى » . واتجه السيد الى كنبة فى صدر الحجرة وجلس فى ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقة تتوسط الكنبة ومد ساقيه فى ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت

ارضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد اسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست فى جوها شذا بخور سر به متسليا بالنظر الى فراشة راحت ترف على المصباح فى تشاط عصبى ، وانتظر بعض وقت جاءت فى اثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى الى اذنيه وقع شبشب منغوم ذى دقات مدغدغة فتنبهت اعصابه وحدق الى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية فى فستان ازرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !... انت ..!

فجرى بصره على جسمها فى عجلة ونهم كما يجرى الفأر على جوال ارز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

ـ باسم الله ما شاء الله ..!

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمة وهى تقول فى خوف مصطنع :

ـ عينك !.. أعوذ بالله ..!

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بانفه العظيم وقال :

ـ اتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنبة جانبية وجلست وهى تقول :

ـ بخورى خير وبركة ، انه أخلاط من أنواع شتى بعضها عربى وبعضها هندى أؤلف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من الف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه فى يأس :

ـ الا جسدى !.. بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها البخور ، الأمر أجل واخطر ..

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

ـ ولكنى أحيى حفلات افراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

ـ سنرى ان كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة كما قال للخادم ؟.. وغلبتها الرغبة فى الاستطلاع فسألته :

ـ فرح ام ختان ؟

فقال السيد باسما :

ـ لك ما تشائين !

ـ عندك مختون أم عروس ؟

ـ عندى كل شيء ...

فانذرته بنظرة كانما تقول له « كم انت متعب ! » ثم تمتمت فى تهكم :

ـ نحن فى خدمتك على اى حال ...

فرفع السيد يديه الى قمة راسه فى هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :

ـ عظم الله قدرك .. بيد اننى مازلت مصرا على أن أترك لك الاختيار !

فتنهدت فى غيظ بالدعابة أشبه وقالت :

ـ انى أفضل أفراح العرائس بطبيعة الحال !

ـ ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى الى زفة من جديد ..!

فصاحت به :

ـ يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختانا

ـ ليكن ...

وتساءلت وهى تحاذر :

ـ وليدك ؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :

ـ انا !

فاطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير فى مسالة احياء الليلة التى خمنت خبيئتها وهتفت به :

ـ يالك من رجل قارح ، لو طالتك يدى لقسمت ظهرك ..

فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :

ـ لا احرمتك رغبة قط ..

وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم امسكت فسألها بقلق ...

ـ لماذا لم تتكرمى بضربى ؟

فهزت رأسها وقالت ساخرة :

ـ أخاف أن انقض وضوئى ..

فتساءل فى لهفة :

ـ أالطمع اذن فى أن نصلى معا ؟ !

واستغفر الله فى سره عقب النطق بدعابته مباشرة لأن هذره وان كان لا يقف به فى سكرة المجون عند حد الا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر فى باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت فى دلال ساخر :

— أتعنى « يا صاحب الفضيلة » الصلاة التى هى خير من النوم ؟

— بل الصلاة التى هى والنوم سواء ..

ولم تتمالك العالمة الا أن تقول ضاحكة :

— يالك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنـــه الخلاعة والفجور ، الآن صدقت حقا ما قيل لى عنك ..

واستوى السيد فى جلسته فى اهتمام وتساءل :

— وماذا قيل ؟ !.. اللهم اكفنا شر القيل والقال ...

— قالوا لى انك زير نساء وعبد شراب ..

فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

— حسبته ذما والعياذ بالله ..

— ألم أقل لك انك قارح فاجر ؟!

— هى الشهادة لى بأنى حزت القبول ان شاء الله ..

فرفعت المرأة رأسها فى غطرسة وقالت :

— بعدك !.. لست كمن عرفت من النســاء ..... ان زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها فى تجد مشرب باللطف وقال بطمأنينة :

— عند الامتحان نكرم المرء أو يهان ..

— من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختبر بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

— لا تصدقى يا ختونة ، وان كنت فى شك ....

ولكمته فى منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا فى الضحك معا ، وسر بمشاركتها اياه فى ضحكه ، وحدس وراء ذاك — بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح — لونا من الجهر بالرضا تبثته فى وعيه بســمة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر فى أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة :

— لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها باهتمام :

ـ من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

ـ جليلة . . . !

وفجاه الاسم كانه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه . جليلة ، تلك العالمة المعروفة التى عشقها دهرا حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول فى لهجة صادقة :

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معا ! . . (ثم متهربا) . . دعينا من هذا كله ولنتكلم فى الجد . .

فتساءلت متهكمة :

ـ الا تستحق جليلة كلمة ارق والطف !. . ام هذا شانك عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟ !

وداخل السيد شىء من ا لحرج الا انه ذاب فى موجة الزهو الجنسى التى اثارها فى نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، واخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

ـ لا يسعنى وانا بمحضر من هذا البهاء أن اغادره الى ذكريات طويت ونسيت . . .

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا انها استجابت للثناء كما بدا فى رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

ـ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه . .

ـ لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس . .

وهزت كتفيها استهانة ثم سالته فى اهتمام غير خاف :

ـ متى رافقتها ؟

فلوح السيد بذراعه كانه يقول « ما ابعده من زمن ! » ثم تمتم :

ـ منذ أزمان وازمان . .

فضحكت فى تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفى :

ـ فى أيام الشباب الذى مضى . . !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

ـ بودى أن امص من لسانك الأذى . .

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

ـ اخذتك لحما وتركتك عظاما . .

ـومأ اليه بسبابته محذرا وقال :
ـ انى من صلب رجال يتزوجون فى الستين ..
ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟ !
فقهقه السيد قائلا :
ـ يا ولية اتقى الله ودعينا نتكلم فى الجد ..
ـ الجد ؟ ! .. أتعنى احياء الليلة التى جئت تتفق عليها ؟
ـ اعنى احياء العمر كله ..
ـ كله أم نصفه ؟ !
ـ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..
ـ ربنا يقدرك على الطيب ..
واستغفر الله فى سره مقدما ثم تساءل :
ـ نقرأ الفاتحة ؟
ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :
ـ رباه .. سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام ..

ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، واصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته فى اصبعه ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :

ـ دعنى أو تخرج من بينى بفردة شارب واحدة ..

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد فى النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا فى لحمه الطرى فتطاير منه الى انفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مغمغما :

ـ الى الغد ؟ !

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفورى يا امه عصفورى لاعب واورى له امــورى

وجعلت تردد « عصفورى يا امه » مرات وهى تودعه . وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الأغنية بصــوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ..

- ١٦ -

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسط الدار كالصالة ، أو كان الصالة بالفعل استجدت لها أغراض أخرى . ولعل اهم اغراضه انها كانت تقوم فيه — هى وجوقتها — بالتجارب الغنائية وحفظ الأغانى الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال . وجعله اتساعه — الى هذا — صالحا لاحياء الحفلات الخاصة ، التى تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتى تدعو اليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات اريحية كرم فحسب — ان كان ثمة كرم على الاطلاق فانه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم — ولكنها رمت من ورائها الى الاكثار من الأصدقاء المتازين الخليقين بأن يدعوها لاحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة فى الأوساط التى يتقلبون فيها ، ومن بينهم — الى هذا كله — تنتقى الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد احمد عبد الجواد ليشرف البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التى تمت بينه وبين زبيدة فى بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا ، الى مدفأة اوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضة لتكون — جميعا — عربونا للمودة المقبلة ، ففى لقاء هذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار فى دعوة من يشاء من أصدقائه ، الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد — ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، اما ارضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الأيمن — كالشامة رواء وصفاء — اقيدت الشموع منغرسة فى الفنايير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح فى الليالى الدافئة وتغلق بأضلاف زجاجية فى ليالى البرد

جلست زبيدة متربعة على الديوان والى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، والى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن

يمين وشمال مابين ممسكة بالدف او ماسحة على الدربكة أوعابثةبالصنج وآثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس فىالجناحالأيمن ، واتخذالباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة . وقدم السيد احمد أصحابه الى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

ــ ليس السيد على بالغريب فقد احييت فرح كريمته فىالعامالماضى ..

ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه احدهم بانه من رواد بمبهكشر بادر الرجل قائلا :

ــ وجئت تائبا يا ست ..

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعةبالأريحية والمرح . وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر فى أعماقه ، وقد وجد لذلك بادىء الأمر لونا من الارتباك قل ان يلم به ، فداراه بالاسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ فى الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج فى الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق ــ والأشواق فى مغانى الطرب تثار ــ يمد بصره الى سلطانه المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز ، فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات، هذه الليلة والليالى الأخريات . « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، هذا التصريح الذى تحديتها به ، يجب أن أكون عند كلمتى ، اية امرأة هى يا ترى ، وأى مدى مداها ، سأعرف الحقيقة فى الساعة المناسبة ثم البس لكل حال لبوسها ، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أحيد عن شعارى القديم وهو أن إجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهـاية ، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه » . ومع أن السيد لم يخبر من ألوان الحب ــ على وفرة مغامراته ــ الا الحب العضوى وحى اللحم والدم ، الا أنه تدرج فى اعتناقه الى أرق صوره وانقاها ، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع متغلغل بالغناء والطرب ، فسما بالشهوة الى أسمى مايمكن أن تسمو اليه فىمجالها العضوى . بهذهالبواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانى مرة ، اجل اثرت عاطفته الزوجية ــ بكرور الأيام ــ بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت فى

جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع ـ خاصة اذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة ـ لا يمكن أن تستنيم الى لون واحد فقد انطلق فى مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعته صبوة استجاب لها فى نشوة وحماس . لم ير فى اية امراة الا جسدا « ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل هذبتها صنعة ، ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا واطارا . فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها فى الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه ـ مثلها أيضا ـ فيما ينطوى عليه فى اعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا ـ متعمدا ـ من الصرامة والشدة . ولذلك فلم يتركز خياله النشيط ـ وهو يلتهم السلطانة بنظراته ـ فى المضاجعة ونحوها ولكنه تاه ـ الى هذا ـ فى أفانين من احلام اللهو واللعب والغناء والسمر . وأحست زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهى تقلب عينيها فى وجوه المدعوين بعجب ودلال :

ـ حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

ـ وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !

فاطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت فى غاية من الانبساط :

ـ كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا فى نفس واحد :

ـ معذورا ..!!

وهنا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم :

ـ قد أعذر من أنذر ..

ومع أن « حكمته » لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته فى صدره هاتفة :

ـ اسكت أنت وسد فاك الذى يبلغ المحيط ..

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه اغلقه مرة أخرى مؤثرا السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ هذا جزاء من يجاوز حده ..

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :

ـ ولكننى جئت لأتعلم قلة الأدب ..

فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :

ـ يا خبر !.. أسمعتم قوله ؟!

فقال أكثر من واحد منهم فى وقت واحد :

ـ انه خير ما سمعنا حتى الآن ..

وأضاف الى هذا أحد الرفاق قائلا :

ـ بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..

وقال آخر مؤمنا على قوله :

ـ الزمى طاعته ما قل ادبه

فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشـــة لا أثر لها فى نفسها :

ـ لحد هذا تحبون قلة الأدب !

فتنهد السيد قائلا :

ـ ربنا يديمها علينا ..

فما كان من العالمة الا أن تناولت الدف وهى تقول :

ـ سأسمعكم شيئا أفضل .

ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر فى حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمـــل ، وفرغ الســـادة الكئوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومأت العالمة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفســه لرنين القانون الذى جعل يلدع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالى الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون ، أجــل كان القانون أحب آلات الطرب الى نفســـه ـ لا لمهارة العقــاد وحدها ـ ولــكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره ، ومع انه كان يعلم أنه لن يستمع الى العقاد أو سى عبـــده الا أن قلبه العاشـــق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن . وما أن فرغت الجـــوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العـــالمة تنشـــد « والذى أســـكر من عرف اللما » فلحقت بها الجـــوقة فى حماس ، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفـــولة لزنوبة العـــوادة ، فجاش صـــدر

السيد بالانفعال فابتدر الكاس الذى بين يديه فافرغه فى جوفه واندفع يشارك فى انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الغناء - بشرق فى حلقه لاندفاعه الى الانشاد قبل أن يتم بلع ريقه ، وما لبث ان تشجع بقية الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد . ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد - بحكم العادة - لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها ، ومضت تهنىء أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسالهم عن الدور الذى يودون سماعه ، وانزعج السيد فى بطنه ومرت به لحظة كدرة امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه ادرك فى اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن «جبه كشر» نفسها ، فتمنى لو تختار المراة طقطوقة خفيفة مما تغنى السيدات فى الأفراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة ترجيعه . وصمم على أن يتفادى من المتاعب التى تخافها اذنه بأن يقترح اغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

- ما رايكم فى عصفورى يا امه ؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير فى نفسها ايحاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما فى حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :

- الأولى أن تطلبها من أمك ..!

وسرعان ماضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته ، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا اهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبى » ولكن زبيدة التى تحاشت ان ترضى فئة على حساب اخرى اعلنت أنها ستغنيهم « على روحى انا الجانى » فاستقبلت بترحاب حار . ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليلته الواعدة ، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة ادرك بها ركب النشاوى بلا كدر ، بل وجد عطفا على رغبة المراة فى محاكاة الفحول ارضاء لمستمعيها الراسخين فى السماع وان لم يخل حالها من غرور تالفه الغوانى . وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

- دعوا الدف للسيد احمد فهو به خبير ..!

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ـ حقا ؟!

فحرك السيد أصابعه فى سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ـ فيم العجب وأنت تلميذ جليلة !

وضحك السادة فى غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ـ وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ سأعلمه القانون .. الا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

ـ علمينى الهنك ان شئت ..

وحث كثيرون السيد على الانضمام الى التخت وأخذ الدف فما كان منه الا أن نهض وخلع الجبة فبدا بطوله وعرضه فى القفطان الكمونى كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكى تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى من أثر الحف والتف محلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه . ورأى بعضهم ذاك المنظر فصاح بصوت كالرعد .

ـ تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ثديى المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ـ قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محذرة :

ـ خفضوا أصواتكم او يبيتنا الانجليز فى السجن ..

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

ـ اذهب معك مؤبدا مع الشغل ..

وعلا أكثر من صوت يقول :

ـ لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما ..

وارادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف الى السيد وهى تقول :

ـ أرنى شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه فى مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهى ترنو الى الأعين المحدقة اليها :

على روحى أنا الجـــانى وخلى فى الهـــوى رمانى

ووجد السيد نفســـه فى موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس الســلطانة بين اللفتة واللفتـــة فتلتقى باشـــعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والمنيلاوى ، وعاش فى لحظته الراهنة قانعا ســعيدا ، ثم سرى اليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبـا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة فى الغنـــاء قولها « أمانة يارايح يمه تبوس لى الحلو من فمه » حتى كان من النشوة فى ســكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق أو ســبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرا فتركتهم كأدواح راقصة فى حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا رويدا شـــارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو « على روحى أنا الجانى » ولكن بروح يوحى بالدعة والتـــذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليـــل والتصفيق الا انه سرعان ما ســـاد القاعة صمت دل على همـــود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة أو نحنحة أو حكة عود ثقاب او كلمة لا تستحق المراجعة . وقال لســـان الحـــال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاحت من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا منها فى فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة الســـهرة أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح احدهم :

ــ لا نبرح حتى نزف السلطانة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين اغرق السيد والعـــالمة فى الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لتشرع فى النشيد السعيد .

وقفا جنبـــا لجنب ، هى كالمحمل وهو كالجمـــل ، عملاقين ملطفـــين بالحسن ، ثم تأبطت فى دلال ذراعه وأشارت الى المحدقين بهما ليفسحوا الطـــريق . وانبرت الدفافة على الدف فانطلقت الجـــوقة وكثرة من

المدعوين يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك ياجميل » ومضى العروسان فى خطو وئيد يتبختران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا ان تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسمت لبدت لسانا متعرجا من لهب يشق الفضاء كالشهاب.

وتسابق الأصدقاء يزجون التهانى تباعا :

ـ بالرفاء والبنين ...

ـ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..

وصاح به أحدهم محذرا

ـ لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى الى داخل الدار .

- ١٧ -

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعى أن يزور الفتى اباه فى دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته فى بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة .. واقبل على ابيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

ـ السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك فى أمر هام ..

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

ـ خير ان شاء الله ..!

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسى من مكان أبيه وجلس ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم زفر ثائرا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفى اقتضاب مؤثر :

ـ المسألة أن أمى شارعة فى الزواج ..!

ومع أن السيد توقع خبرا سيئا الا أن خياله لم يجنح فى جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التى أودعها ركنا مهجورا من ماضيه ، لذلك

لقيت منـــه المفاجاة صــيدا غافلا » وسرعان ما قطب كما يقطب كلمـــا عرض له عارض من ذكريات زوجـــه الأولى ، وتولاه لذلك ضــيق » ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة فى صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليتلمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب » وسأله :

ــ ومن أدراك بهذا ؟

ــ قريبها الشيخ حمدى ، زارنى اليوم بمدرسة النحاسين والقى على الخبر مؤكدا بانه سيتم فى ظرف شهر ..

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، فى حيـــاتها ، وان يكون الأخير اذا اتخذ الماضى مقياســـا للمستقبل » ولكن أى ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى ؟!.. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا ، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهـــو الذى يقصده النـــاس فى الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفسـه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهـــذه الأم !.. فانقبض صـــدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شـــعر برغبة تدفعه الى الســـؤال عن ذلك الزوج المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، اما لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتســـاعا واما لأنه انكرها على نفســـه لما آنس بها من حب استطلاع ــ لا يليق بالمأساة الراهنة ــ موجه إلى المرأة التى كانت زوجا له » بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكانه يجيب خاطرته :

ــ وممن تتزوج !.. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز فى الدراسة .. فى الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبـــارة الأخيرة كانما يلفظ شظيه ، فانتقل احساسه الى ابيه تقززا واشمئزازا » وجعـــل يردد فى سره : فى الثلاثين من عمره .. ياله من عمـــل فاضح .. انه فسق فى ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفســـه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى اليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته فى أعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه ــ ولو بعـــد كرور ذلك الزمن الطويل ــ انها أفلتت من تاديبـــه والاذعان لســـنته !. وأنه ليذكر أيام معاشرته لها ــ على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا فى تصوره ، ولكن رجلا فى مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى فى مجرد الرغبـــة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمـــة قتالة . ثم انها كانت ــ ولعلهـــا لاتزال ــ جميـــلة مترعة انوثة وجاذبيـــة

فنعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدا منها شيء من المقاومة لارادته التى نزع الى فرضها على المتصابين به من آله ، ولم تر بأسا فى الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر الذى يتيح لها زيارة بيت إبيها من آن لآن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح اخيرا ، فما كان من المرأة المدللة الا أن فرت الى والديها ! واعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل الى تأديبها وارجاع عقلها الى راسها هو أن يطلقها الى حين - الى حين طبعا لأنه كان شديد التعلق بها - فطلقها ، وتظاهر باهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر آملا أن يجيئه وسيط خير من آلها ، فلما لم يطرق بابه أحد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيدا للصلح فعاد الرسول يقول انهم يرحبون به على شرط الا يسجنها أو يضربها !.. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية واقسم فيما بينه وبين نفسه الا يضمهما رباط الى الأبد . هكذا ذهب كلاهما الى حال سبيله ، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيدا عن ابيه وأن يلقى من حياته فى بيت أمه ما لقى من ضروب المذلة والألم ..

ومع ان المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان - فى نظر ابنها - أشرف سقطاتها ، الا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه وامعن فى الايلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه اذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية اخرى ، فقد جاوز اذن موقفه القديم الذى ألزمته اياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن امه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه امام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له أن يلقى الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الأكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

- الم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن ..؟!

فقال ياسين فى حزن وقنوط :

- ولكنها شيء كائن يا أبى !.. ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال امى الى ما شاء الله ، سواء فى نظرى أم فى نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنا الى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين

— اللتين ورثهما عنها — فى أستغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك ابى الجبار القادر فمـد لى يدك » ، فبلغ التأثر بالسيد غايتـه ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

— لا انكر عليك تألمك ولكنى أنكر عليك أن تغالى فيه ، كذلك يطيب لى أن اعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يردك بلا عنـاء ، سائل نفسك فى هدوء ماذا عليـك من زواجها ؟.. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست هى بالتى تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا ان يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وأرح نفسك ، وتعز — مهما يكن من أمر القيل والقال — بأن الزواج علاقة مشروعة .. شريفة ..

قال السيد هذا بلسانه فحسب — اذ كان يناقض كل المناقضة ماطبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة — ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلتـه لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع ان كلامه لم يضع هباء — حيث انه من المستحيل أن يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من ابنائه — الا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من ابريق بالماء المغلى ، وما لبث ان خاطب اباه قائلا :

— هو علاقة مشروعة حقا يا ابى ولكنها تبدو احيانا ابعد ما تكون عن الشرع ، انى اسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه فى شىء من السـخرية « اولى بك أن تسـأل عما يدفعها هى ! » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل حديثه قائلا :

— انه الطمع ... ولا شىء غيره !

— أو لعلها رغبة صادقة فى الزواج منها ..

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف فى حنق وألم معا :

— بل الطمع وحده ..

وبالرغم من خطـورة الموقف لم تخف على السيد حـدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجـل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه

او أن يعود الى توكيد قوله السـابق . فلما لم يفعل اسـتطرد قائلا فى هدوء نسبى :

ـ ان ما يدفعه الى الزواج من امراة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع فى مالها وعقارها ..

وجد السـيد فى تحول النقاش الى هذه النقطـة فائدة لم تغب عن المعيته ، فهو ينتزع الفتى من تركيز تفكيره فى امور اشد حساسية وابعث للألم وبحسبه أنه يصرفه عن النظر فيما يدفع امهالى الزواج الىمايدفع الرجل ، والى هذا كله فلم يخف عليه ما فى راى ابنـه من وجاهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . اجل ان هنية ـ ام ياسين ـ غنية لدرجة لا بأس بها . وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجاريب الزواج والهوى ، بيد انها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أماالآن فبعيد عنالاحتمال أن تملك نفسها ـ فضلا عن أنفس الآخرين ـ ماملكت ؛ واذن فثروتها خليقة بأن تبدد فى معركة الغرام التى لم تعد من رماتها . وانه لحرام واى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأسـاة جريح الكرامة وصـفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكانه يحاور نفسـه ويستلهمها الراى :

ـ أراك على حق بانى فيما تقـول ، ان امراة فى سنها صـيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر ، فما عسى أن نفعل ؟ . . . انتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامرته ؟! . . ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقناع مهانة لا تهضمها كرامتنا . . . فلم يبق امامنا الا المراة نفسها !. . ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ـ ولا تزال ـ خليقة ، بل الحق انى لا أرتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من اعذار قهرية ، فللضرورة أحكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدرى فلعل ظهورك المفاجىء فى افقها يردها الى شىء من الصواب . . .

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط امام المنوم المغناطيسى فى اللحظات التى تسبق تنفيذ ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تاثير الرجل الى نفسه ، او لعله دل على انه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وانه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد انه تمتم قائلا :

ـ اليس ثمة حل اوفق . . ؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

ـ اراه اوفق الحلول . .

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

ـ كيف أرجع اليها ؟!؟ . . كيف ازج بنفسي في ماض فررت منه وليس احب الي من ان يبتر من حياتي بترا ! . . لا ام لي . . لا ام لي

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بانه وفق الى جذبه الى رأيه فقال بلباقة :

ـ هذا حق ، ولكن لا اظن ان ظهورك امامها فجأة بعد ذلك الغياب الطويل يمضي بلا أثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا ناضجا أن تتحرك امومتها فتجفل مما عساه يسوء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها . . . من يدري ؟!

فطامن ياسين رأسه غارقا في افكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق ويأس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان افظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر ان يرثها يوما لم يكن دون ذلك ، وما عسى أن يفعل ؟! . . مهما يقلب اوجه الرأي فلن يجد حلا اوفق مما ارتأى أبوه ، بل أن صدور الرأي عن ابيه البسه في نظره ـ على تقلقل حاله ـ وجاهة واعفاه هو من هموم كثيرة . ليكن . . هكذا قال في نفسه ، ثم قال مخاطبا اباه .

ـ كما ترى يا أبي . . .

- ١٨ -

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بانه يختنق . لقد غاب عنه احد عشر عاما ؛ احد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب اليه مرة واحدة ، او ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا في هالة قاتمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس ، والحق انه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا حانقا يائسا ، ثم تجنبه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كغاية في نفسه أو معبرا الى سواه من الأحياء بيد انه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء ، ما زال ضيقا تكاد تسده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هي بيوته تكاد تتماس مشربياتها ، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطنين

الصادر عنها كخلايا النحل ؛ وارضه التربة بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على اديمه آثار أقدامهم الحافية . وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيار . ومقلى عم حسن ومطعم عم سليمان . كل أولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر ..

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم اذنيه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض على شفتيه وغض طرفه فى خزى . الماضي ملطخ بالعار ، مدفون الراس فى الطين من الخجل ، دائم الجار بالشكوى من الخزى والألم ، ولكنه كله فى كفة وهذه الدكان فى كفة وحدها، بل انها ترجح به ، اذ أنها رمزه الحى الباقى على الزمن ، جمعت فى صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزى متبجحا والألم ناطقا والهزيمة مولولة ، واذا كان الماضى احداثا وذكريات هى بطبعها عرضة للتخلخل او النسيان فهذه الدكان تقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه .. وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى فى الدكان « غلاما » يرفع راسه الى صاحبها ويقول « نينه تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، او وهو يلفت نظر امه فى الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا ان يلفت اليهما الأنظار ، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشى الذى يخلقه خلقا جديدا — كلما ورد على ذهنه — على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد فى الفرار منها ، ولكنه ما أن يتملص من قبضة احداها حتى يقع فى قبضة الأخرى ، مطاردة عنيفة وحشية اثارت فى اعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على اسوأ حال « كيف أمرق الى العطفة وعلى راسها هذا الدكان .. وهذا الرجل .. أتراه بموقفه القديم منها ؟ .. لن التفت نحوها ، أى قوة ماكرة تغرينى بالنظر ؟ أيعرفنى اذا التقت عينانا ؟ ! .. اذا بدا منه أنه عرفنى قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفنى ؟ .. لا هو ولا احد من الحى ، احد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لا تواتينا القوة على ابادة الحشرات السامة التى لا تنفك تلدغنا .. » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشىء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بانظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورقى فى الطريق

المتصاعد فى غير أستواء ، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه وراسه ولو الى حين ، وتنسجبعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرا وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » ، بيد انه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى ابن أسير ؟ !.. الى امى ! .. يا للعجب ، لا اصدق ، كيف القاها وكيف تلقانى !.. وددت لو .. »
ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجه الى اول باب فى جانبها الأيسر . هو البيت القديم بلا ادنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا أمس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود . ورقى فى الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة فى خياله فالفاه اضيق قليلا مما فى ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدمت اجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلة على بئر السلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله . ومر وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى الى الدور الاخير . ووقف لحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب ، وبعد دقيقة او نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما ان تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهى تسأله فى أدب عما يريد . وثارت اعصابه فجاة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

— قولى لستك ياسين هنا ..

« ترى ماذا تظن الخادم بى ؟ » .. والتفت وراءه فوجدها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الآمرة غلبتها على امرها ، واما .. وعض على شفتيه وهو يرق الى داخل الحجرة . انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى فى لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد فى ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى المشربية التى كان ينظر من وراء ثقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى أثاث الحجرة الراهن هو هو أثاث الماضى البعيد ؟.. انه لا يذكر من الأثاث القديم الا مرآة طويلة ثبتت فى حوض مذهب تنبثق من ثغرات فى سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز فى زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما

ولع بالعبث بها والنظر خلالهـا الى المكان فيلوح فى حلل غريبـة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها . ولكن لا داعى للتساؤل . فاثاث اليوم غير اثاث الأمس ، لا لجدته البادية فحسب . ولكن لأن حجرة امراة مزواج خليقة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير ابوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك انه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص فى قبحه . ولم يطل انتظاره . ولعله جاء اقصر مما يتصور ، اذ ابتدر اذنيه وقع اقدام متتابعة متدافعة . وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن الفاظه ، ثم احس بها - وهو لم يزل مولى الباب ظهره - وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهى تقول بانفاس مبهورة :

- ياسين !.. ابنى !.. كيف أصدق عينى ؟ !.. ربى .. صار رجلا ..

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها فى ارتباك وهو لا يدرى كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المراة اعفته من تدبير امره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمته اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره - وهو غاية ماوسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب - ثم اختنقت نبراتهـا واغرورقت عيناها فدفنت وجهها فى صـدره مستسلمة له مليا ريثما تسترد انفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد اتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع انه شعر شعورا عميقا اليما بأن جموده اشد من أن يحتمل الا انه لم يبدر منه ما ينم عن حيـاة : اى حياة ؛ فلازم جموده وخرسـه ، بيد انه كان متأثرا غاية التأثر وان لم يتضح له نوع التـأثر بادىء الأمر بحال يطمئن اليهـا ، ولـكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتماء فى حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة فى نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع أنه وجه ارادته بعزم وتصميم الى اخلاء المسرح من الماضى فى اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته ، الا ان الماضى المطرود انعـكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جـرثومة تسرى ، فادرك فى ذاك الموقف الرهيب ، اكثر ممـا ادرك فى ماضـيه كله ، الحقيقة المحزنة التى طالمـا أدمت فؤاده وهى أن امه قد اقتلعت من صدره . ورفعت المراة راسها اليه كأنها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وأدنى وجهه منها فقبلته فى خديه وجبينه ،

والتقت اثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تأثرا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة اخرى ، ثم سمعها تغمغم :

ـ قالت لى ياسين هنا ، قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر ؟! وجئت عدوا كالمجنونة لا اصدق اذنى ، وها انت ، انت دون غيرك والحمد لله ، تركتنى غلاما وعدت الى رجلا ، كم قتلنى الشوق اليك وانت لا تحس لى وجودا ..

واخذته من ذراعه الى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه . وجعل يسترق اليها النظر فى استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟.. كأنها لم تتغير الا ان يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، اما الوجه القمحى المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة . ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر ان تغير اعوام القطيعة من دابها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع اى حتى فى تلك الأوقات التى تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهى تحدق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة اخرى ثم تمتمت بصوت متهدج :

ـ آه يا ربى لا اكاد اصدق عينى ، انا فى حلم ، هذا ياسين ! اى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول تلو الرسول ، ماذا اقول ؟.. دعنى اسألك كيف قسا قلبك على لهذا الحد ؟ .. كيف اعرضت عن دعواتى الحارة ، كيف تصاممت عن نداء قلبى المكروب ؟ كيف .. كيف ؟.. كيف نسيت أن لك اما منزوية هنا ؟!

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والرثاء معا ، وكأنها افلتت منها فى ذهول الانفعال ، اجل يوجد شىء ، واشياء ، تذكره صباح مساء بأن له اما ، ولكن اى شىء واى اشياء ؟!

ورفع اليها عينيه فى حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة ، وابتدرته المراة قائلة فى لهفة :

ـ لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال :

ـ ذكرتك كثيرا . ولكن آلامى كانت افظع من أن تطاق ..

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضى الاسيف ، فلم تعد تطيق التحديق فى عينيه وخفضت جفنيها وهى تقول بلهجة حزينة :

ـ ظننتك برئت من احزان الماضى ، وانها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى احد عشر عاما ..

وعجب لعتابها عجبا أحنقه ، واستنكره استنكارا ذر على غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذى جاء من اجله لثار بركانه . أتعنى المرأة حقا ما تقول ؟.. اهان عليها ما فعلت لهذا الحد ؟ ام تظن به الجهل بما كان ؟ ! بيد انه ضبط اعصابه بقوة ارادته التى لم تغفل عن هدفها وقال :

ـ تقولين انها لا تستحق غضبى ؟.. اراها تستحق الغضب كل الغضب واكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشىء تهدم ، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

ـ ما وجه العيب فى أن تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟..

فشعر بنيران الغضب تتأجج فى عروقه وان لم تبد منها آثار الا فى انطباق شفتيه ثم فى التصاقهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها ! .. وتتساءل عن وجه العيب فىّ أن تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، حسن ، لا عيب فى أن تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، اما ان تكون المرأة امه فهذا شىء آخر ، شىء آخر جدا ؛ وأى زواج الذى تعنيه ؟!.. انه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو ادهى وامر ، ذلك « الفكهانى » !.. أيذكرها به ؟.. أيصفعها بما فى نفسه من مر ذكرياته ؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد :

ـ زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه امور شائنة لم تكن لتليق بك ، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعيها على صدرها فى استسلام اليائس وقالت باشفاق حزين :

ـ انه سوء الحظ ولا شىء غيره ، انى سيئة الحظ ، هذا كل ماهنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلصت اســـاريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

ــ لا تحاولى ان تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا الا ألما على ألم ، من الخير ان نســـدل على الآلام ستارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع ان نمحوها من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق اشـفاقا شديدا من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه فى نفسها من آمال ، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صـــدره ، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكية :

ــ لا تلح فى تعذيبى وانت وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة ، بيد انه وجد فيه باعثا جديدا للهيـــاج والتوتر ، انه ابنهـــا حقا ، وانها امه الوحيدة كذلك ، ولكن كم رحلا ..! واشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقزز والغضب ، ثم اغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشعة ، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل :

ــ دعنى اعتقد بان ســـعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، اجل حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتنى منفضا عن قلبك احزان الماضى كله الى الأبد .

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة أفكاره ، ولم يكن شىء فى تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على ان الفاظه التى يتفوه بها اقل بكثير من المعانى التى يوحى بها :

ــ هذا يتوقف عليك انت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..

فتجلت فى عينى المراة نظرة قلق نمت عما تعـــانى من ايحاء الخوف وقالت :

ــ انى ارغب فى مودتك من اعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم سـعيت اليها فرددتنى بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب فى ذهنه فقال :

ــ بيدك ما تتمنين ، بيدك انت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك .

فتساءلت المراة فى انزعاج :

ــ ماذا تعنى ؟

فاحنقه تجاهلها وقال بتذمر :

— مضمون كلامي واضح : هو أن تعدلي عما لو صح ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية علي !

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها في يأس غير خاف . وتمتمت وهي لا تدري :

— ماذا تعني ؟

بيد انه ظنها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

— أعني ان تلغي مشروع الزواج الجديد : والا تسمحي لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل ، لم اعد طفلا . وليسْ بصبري متسع لطعنة جديدة ..

اطرقت في حزن بالغ . ولازمت الاطراق كانما اخذتها سنة من النوم ، ثم رفعت راسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق مما قدر ؛ ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

— اذن جئت من اجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

— نعم !..

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد — وهو خال الى نفسه — ما دار من حديث بينه وبين امه في هذه المقابلة فاقر اقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدرى أخطأ ام اصاب ، وظل على تردده طويلا . اما المرأة فقد غمغمت وهي تنظر فيما أمامها :

— لشد ما اتمنى أن اكذب أذني ..

وادرك انه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه عما حوله . فاندفع قائلا بلا وعي مداريا خطأه بما هو أمعن في الخطأ :

— انك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت انا دائما الضحية التي تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظننت العمر رادك الى شيء من العقل فما اعجب الا لقائل يقول لي انك شارعة في الزواج من جديد !.. يالها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها .

من شدة اليأس راحت تصغى اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت بأسى :

— انت ضحية ، وانا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في كنفها !..

وعجب لهذا الانحراف فى مجرى الحديث الذى بدا له مضـحكا ، بيد انه لم يضحك ؛ ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

ـ ما دخل ابى وزوجه فى هذا الشأن !.. لا تتملصى من فعالك بالقاء التهم فى وجوه الأبرياء

فهتفت بصوت يشبه الأنين :

ـ ما رايت ابنا اقسى منك !.. اهذا خطابك لى بعد فراق احد عشر عاما !!

فلوح بيده فى احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

ـ الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا ..

ـ لست خاطئـة .. لست خاطئـة .. ولكنك قاس غليظ القلب كأبيك ..

فنفخ فى ملل وصاح بها :

ـ رجعنا الى ابى !.. ح. سنا ما نحن فيه .. اتقى الله وتراجعى عن الفضيحة الجديدة .. أريد ان امنع هذه الفضيحة بأى ثمن ..

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهى تقول :

ـ وماذا يهمك منها ؟

فصاح فى دهش :

ـ كيف لا تهمنى فضيحة امى ؟!

فقالت فى حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

ـ انت فى الحق لا تعدنى اما لك ..

ـ ماذا تعنين ؟

فغمغمت فى يأس متجاهلة تساؤله :

ـ ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك ان تدعنى وشأنى ..

فهتف غاضبا :

ـ حسبى ما كان ، لن اسمح لك بتلويث سمعتى من جديد ..

فقالت وهى تزدرد مرارة ريقها :

ـ لا شىء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد ..

فسألها مستنكرا :

ـ أتصرين على هذا الزواج ؟!

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة فى اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قضى الأمر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه سحرد وركز بصره فى راسها المطرق وهو يغلى غضبا ، ثم صاح بها بصوت كالزئير :

— يالك من امرأة .. مجرمة !..

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

— سامحك الله ..

عند ذاك خطر له ان يلطمها بما يعرف — مما تظن انه يجهله — من ماضي سيرتها ، بحدبث « الفكهانى » الأسود ، قذيفة يصبها على راسها بغتة فتنثره اربا ويثأر بهـا افظع الثار ، وتوهج فى عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت فى اخاديدها نذر الشر والوعيد ، وفغر فاه ليطلق قذيفته ، ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه اليه مخه الذى لم يعمه الغناء عن البلاء ، ومن اللحظة الرهيبة فى سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الانسان بانفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شىء الى مستقره ؛ وزفر وهو كظيم ، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا . وقد ذكر موقفه هذا — فيما بعد — فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وان عجب له اشد العجب ، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وان لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر !..

وافرغ غضبه فى كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول :

— مجرمة ! .. فضيحة مجسمة ! .. كم ساضحك من غبائى كلما اذكر اننى أملت خيرا من هذه الزيارة ! .. (ثم بلهجة تهكمية) .. انى اعجب كيف طمعت بعد هذا فى مودتى ؟ !

فجاءه صوتها وهو يقول فى انكسار وحسرة :

— منتنى نفسى ان نعيش على مودة رغم كل شىء !.. وبعثت زيارتك المفاجئة فى قلبى آمالا حارة خيل الى معها انى استطيع أن أهبك اسمى ما فى قلبى من حب .. بلا كدر ..

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شىء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حانقا يائسا بانه لم تعد ثمة فائدة من بقائه فى هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

— وددت لو استطيع قتلك ..

فغضت بصرها وقالت فى حزن بالغ :

ـ لو فعلت لأرحتنى من حياتى ..

وبلغ به الضيق النهاية فالقى عليها نظرة اخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر المكان وارض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعندما انتهى الى الطريق ، واخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لاول مرة انه نسى حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة ، انسيه كانما لم يكن هو الباعث الاول لهذه الزيارة !.

ـ ١٩ ـ

فتحت الست امينة الباب وادخلت راسها وهى تقول برنتها المعهودة :

ـ اى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فجاءها صوت فهمى قائلا :

ـ تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط ..

فدخلت المراة مسرورة بتلبية الدعوة فراته واقفا امام مكتبه يلوح فى وجهه الجد والاهتمام فاخذها من يدها الى كنبة غير بعيدة من الباب واجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :

ـ ناموا جميعا ؟

وادركت المراة انها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ماكان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام سرعة الى نفسها المطواعة للايحاء وقالت تجيبه :

ـ ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما فى ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن فى فراشه .

كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة عند اول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه فى الكتاب الذى بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، أحاديث امه وشقيقتيه فى جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم الى امه وكمال وهما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت امه لتحييه تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع ان امه بدت له كالحمامة الوديعة ، ومع انه لم يشعر حيالها قط بتحفظ او خوف ، الا انه وجد عسرا فى التعبير عما يريد الافصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

ـ دعوتك يا نينة لأشاورك فى أمر يهمنى جدا .

واشتد الاهتمام بالمراة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا اوشبيها بالخوف وقالت :

ـ انى مصغية اليك يابنى ..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن اعصابه وقال :

ـ ما رايك فيما لو .. أعنى اليس من الممكن أن ..

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

ـ ليس لى من افضى اليه بدخيلة نفسى الا انت ..

ـ طبعا ، طبعا يا بنى ..

فقال متشجعا عما قبل

ـ ما رايك اذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان .. ؟

وتلقت امينة كلماته بدهشة اولا ، فاجابته اول ما اجابت بابتسامة تدل على الحيرة اكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حينا وهى تترقب افصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها واشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لاتدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

ـ اهذه رغبتك حقا ؟ .. سأقول لك رايى صراحة .. ان يوما أمضى فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو اسعد ايام حياتى ..

فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

ـ شكرا لك يا اماه ..

ورنت الأم اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

ـ ياله من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ، وليس بالكثير على الله أن يجزينى على تعبى وصبرى بمثل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عينىَّ بك وبأختيك خديجة وعائشة .

وغابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما ايقظها فجاة فتراجع رأسها فى قلق كقطة اقبل نحوها كلب ، وتمتمت فى اشفاق :

ـ لكن .. ابوك ؟ !

وابتسم فهمى ممتعضا وقال :

ـ من أجل هذا دعوتك للمشاورة .

ففكرت المراة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لا أدرى ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟. ابوك شخص غريب غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا ..

فقطب فهمى قائلا :
ـ ليس فى الأمر ما يدعو الى الغضب او الاعتراض .
ـ هذا رأبى .. !
ـ وغنى عن البيـان ان الزواج سـيؤجل حتى أتم دراسـتى واجد لنفسى عملا ..
ـ طبعا .. طبعا ..
ـ فيم يكون الاعتراض اذن ؟!
فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب اباك اذا اراد ان ينبذ المنطق جانبا ؟ » هى التى لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء اصاب أم اخطأ ، عدل أم ظلم » بيد أنها قالت :
ـ ارجو ان يبارك رجاءك بالقبول ..
فقال الشاب بحماس :
ـ لقد تزوج ابى وهو فى سنى هذه ، ولست اقصد شيئا من هذا ؛ ولكنى سانتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من اى ناحية ..
ـ ربنا يحقق رجاءنا ..
وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين فى فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان اذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ، ويقرأ ما يدور بخاطره فى غير ما عسر ، ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلهما معا :
ـ بقى أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع .. !
وابتسمت المرأة ابتسامة افقدها التفكير والقلق روحها ، وادركت ان ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذى لا يسـتطيع ان يؤديه أحد سـواها بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا أنها قبلته على كره كما تقبل امورا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :
ـ ومن غيرى يفاتحه ؟ .. ربنا معنا ..
ـ أنى آسف .. لو كان بوسعى ان احدثه لفعلت .
ـ سأحدثه ، وسـيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من اسرة كريمة ..
وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة :
ـ ولكن أليست هى فى مثل سنك او تزيد ؟!
فقال الفتى جزعا :
ـ لا يهمنى هذا بتاتا !
فقالت مبتسمة :

- على بركة الله . ربنا معنا . « تم وهى تنهض » ادعك الآن لعنـابة المولى ، والى الغد .. ومالت نحوه فقبلته تم غادرت الحجرة واغلقت الباب وراءها ، ولكن كم ادهشها ان ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسة بين يديه فهنفت به :

- ما الذى عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما فى ارتباك وقال :

- تذكرت انى نسيت كراسة الانجليزى فعدت لآخذها تم بدا لى ان استعيد الكلمات مرة أخيرة

وذهبت معـه مرة أخرى الى حجـرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطـاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النـوم أعجز من ان يغلب اليقظة الماكرة التى تنبعث فى شـعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سمعه وقع اقـدام امه وهى ترقى السـلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضىء منه جانبا من الظلمة الغاشية فى الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « ابلة خديجة ! » فجلست الفتاة فى الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكانه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم عن عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت قد تنبهت الى القادم وازاحت عنها الغطاء ثم رفعت راسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

- ماذا جاء بك الآن ؟

لم يأبه للهجة الإحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بان تقلبهما راسا على عقب ، وقفز لهذا قلبـه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

- عندى سر غريب ..

فسالته خديجة :

- اى سر هذا ؟ ! ... هات ما عندك وارنا شطارتك ..

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

- أخى فهمى يريد ان يخطب مريم ..

عند ذاك جلست عائشة فى الفراش بدورها فى حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد القيت فى وجه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة فى شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلى الباب المفتوح على هيئة متوازى الأضلاع مذبذب

الأطراف تبعاً لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك الباب مفتوحا ـ الى تيار وان نسم من خصائص النافذة الى الصالة فى لطف همسات تذيع سرا ، ثم تساءلت خديجة فى اهتمام :

ـ كيف عرفت هذا ؟

ـ تركت فراشى لأحضر كراسة الانجليزى ، وعنـد باب اخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبدت فى الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه فى اهتمام ملك عليهما الأنفاس حتى فرغ من حديثه ، وهنا تساءلت عائشـة كان بها حاجة الى المزيد من الاقتناع :

ـ أتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

ـ أتتصورين ان نخترع هذا « مشـيرة الى كمال » حكاية طـويلة عريضة كهذه ؟

ـ لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من جدة اهتمامها » اختـلاق موت غلام فى الطريق شىء ، اما هذه الحكاية فشىء آخر ..

فتساءلت خديجة دون ان تلقى بالا الى احتجاج كمال الذى اعترض على التعريض به .

ـ كيف وقع هذا يا ترى ؟ !

فضحكت عائشة قائلة :

ـ الم أقل لك مرة انى أشك فى أن اللبلاب هو الذى يدعو فهمى الى السطح كل يوم ؟ !

ـ انه اللبلاب الآخر الذى التف حـول ساقه هو .

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

ـ لا ملام عليك يا عيونى فى حبه .

فنهرتها خديجة قائلة :

ـ هس .. ليس هذا وقت الغنـاء .. مريم فى العشرين وفهمى فى الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟ !

ـ نينة ؟ ! .. نينة حمـامة وديعة لا تدرى كيف تقول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق ان أقول ان مريم جميلة وطيبة ؟ ! ... ثم ان بيتنا هو البيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد ..

كانت خديجة ـ كعائشة ـ تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع ابدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد فى المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن

بعجزها - عند الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفهـا الكامنة ، وغيرتها . فقـد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها أن يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :

- مجنونة انت ؟ ! .. مريم جميلة ولكنها دون فهمى بمراحل بعيدة .. فهمى ياحمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ؛ فهل تتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟ ! .. انها مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا فى أكثر من ناحية ولن نتزوج احدانا بقاض .. !

وتساءلت عائشة فى نفسها : « من قال ان القاضى أحسن من الضابط !! » ثم سألتها محتجة :

- لم لا ؟ !

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعترافها :

- يستطيع فهمى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ، وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟ ! .. ما هى الا امية طويلة اللسان ، أنت لاتعرفينها كما أعرفها ..

وادركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها - حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها اكبر نصيب - من ان تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارتها فقالت بتسليم :

- لندع الأمر لله ..

فقالت خديجة بثقة وايمان :

- الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون رايه غدا .. « ثم موجهة الخطاب الى كمـال » .. ان لك أن تعـود الى سريرك بسـلام ..

عاد كمال الى حجـرته وهو يقول لنفسـه : « لم يبق الا ياسـين ، وساخبره غدا .. »

— ٢٠ —

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما يكتمان أنفاسهما فى حذر شديد ويمدان آذانهما الى الداخل فى اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الأختان أن تفاتح الأم أباهما فى الأمر الذى انبأهما عنه كمال اذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت . وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث عن أمور البيت العادية فانصتتا فى جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهى تقول فى أدب بالغ ولهجة خاشعة :

ـ سيدى ، اذا أذنت لى حدثتك عن شأن رجانى فهمى أن أبلغك إياه .

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول « هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهى تتهيأ للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتها فى اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

ـ ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

ـ فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الأعين ، ولعله بلغنى رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده ..

فقال الأب بلهجة تخيلتاه معها راضيا :

ـ ماذا يريد ؟ .. تكلمى ..

ومال رأساهما نحو البـاب وكل منهما تحملق فى الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول :

ـ سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان ..؟

ـ طبعا ..

ـ رجل فاضل مثل سيدى وأسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

ـ نعم ..

واستطردت بعد تردد :

ـ فهمى يسأل يا سيدى هل يجيز له والده أن .. يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج ؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :

ـ يخطب ؟!.. ماذا تقولين ياولية ؟.. هذا الغلام !.. ماشاء الله .. اعيدى على سمعى ما قلت ..

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش فى ذعر :

ـ ليس الا أنه يتساءل ، مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك ..

فقال الصوت المتفجر بالغضب :

ـ لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا ادرى ما الذى أتلف تلميذا حتى يتمادى فى مطالبه الى هذا الحد ؟.. ولكن اما مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما فى قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخذى وهى تقول :

ـ لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شىء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجانى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما ..

ـ سيذعن أراد أم لم يرد ، ولكنى أريد أن أقول لك انك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

ـ انى اتعهدهم بما توصى به ..

ـ خبرينى عما دعاه الى التفكير فى هذا الرجاء ؟

وارهفت الفتاتان السمع فى اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم يسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهى ترمش فى ارتباك وخوف فعطف قلباهما فى اشفاق شديد :

ـ ماذا أخرسك ؟.. خبرينى هل رآها ؟

ـ كلا يا سيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..

ـ كيف رغب فى خطبتها دون أن يراها ؟.. ما كنت احسب أن لى ابناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران !

ـ معاذ الله ياسيدى معاذ الله .. ان ابنى اذا سار فى الطريق لا يلتفت

يمنة ولا يسرة ، وهو فى البيت لا يكاد يغادر حجرته الا لضرورة ..
ـ ما الذى دعاه الى طلابها اذن ؟
ـ لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها ..
وسرت فى بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما فى فزع وهما تنصتان ..
ـ ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين !.. يا سبحان الله اينبغى ان اهجر دكانى وعملى واقبع فى البيت لأضبطه وادفع عنه الفساد !
فهتفت الأم فى نبرات باكية :
ـ بيتك اشرف البيوت ، بالله يا سيدى الا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن ..
فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :
ـ قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه ..
وسمعت الفتاتان حركة فى الداخل فقامتا فى حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما ..
رأت الست امينة ان تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة إن مكوثها بين يديه خال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة الذى تثور عادة فى عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقى الغضب فى اعماق صدره كالعكارة فى قعر القدر .
من المحقق انه كان يغضب فى البيت لأتفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة فى سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكمها بين آله فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحا عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس بالنادر ان يتضح له انه استسلم للغضب فى غير موجب ولكنه حتى فى تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الأمر مسية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد انه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز ان تعتلج فى نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور أن تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرص على ان يشب

فى جو من النقاء الصارم والطهارة المتقشفة . ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها اهدأ قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له فى ذريته وماله ، وأن يدعو خاصة لفخر ابنائه بالهدى والرشاد والتوفيق ، فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يراد بها التخويف لا اكثر . وفى الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجعة لأنه كان يكره أن يلقى أحدا بالفاجعات ؛ ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ، فغادروه وهو يقهقه فى غير تحفظ . بدت له « النادرة » فى الدكان على غير ما بدت فى حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها . بل وأن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه اخيرا باسما راضيا « من شابه اباه فما ظلم » . .

— ٢١ —

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف فى خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التى قل أن تتاح له فى مثل ذاك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التى حمله اياها فهمى ، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، فى جو من السرية والتكتم الأمر الذى اضفى عليها — وعليه بالتالى — اهمية خاصة احسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل فى عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا فى لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان اباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب ، وأن ياسين على حلاوة حديثه قابل للإلتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه واصالة حماسه ، فلم يذكر انه رآه على الحال التى رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليه فى حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة فى حياته بلهجة توسل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التى حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة

نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى استرق السمع اليه من وراء البـاب ، والذى نقله الى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة انه يتعلق بمريم ، تلك الفتـاة التى كثيرا ما تعابثه ويعابثهـا ، ويأنس اليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون أن يعرف لهـا هذه الخطورة التى احاطت بهدوء اخيه وسلامته . مريم ؟!.. لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هـذا كله بأخيه العزيز الرائع !! . ووجد فى الجو غموضا ، كذاك الغموض الذى يكتنف حياة الأرواح والأشـباح ، والذى طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره فى تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فنائه الصـغير حيث تنزوى فى ركن منـه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على اصـلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة سـنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صـغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التى تطل على حمام السـلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسـعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هذا خلفت بعض متعلقات البيت اثرا فى نفسـه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة فى أعلى المشربية المتصـلة بحجرة مريم الذى تبـدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منـه احيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنـازعه رغبتان ، احـداهما ـ وهى المنبعثة من نفسـه ـ تدعوه الى العبث به واختطـاف الصـغار ، والأخـرى ـ وهى المكتسـبة عن أمه ـ توقفـه عنـد حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية فى حياة اليمامة واسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها الحسناء التى تطالعه صورتها عصره كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متسـائلا عن « حكايتها » فتقص عليه مريم من انبائها ما تعلم وما لا تعلم بلباقة لسان تستهويه وتستأثره . لم يكن

البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون أن يشعر به أحد ، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدا فى فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات . كان يعلم ان الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول : حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل .. فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف . ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعومته ، ومع أنها كانت فى الأربعين الا انها كانت بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة . فما تلقاه حتى تقبل عليه فى مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاد الصبر « متى تبلغ رشدك لأتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثارت فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة ، وقد سأل أمه عنها مرة فنهرته - والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب - مؤنبة اياه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ماحسبه أول الأمر عجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وأرنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهقهت قائلة « هلا انتظرت عشرة أعوام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟ ! . ولكن لا داعى للانتظار ، أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟ .. هذه هى ؟ .. » وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم وحدها فى الحجرة الأخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رأته قالت بدهشة :

- كمال ! .. « كادت تسأله عما جاء به فى هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به، أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت .. تعال اجلس الى جانبى ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك ازرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش فى جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء . وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودست فى يده شوية لب وهى تقول

- قزقز يا عصفور وحرك اسنانك اللؤلؤية .. أتذكر يوم عضضت معصمى وانا ادغدغك .. هكذا .. ومدت يدها صوب ابطه ولكنه - بحركة عكسية - شبك ذراعيه على صدره ليحمى ابطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت اناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها

- فى عرضك يا أبله مريم ..

فامسكت عنه وهى تتعجب من خوفه قائلة :

- لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟! .. انظر الى كيف لا ابالى بها ..

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهى ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك ان قال لها متحديا :

- دعينى ادغدغك انا وسنرى ..!

فما كان منها الا أن رفعت ذراعيها فوق راسها فغرس أصابعه تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه فى عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعضع عنها ، حتى اضطر ان يسترد يديه متنهدا فى ياس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

- ارايت أيها الرجل الصغير العاجز !.. لا تزعم انك رجل بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر امرا هاما بغتة » .. يا داهيتى ! .. نسيت أن تقبلنى ! .. الم انبه عليك مرارا بأن تكون تحية لقائنا قبلة ؟! وادنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فازاله بانامله فى حياء ، اما مريم فتناولت ذقنه بانامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة ، ثم سألته بما يشبه الاعجاب :

- كيف استطعت أن تفلت من بين ايديهم فى هذه الساعة ! ؟ .. لعل ليزة تبحث عنك الآن فى كل حجرات البيت ..

آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى اوشك ان ينسى الرسالة التى جاء من اجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا اليها بعين أخرى . العين التى تود ان تنقب فى ذاتها عن السر الذى زلزل اخاه الرزين الطيب . الا أن تشوفه تهافت حيال شعوره بانه يحمل انباء غير سارة ، فقال بوجوم :

- فهمى الذى أرسلنى ..

ارتسمت فى عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست فى وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجد قد تغير كانما انتقل من فصل الى

فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

ـ لم ؟! ..

فقال لها بصراحة دلت على انه لم يقدر خطورة الأنباء التى يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها ..

ـ قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده فى خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه ان ينتظر حتى يتم دراســـته ..

كانت تحدق الى وجهـــه باهتمام شديد فلما بلغ الســـكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة ، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الأمر فقال :

ـ انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وانه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى ...

ولما لم يجد لكلامه أثرا فى اخراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهفه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :

ـ هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينته من حديث عنك ؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه .

ـ ماذا قال وماذا قالت ؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئى وقص عليها ماترامى اليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه ، فخيل اليه أنها تتنهد ، ثم قالت ببرم :

ـ ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدرى :

ـ نعم ... ابى كذلك ...

ورفع رأسه اليها فى خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة ، فسألها متذكرا ما وصاه به اخوه :

ـ ماذا اقول له ؟

فضحكت من انفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت فى عينيها نظرة ماكرة :

ـ قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب فى أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. !

وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر مما عنى بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى أرض الحجرة ومضى خارجا ..

— ٢٢ —

بدت عائشة وهى تنظر فى المرآة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة فى الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟ ! .. ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لايخلو اذا تحدث اليها لأمر او لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم يخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحث أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها . اما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على ان هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذة وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الاهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لأمها فى الولع بالنظافة والأناقة ، ولكن لانها رات الفتاة تستقبل النهار عاده بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجمل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله — تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق ، يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد « المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا فى بدلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع فى حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت فى اساريره ابتسامة خفيفة آية فى الخفة — تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس — كأنها الهلال فى ليلته الأولى ، ثم أختفى تحت المشربية فاستدارت فى عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسين فما راعها الا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسها ..! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها فى رعب فاضح ،

فتسمرت فى موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبه دون أن تشعر بها ؟! .. وماذا رات ؟! .. متى وكيف وماذا ؟ أما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها فى جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة ــ عبثا ــ بضبط الأعصاب وهى تغمغم :

ــ اوعبتنى يا شيخة ..!

لم تبد خديجة اكتراثا ، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها الى الطريق خلل الزيق .. ثم تمتمت ساخرة :

ــ اوعبتك ؟ ! .. اسم الله عليك ! .. أصلى بعبع .. !

وعضت عائشة على نواجذها فى غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا أنها قالت بصوت هادىء :

ــ رأيتك فجأة فوق راسى دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسترقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنبة فى استرخاء ساحر وهى تقول :

ــ آسفة يا اختى ، فى المرة القادمة سأعلق جرسا فى عنقى مثل عربة المطافىء لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعبين

فقالت عائشة فى ضيق والرعب لم يفارقها :

ــ لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك أن تسيرى كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى :

ــ ربنا يعلم انى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر انك اذا وقفت وراء النافذة ــ أقصد وراء هذا الزيق ــ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فنفخت عائشة مغمغمة :

ــ هكذا أنت دائما

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيها عن فريستها ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر فى مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر الى الأخرى :

ــ اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يابو الشريط الأحمر ياللى أسرتنى ترحم

ذلى » ! .. وكم حسبته بسلامة نيتى ياعينى غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل اركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا ان اليأس نفسه دفعها الى الاستماتة فى الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه :

— ماهذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة انها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة :

— ولهذا ايضا تتزين فى الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسى ايعقل ان تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟ ! ولكن اى كنس واى تنفيض يا خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ، وتموتين بلهاء ، اكنسى انت ونفضى انت ، ولا تتزينى لا قبل العمل ولا حتى بعده ولماذا تتزينين يا تعيسة ؟ ! انظرى من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسكرى دورية أقطع ذراعى !

فهتفت عائشة فى اضطراب وعصبية :

— حرام عليك .. حرام

— لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم ، عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط احمر ونجمة لامعة شىء مفهوم ومعقول

— خديجة ، انت مخطئة ، كنت انظر الى الطريق فحسب : لا لأرى احدا ولا ليرانى احد » فالتفتت خديجة اليها كأنما تنتبه الى اعتراضها لأول مرة وتساءلت كالمعتذرة :

— هل تخاطبيننى يا شوشو ؟ ! لا مؤاخذة انى افكر فى بعض الأمور الهامة فاجلى حديثك الى حين ، وعادت تهز راسها فى تفكير وتخاطب نفسها قائلة :

— شىء مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك انت ياسيد احمد عبد الجواد ؟! اسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال شف حريمك يا سيدى وتاج راسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم ابيها ، فدار راسها ، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمى فى خطبة مريم « اخبرينى هل رآها ؟ » .. «ماكنت أحسب أن لى ابناء يسترقون النظر الى حرمات

الجيران » ، هــذا رأيه فى الان فكيف يكون فى البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

ـ خديجة .. لا يليق هذا .. انت مخطئة .. انت مخطئة

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

ـ ترى أهذا هو الحب ؟! يمكن ! الم يقولوا عنه : « الحب كبش فى قلبى .. قربت أروح منه طوكر »

ترى اين طوكر هذه ؟ ! لعلها فى النحاسين ، بل لعلها فى بيت السيد احمد عبد الجواد

ـ لم أعد احتمل كلامك ، ارحمينى من لســانك ، رباه .. لماذا لا تصدقيننى ؟ !

ـ تدبرى أمرك يا خديجة ، ليس ما نحنّ فيه لعبــا ، وأنت الأخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم أولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك ؟ ؟ الحق انى لا ادرى كيف أخاطبه فى مثل هذا السر الخطير ، ياسين ؟ ! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمى ؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها ، اظن من الأفضل ان أخبر نينة ، واترك لها التصرف بما ترى

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشــة اليها كدجاجة مذبوحة وامسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض :

ـ ماذا تريدين ؟

فتساءلت خديجة :

ـ اتهددينني ؟ !

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجعلت خديجة تحــدق اليها صــامتة متفكرة ، ثم زايل اساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى فى غير ارتياح الى نشيج الفتاة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة :

ـ لقد اخطأت يا عائشة

وامسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن أنفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثر واضحا فاستطردت قائلة :

ـ يجب أن تقــرى بخطئك ، خبرينى كيف سولت لك نفســك هذا العبث يا مجنونة ؟

فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :

ـ انت تسيئين الظن بى

فنفخت خديجة مقطبـــة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد انها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء او حتى المعابثة ، انها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد اشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر — أبعد ما تكون عن العــدوان والقسوة — لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة امومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة فى اشباع هذه الميول الودية قالت :

— لا تكابرى ، لقد رأيت كل شىء بعينى ، لست الآن أهزل ولكنى أريد ان أصارحك بأنك اخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت فى الماضى ولا يود ان يعرفه فى حاضره أو مستقبله ، انه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، اصغى الى واعقلى نصيحتى ، لا تعــودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شىء وان طال كتمانه ، فتصورى ماذا يكون من أمرنا جميعا لو لمحك أحد فى الطريق أو أحد من الجيران ، وانت أدرى بألسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نمى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الدم الذى ينزفه الضــــمير فى الداخل اذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

— حذار ، حــذار ، فاهمة ؟ .. « ثم نسمت عليها نسمة ســخرية فغيرت لهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها نقول لك مع الف ســلامة ، بل فى ستين داهية يا ستى ..

استردت عائشة أنفاســها ، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعــة اليقظة الأولى فى العين عقب غيبــوبة طويلة ، وكأن خديجة عز عليهـــا — برؤية هذه الابتسامة — أن تفلت الفتاة من قبضــتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

— لا تظنى انك بلغت بر الأمان ، ان لسانى لا يسكت اذا لم تحسنى مشاغلته ..

فتساءلت الأخرى فى ارتياح :

— ماذا تعنين ؟

— لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهيه بشىء من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبة ملبس مثلا من شنجرلى .

ـ لك ما تشتهين وأكثر

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها ؛ على أن قلب خديجة كان ـ كما كان من بادىء الأمر ـ مرتعا لضروب من المشاعر متباينة .. غيرة وحنق واشفاق وحنان ..

- ٢٣ -

كانت ست أمينة مشغولة باعداد أدوات القهوة استعدادا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفى مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

ـ ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن فى زيارتك ...

أخلت الأم يديها من كل شىء ، وانتصبت قامتهـا فى عجلة دلت على تأثير الخبر فى نفسها ، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل ان تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها » ثم تمنت استزادة من التوكيد :

ـ غريبات ؟ !

فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

ـ نعم يا ستى ، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لى « أليس هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق ؟ » فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لى احداهن ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما على الرسول الا البلاغ » فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنا الأحلام » ...

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :

ـ ادعيهن الى حجرة الاستقبال ... أسرعى ...

والبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة فى خواطرها الجديدة ، فى الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسهـا فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتـاة على الأثر ، وما أن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح :

ـ ثلاث سـيدات غريبات فى حجرة الاسـتقبال .. ارتدى خير

ملابسك .. واستعدى .. ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها ايضاكانما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها فى الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت أمها ، غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الألم ، متسائلة « ماوراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

ـ اذهب الى ابلة مريم وقل لها ان خديجة تقرئك السلام وترجوك ان ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..

وتلقف الغلام الامر وهو يعدو الى الخارج ، أما خديجة فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة التى لحظتها بعين متسائلة :

ـ اختارى لى أحسن فستان ... أحسن فستان بلا استثناء ..

فتساءلت عائشة :

ـ ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟ .. زائرة ؟ ! من ؟ ! ..

فقالت خديجة بصوت خافت :

ـ ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » ... غريبات ... !

فتراجع رأس عائشة فى دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

ـ آه .. هل يفهم من هذا ان .. ياله من خبر

ـ لا تتسرعى فى الحكم .. فمن يدرى عما هناك

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

ـ فى الجو شىء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..

فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها ، واقتربت من المرآة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

ـ لا بأس بوجهى الآن ، وجه مقبول « ثم رافعة راحتها » .. اما على هذه الحال فربنا وحده المنجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعدها فى نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

ـ لا تغمطى نفسك . . . الا يسلم شىء من لسانك !. . ليست العروس انفا فحسب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم الخفيف ! . .

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ـ الناس لا ترى الا العيوب . . .

ـ هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس ، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله . . .

ـ سوف اجيبك حين أفرغ لك . . !

فربتت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

ـ ولا تنسى هذا الجسم البض المتلىء . . ياله من جسم !

فضحكت خديجة فى سرور وقالت :

ـ لو كان العريس اعمى ما عملت حسابا لشىء . . وانى أرضى به فى تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر . .

ـ وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! . . أليس منهم من خيراته كالبحر ؟ !

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ـ ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

ـ ليس فى بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل او احمر كأن ليس به نساء . .!

ـ من الأفضل ان تبلغى هذا الاحتجاج لوالدنا . .

ـ أليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟

ـ انها جميلة هكذا بلا زينة !

ـ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ أرسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل وجهى وجه اقابل به الخاطبات عاطلا ؟ !

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل راسها واخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :

ـ ياله من شعر سبط طويل . . ما رأيك ؟ سأجدله فى ضفيرة واحدة ، الا يكون ذلك أروع ؟

ـ بل ضفيرتين . . ولكن خبرينى هل ابقى الجراب فى قدمى او أدخل عليهن عارية الساقين ؟

ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولـكنى اخشى اذا ابقيته ان يحسبن بساقك او قدمك عيبا تتعمدين اخفاءه .. !

ـ صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن ..

ـ قوى قلبك . ربنا يوعدنا ..

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى اختـــه أدوات الزينة وهو يقول :

ـ قطعت السلم والطريق جريا ..

فقالت له خديجة باسمة :

ـ عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟

ـ سالتنى هل عندنا ضيوف .. ومن هن ، فاجبتها بانى لا ادرى ..

فتجلت فى عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تساله :

ـ وهل قنعت بهذه الاجابة ؟

ـ حلفتنى بالحسين ان أصرح لها بما عندى فحلفت لها بانه ليس عندى غير ما قلت ..

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل ..

ـ ستخمن ما هنالك ..

فقالت خديجة وهى تذر البودرة على وجهها :

ـ انها بنت هرمة ، وهيهات ان يفوتها شىء ، واراهنك على انها سوف تزورنا غدا على الاكثر لاجراء تحقيق شامل ..

ولم يشأ كمال ان يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم يستطع مغادرتها تحت اغراء المشهد الذى يمثل امام عينيه ، والذى يراه لأول مرة فى حياته فلم يسبق له ان راى وجه اختـــه وهو يلقى هذا التغير الذى استحال معه وجها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ اشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفى على حدقتيهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

ـ انت يا ابله الآن كالعروس التى يشتريها بابا فى مولد النبى ...

فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :

ـ هل أعجبك الآن ؟

فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب ارنبة انفها وهو يقول :

ـ لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لأختها :

ـ أخرجى هذا النمام ..

فقبضت عائشة على يده وجذبتـــه الى الخارج رغم مقـــاومته حتى اخرجته واغلقت البـاب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشـاطهما فى صمت وجـــد . ومع انه كان من المتفق عليه فى الأسرة ان تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا ان الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر :

ــ ينبغى أن تتأهبى أنت ايضا لاستقبال الزائرات

فقالت عائشة بمثل مكر اختها :

ــ لن يكون هذا قبل أن تزف الى عريسك !

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة :

ــ اما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر ؟ !

فرمتها اختها بنظرة مستريبة وتساءلت :

ــ من يكون القمر ؟

فقالت عائشة ضاحكة :

ــ طبعا أنا . . !

فلكزتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

ــ لو تعيريننى انفك كما اعارتنى مريم علبة بودرتها !

ــ تناسى انفك ولو الليلة على الأقل ، ان الأنف ــ كالدمل ــ يضـــخم لداب على التفكير فيه ! . .

أوشكتا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز فى مظهرها واتجه فى رهبة الى موقف الامتحان الذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن ــ قبل كل شيء ــ بالقياس الى خطورة عواقبه ، وما لبثت أن قالت متشكية :

ــ اية جلسة هذه التى قضى على بها ! . . تصورى نفسك فى مكانى ، بين نسوة غريبات لا تدرين اى خلق خلقهن ولا اى أصل أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من أمرى لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلا . . هه ؟ وماذا بوسعى الا أن أجلس بينهن فى ادب واستسلام أتلقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن الأمام والخلف ، وأصـــدع بأمرهن بلا أدنى تردد ، اذا طلبن قياما قمت ، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى واعضائى وقسماتى ، وعلينا بعد هذه « البهدلة » كلها أن نتودد اليهن ونطـرى لطفهن ، وكرمهن ، ثم لا

ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى او نفوز بالغضب ، اف .. اف .. ملعون الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

— بعد الشر عنه !

فقالت خديجة ضاحكة ايضا :

— لا تدعى له حتى نتأكد انه من نصيبنا .. آه يا ربى كم ان قلبى يدق ! ..

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

— صبرك .. ستجدين فى المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت ... ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لانفسهن ياليت الذى جرى ما كان ... !

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن فى الوقت متسع لرد الهجوم ، ولم تجد فى الهجوم — الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا — لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء ، ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة وعائشة — الى الوراء خطوتين — تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

— احسنت يداك ، منظر حسن أليس كذلك ؟ .. هذه خديجة حقا .. لا بأس بأنفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد صار كل شىء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة بسرعة) استغفر الله العظيم ، لك فى كل شىء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرات الفاتحة فى سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

— ادعى لى يا بنت .

وغادرت الحجرة ..

- ٢٤ -

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت فى المدفأة الكبيرة التى توسطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة ، الذكور فى معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهيأ لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء ، وقد بدا فهمى - على حزنه الصامت الطويل فى الأيام الأخيرة - كمن يتحفز لمواجهة اهله بخبر هام ؛ ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد انه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عبأه بعد ذلك على والديه والأقدار ، فلذلك قال :

- عندى خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الأعين باهتمام لم يشذ عنه احد ، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقا كما قال ، اما فهمى فاستطرد قائلا :

- الخبر هو إن حسن افندى ابراهيم ضابط قسم الجمالية - وهو من معارفى كما تعلمون - قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته فى خطبة عائشة ..!

واحدث الخبر - كما قدر فهمى من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير - آثارا جد متباينة ، فتطلعت الأم اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز راسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفى وجهها عن الأعين ان تفضحها اساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب فى قلبها الخافق ، اما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها كانت كتلميذ ، يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الأم فى ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

- اهذا كل ما قال ؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

- بدانى بقوله انه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى ..

— وماذا قلت له ؟

— شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال رغبة فى استطلاع شىء تود معرفته ، ولكن لتدارى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى ، ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتى جئنها منذ أيام ؟ ! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن — قبل ظهور خديجة — وهى بمعرض الحديث عن أسرة السيد أحمد أنهن سمعن أن للسيد كريمتين فأدركت وقتها انهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى اسرة تاجر بالدرب الأحمر — غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشغال — ولكن هذا لا ينفى نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص ، وكم ودت ان تسال فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها اشفقت من أن يجىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن امها — اتفاقا — يطرح ما يعتلج فى صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة :

— لعله هو الذى بعث بالزائرات اللاتى زرننا منذ أيام ؟

ولكن فهمى بادر قائلا :

— كلا ، فقد قال لى انه سيرسل امه الينا فى حالة الموافقة على طلبه ..

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتى زرن والدته قريباته ، بيد أنه اشفق من ايلام شقيقته الكبرى التى كان — على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط — يعطف عليها عطفا أخويا ، ويألم اشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة أثر قوى فى البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانى :

— يبدو اننا سنجمع قريبا بين فرحتين .

فهتفت الأم فى فرح صادق :

— ربنا يسمع منك ..

— هل تخاطبين ابى نيابة عنى ؟..

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه — عقب النطق به — وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكأنه ألقى عليه من حافظة

ذكرياته لا من طرف لســانه ، او كأنه حين القى على سمعه لم يقف عند اذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر ســؤالا مماثلا لهذا الســؤال توجه به الى أمه فى ظروف مشــابهة فانقبض قلبه ، وهاجت آلامه . وعاوده احساسه بالظلم الذى واد أمله ، وجعل يقول لنفســه كما قال لها مرارا ، فى الأيام الأخيرة كم كان يكون ســعيدا بيومه مستبشرا بغده راضــيا عن الحيــاة كلهــا لولا ارادة أبيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام يشئون غيره : فاستبسلم للحزن الذى يقرض شغاف قلبه . اما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

ـ الا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك اذا سألنى عما دعا الضابط الى طلب يد عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير لا هذه ولا تلك ؟..

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة امهما معا ، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة فى وقت واحد ، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبهــا على الحظ الأعمى الذى يأبى الا ان يجزى النزق والاســتهتار بالاحسان ، أما عائشــة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمهــا كما تعترض الحلق ـــ وهو نشــوان بازدراد اكلة لذيذة شهية ـــ شوكة حادة مدسوسة فى الطعــام ؛ وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التى كان ينتفض بها روحها . فهمى وحــده الذى ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا عن عائشة ـــ فانه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة فى هذه النقطة الحســاسة بالذات ـــ ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب أباه فى شخص أمه ، وهو لا يدرى :

ـــ هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نســاء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتى لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة فى الحلال .

والكن الأم لم تقصــد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ؛ فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

ـ الا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات ؟ !

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التى أبت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم ممــا يصــطرع داخلهــا من القلق والتشــاؤم ، فقالت :

ــ هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتاجيل هذا من اجل ذاك . .
فقالت الأم بهدوء مؤثر :
ــ كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة .
ولم يسع عائشة الا أن تقول برقة وتسليم :
ــ هذا أمر مفروغ منه . .
امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التى تتكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت اشد ما أحنقها ، ربما لأنها أوحت بعطف أبته كل الاباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفى حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ، وأخيرا لم يسعها الا ان تقول بلهجة لم تخل من حدة :
ــ لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل ان يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد ! . .
وتنبه فهمى الى ما ينطوى عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالايثار فانتزع نفسه من قبضة احزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول فى غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية اختها فقال موجها خطابه اليها :
ــ ان مفاتحة بابا عن رغبة حسين افندى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من باس اذا نلنا موافقته على الخطبة ، ان نؤجل اعلانها للوقت المناسب ! . .
ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الراى الذى يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رايه الا انه روح عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :
ــ الزواج مصير كل حى ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .
وهنا انطلق صوت كمال الرفيع ــ الذى كان يتابع الحديث باهتمام ــ متسائلا على غير انتظار :
ــ نينة . . لماذا كان الزواج مصير كل حى ؟
ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من اثر الا عند ياسين الذى قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين قالت الأم :
ــ أعلم ان كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ولكن هنالك اعتبارات لا ينبغى اغفالها . .

وعاد كمال يسألها :

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

ـ أعرضى الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..

وقالت خديجة باصرار غريب :

ـ لابد من هذا ، لابد من هذا ..

كانت تعنى ما تقول : لأنها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحيـة أخرى تعتقـد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها ـ الى هذا وذاك ـ مازالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

— ٢٥ —

مع ان السيدة أمينة جربت فى حياتهـا أكثر من سبب من الأسباب التى تكدر الصـفو الا أنهـا لم تكن قديمة عهـد بنوع طارىء من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا فى ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهرية فى الدنيا ، ومع هـذا انقلب فى بيتها ، بل فى قلبهـا خاصة ، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكم كانت صادقة وهى تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذى تتلهف النفوس على اسـتقباله ، يجر علينـا هذا التعب كله !.. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن الى واحد منها ، رأت حينا أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورأت حينا آخر ان الالحاح فى معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتـاتين بأوخم العواقب ، والى هذا وذاك شـق عليها كثيرا أن توصد الباب فى وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى ولـكن ما عسى أن يكون حال خديجـة اذا تمت الموافقـة وما عسى أن يكون حظها ومسـتقبلها ؟! .. لم تدر لنفسـها

مستقرا ، خاصة وأن ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها اعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهى تتحفز لالقاء العبء كله على عاتق السيد ، بل وجدت هـذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب فى حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

ـ سيدى .. حدثنى فهمى قال أن صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته فى خطبة عائشة ..

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة الى حيث تجلس المرأة على شـلتة غير بعيـدة من قدميه » كأنما تقول لها : « كيف تحدثينى عن عائشة وانا فى انتظار اخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث » .. ثم تساءل ليستوثق مما سمع :

ـ عائشة ؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ونظر السيد أمامه فى ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ قررت من زمن بعيد أن هذا أمر سابق لأوانه ..

فقالت المرأة فى عجلة ان يظن بها معارضة لرايه :

ـ انى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على كل شيء مما يدور بيننا ..

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما فى قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتسـاءل فى اهتمام وقلق :

ـ ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهى منفردة بفهمى ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عنـد مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير فى المسـألة طويلا ، وترددت بين قبولهـا ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولـكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهى تشعر بنظرة عينيه كضـوء الشمس الوهاج شعت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

ـ نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهن قريبات صديقه ..

فعبس السـيد غاضبا ، وكعهده اذا غضب امتـلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه ، من يستهن بخديجة فكأنما استهان

بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه فى صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

ـ من هو هذا الصديق ؟

فقالت ـ وهى تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب :

ـ حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا فى انفعال :

ـ قلت انك ادخلت خديجة وحدها على السيدات !؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل زرنك مرة أخرى ؟

ـ كلا يا سيدى والا كنت اخبرتك .

فسألها منتهرا كأنها هى المسئولة عن هذه الغرابة :

ـ ارسل قريباته فرأين خديجة ، واذا به يطلب عائشة !.. ما معنى هذا ؟ ! ..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

ـ فى مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعد أن يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن فى حديثهن معى الى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكد لديهن ما سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط فى ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت مكتفية باتمام الحديث باشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » .

وحدج السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ، وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب فى صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

ـ عرفنا كل شىء ، هاهو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فأسمعينى رأيك ؟ ..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لاقرار لها فقالت بلا تردد وهى تبسط راحتيها فى تسليم :

ـ رأيى رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره ...

فصاح فى زمجرة :

ــ لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى فى الأمر .

فقالت فى لهجة ملهوجة واشفاق :

ــ ما حدثتك يا سيدى الا لأخبرك عمـا جد فى الأمر ، لأن واجبى يقضى على بأن اطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد ..

فهز راسه فى حنق قائلا :

ــ من يدرى .. أى والله من يدرى .. ما أنت الا امراة ، وكل امراة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد ، فلعلك ..

فقاطعته بصوت متهدج :

ــ سيدى اعوذ بالله مما تظن بى ، ان خديجة ابنتى ومن لحمى ودمى كما هى ابنتك .. وان حظها ليفتت كبدى ، أما عائشة فما تزال فى أول ربيعها ولن يضيرها ان تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها ..

فراح يمسح براحته على شـاربه الغليظ بحركة عصـبية حتى توقف فجاة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

ــ هل علمت خديجة ؟

ــ نعم يا سيدى ..

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

ــ كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من ان أحدا لم يرها ؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

ــ قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها ..

ــ ولكنه يعمل فى قسم الجمالية أى فى حينا ، وكأنه من أهله ..

فقالت الأم فى تأثر شديد :

ــ ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة فى سن الطفولة ..

فضرب كفا بكف وصاح بها :

ــ مهلا .. مهلا .. هل حسبتنى اشك فى هذا يا ولية ؟! لو شككت فيه ما اشبعنى القتل !

انما اتحدث عما قد يجرى فى عقول بعض النـاس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى » .. ما شاء الله ، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهمـا ؟! .. يا لك من مجنونة مهذارة ، انى أردد ما قد تشيع به السنة السـفهاء من الناس ، أجل .. انه ضابط الحى ، يسير فى شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن

عن احتمال رؤيته لاحدى الفنـاتين اذا علموا بزواجه منها .. لا احب لا اريد ان اعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى . بل لن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى ان دافعـه الأول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة فى مصاهرتى انا .. انا .. انا .. « لم تقع عين رجل على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست امينة ..

وصمت الأم دون ان تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع فى ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفعـه ليخلعه ، ولـكنه توقف قبـل أن تجاوز طاقة الجلبـاب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ــ الم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه ؟..

(ثم محركا رأسه فى أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق أنى الم انجب الا أناثا .. خمس اناث .

— ٢٦ —

على اثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه فى خطبة عائشة ، ومع انه قوبل بتسليم عام ــ تسـليم من لا حيلة لهم سـوى التسليم ــ الا انه كان متباين الصدى فى النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه أن تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل أن يبت ابوهُ فى الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلمـا أن قضى الأمر واسـتراح جانبه المشفق على خديجة اسف جانبه الآخر الراغب فى سعادة عائشة ، وأمكنه أن يجهر برايه فقال :

ــ لا شك ان مسـتقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشـة من الفرص الحسـنة التى تتاح لها ، الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم ..

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة فى سبيل اختها ، لم تكن تفـكر فى الحرج وهى تحت المطرقة ، ولكن حين نما اليها راي ابيها الحاسم ، وتقهقر الخطر الذى يتهددها ، زايلهـا الخنق والألم وحل محلهما شـعور اليم بالخجل والحرج ، ومع أن حديث

فهمى لم يترك فى نفسها اثرا حسنا لأنها طمعت فى اعماقها أن تجد من الجميع حماسا لراى ابيها وأن تبقى هى الوحيدة المعارضة له ؛ الا انها قالت معلقة عليه :

ـ صدق فهمى فيما قال : وكان هذا رأيى دائما ..

فعاد ياسين يؤكد رايه السابق قائلا :

ـ الزواج مصير كل حى .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رايه كله صراحة أن تسىء خديجة فهمه او تظن ان ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار برىء ، والى هذا وذاك كان احساسه الباطنى بأنه نصف اخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الراى الخليق بجرح أحد من افرادها .. ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة .فقسرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بآلامها التى صممت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل اجمعت على اعلان الارتياح مجاراة لجو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها . والذى تدارى فيه أهواء القلوب باقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

ـ لا يصح أن أتزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة) .. لماذا تتعجلون الزواج ؟ .. ومن ادراكم باننا سنحظى فى بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها فى بيت ابينا ؟ !

ولما تواصل الحديث كشأنه فى كل مساء حول المدفاة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم فى الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التى تندفع مبسوطة الجناحين ـ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ـ على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة ..

على انها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على ابيها ، إن لا ثمة امل غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل فى كسب النمرة الأولى فى اليانصيب الكبير .. وقد تطوعت اول الأمر للمعارضة فى زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس . ليس لها من الأمر شىء . هذه ارادة الأب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر ، أما الاحتجاج فاثم لا يطيقه ادبها وحياؤها ،

افاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم ، ما أكثف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، فى تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها اذا كان ثمة نور امكن أن يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو : لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضى وواقع الحال وأحلام المستقبل ، وعلى اغراقها فى التفكير فى هذا كله وحضوره — تبعا لذلك — فى شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة ، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقا خبا النور ؟ !

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملأ قلبها وخيالها ؟ !

سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك ان الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر فى الأعماق والآمال المتطايرة فى الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعود فتستقر فى الأعماق ، ثم تطفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها — وقد ودعت النفس آخر آمالها — فلا تغادره الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عالجوه كما يعالجون امور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة امس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا كلمة من هناك ، واقتراح يعلن ورأى يبسط ، فى هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمة ، وتشجيع كأنه الدعابة ، ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج فى التاريخ الذى تنزل عنه الأسرة للنسيان ، أين قلبها من هذا كله ؟ ! .. لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له فى الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست منهم وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفى لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟ ! .. كلمة واحدة لا أكثر ، لا تزيد عن لفظة « نعم » ثم تحدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد فى المناقشة الطويلة التى انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذلك مشيئته ، وارتضى لها هذا العذاب كله . ومع أنها كانت متألمة حانقة ساخطة الا أن ألمها وحنقها وسخطها وقفت عند شخص ابيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا اعترضه مروضه ، الذى يحبه ويخافه ، لم يسعها أن تحمل عليه ، ولو فى أعماق سريرتها ، وظل قلبها

على ولائه وحبه فلم تضمر له الا الاخلاص والوفاء كانه اله لا يجوز ان تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء .

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بانه نضب واجدب الى الأبد ، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذى صممت على أن تمثله بينهم ، دور البشر واللا مبالاة وما سامته نفسها من المشاركة فى سمرهم حتى ناءت هامتها الذهبية بحمله ، وانقلبت الأصوات فى اذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت فى اعياء كالمرضى ، وهناك فى أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها ..

بيد انه لحق بها رقيب - خديجة - ايقنت من بادىء الأمر أن تصنعها لن يجدى معها شيئا ، وقد تحامت فى المجلس نظراتها أما الآن - اذ جلست اليها - فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلل صوتها الى اذنيها بين لحظة وأخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لأنها املت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء ولم يطل بها الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :

- عائشة ، انى حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لى ، وكم وددت لو تواتينى الشجاعة فأرجو ابى ان يعدل عن رأيه ..

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنق ثارت بها الذى سماعها النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التى ظلت تتحدث بها فى مجلس أمها فقالت :

- فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ ابى وما ظلم ولا داعى للعجلة !..

- هذه ثانى مرة يؤجل زواجك بسببى

- لست آسفة مطلقا ..

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى ..

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يثار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن انفاسها لم تسعفها فخافت ان تفضحها نبراتها ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

- لهذا تجديننى فى غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة

الا وبعدها الفرج . فعسى ان ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا ...

وهتفت جوارحها :

« ياليت »

اما لسانها فقال :

- سيان عندى ، الأمر ابسط مما تظنين ..

- ارجو أن يكون كذلك .. انى جد حزينة وآسفة يا عائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال فى الشعاع الخافت الذى تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة فى ضيق :

- لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشى باحتجاجه على سوء مقابلتها له :

- لا تنهرينى .. وافسحى لى ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة ويدا الى الأخرى ، وراح يدغدغهما ، ليهيىء لحديثه جوا طيبا غير الجو الذى أنذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما نثرتا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

- آن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف فى غيظ :

- لن اذهب حتى اعرف ما جئت اسأل عنه !

- عم تسأل فى هذه الساعة من الليل ؟

فقال مغيرا لهجته حتى يستجيبا له :

- أريد أن اعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما

فصاحت به خديجة :

- انتظر حتى يجيء الزواج !

فتساءل فى عناد :

- ولكن ما هو الزواج ؟

- كيف أجيبك وأنا لم أتزوج .. اذهب ونم الله لا يسيئك

- لن اذهب حتى أعرف ..

- يا حبيبى توكل على الله وفارقنا ..

فقال بصوت حزين :

- اريد ان اعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت فى ضجر :

- نعم يا سيدى .. ماذا تريد ايضا ؟

فقال فى جزع
— اذن لا تتزوجا .. هذا ما اريد ..
— سمعا وطاعة ..
فعاد يقول فى احتجاج ثائر :
— انا لا اطيق ان تذهبا بعيدا عنا وسادعو الله الا يزوجكما ..
فهتفت :
— من فمك لباب السما .. عال عال .. وربنا يكرمك . تفضل فارقنا مع السلامة .

— ٢٧ —

سرى فى البيت شعور بانه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يوم راحة يستطيع — اذا شاء — ان يستروح فيه نسمة من الحرية البريئة فى أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غدا فى حل من ان يقطع اليوم كله فى اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن ان تنسلا مســـاء الى بيت مريم لقضاء ساعة فى لهو ومرح ؟ لم تجىء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفء والبشــاشة ، اذ ليس من شــأن الربيع ان يهب هذه الأسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد الى بور سعيد فى مهمة تجارية تدعوه كل عدة اعوام الى السفر يوما أو بضع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين افراد الأسرة .. وتجاوبت رغبــاتهم الظماى الى الحرية فى الجو الطليق الآمن الذى خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردد ، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة ، وان تلتزم — فى غياب الأب — الحدود التى تلتزمها فى حضوره خوفا من مخالفته اكثر منها اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته ، ولكنها ما تدرى الا وياسين يقول لها :
— لا تعارضى بالله .. اننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس ، بل أريد ان أقول شيئا جديدا .. لمــــاذا لا تروحين عن نفسك انت ؟! .. ما رأيكم فى هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الأعين فى دهشة ولكن احدا لم ينبس بكلمة ، ولعلهم ـ كأمهم التى رمته بنظرة تأنيب ـ لم يحملوا قوله محمل الجد ، الا انه استطرد قائلا :

ـ لماذا تنظرين الى هكذا ؟! .. لم اخطىء فى البخارى ، وليس ثمة جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه وقد القيت نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه اربعين عاما دون ان ترى منه شيئا ..

فتنهدت المراة متمتمة :

ـ سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

ـ علام يسامحنى ؟.. هل اقترفت ذنبا لا يغتفر ؟ . والله لو كنت مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين .. سيدنا الحسين الا تسمعين ؟.. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو قريب ، قومى انه يدعوك اليه ...

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره فى احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفى تأثرها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة تفجرت فى نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من احد ممن حولها حتى ياسين نفسه ، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب قلبها للنداء ، ولا كيف تطلع بصرها الى ماوراء الحدود المحرمة ، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا ـ له صفة القداسة ـ للطفرة اليسارية التى نزعت اليها ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها ألتى تمخضت عنها نفسها اذ لبت دعاءها فى الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاة الى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

ـ زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

ـ ابى فى طريقه الى بور سعيد ولن يعود قُبل ضحى الغد ، وبوسعك ـ زيادة فى الحيطة ـ أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف حتى اذا اتفق أن رآك احد و أنت تغادرين البيت أو وانت تعودين اليه ظنك زائرة ...

ورددت عينيها بين الأبناء فى خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد من

التشـــجيع » فتحمست خديجة وعائشـــة للاقتراح ، وكأنهما تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيســـة فى الانطلاق ، وفرحتهما بزيارة مريم التى باتت ــ بعـــد هذا الانقــلاب ــ فى حكم المقرر ، وهتف كمـــال من أعماق قلبه :

ــ سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق ..

وحدجها فهمى بنظرة عطف أثاره فى نفسه ما طالعه فى وجهها البرىء من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة جديدة فقال لها فى تشجيع واستهانة :

ــ القى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن تنسى المشى من طول لزومك للبيت ..!

وفى فورة الحمـــاس جرت خديجة الى ام حنفى ثم عادت بملاءتهـــا ، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم عيدا سعيدا لا عهد لاحد به ، واشترك الجميع ــ وهم لا يدرون ــ فى الثورة على ارادة الأب الغائب ، والتفت الست أمينة فى الملاءة واســـدلت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت فى المرآة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بدلته وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه ، ركبها شـــعور الرهبة الذى يلازم المواقف الفاصـــلة فرفعت عينيها الى فهمى وتساءلت :

ــ ما رأيكم ، هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

ــ توكلى على الله ...

وتقدمت منها خديجة ، ووضعت يدها على منكبها ودفعتهـــا برفق وهى تقول :

ــ الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع فى أعقابهـــا ... ووجدت ام حنفى فى انتظارها ، فالقت الخادم على سيدتها ــ أو بالحرى على الملاءة الملتفة بها ــ نظرة فاحصة . ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منهـــا واعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها فى الوضع المناسب ، فانقادت لهـــا سيدتها التى كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذاك ارتســـمت ملامح قامتها وقدها فى تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضـــة ،

فالقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة واغرقتا فى الضحك ...

ولاقت وهى تعبر عتبة الباب الخارجى الى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور فى نوبة القلق ووطأة الاحساس بالذنب ؛ وتحركت فى بطء وهى قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادىء المشى الأولية » الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهى تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربية ــ عم حسنين الحلاق ، ودرويش بائع الفول والفولىاللبان وبيومى الشرباتلى وأبوسريع صاحب المقلى ــ حتى توهمت انهم سيعرفونها كما تعرفهم ــ أو لأنها تعرفهم ــ ووجدت مشقة فى تثبيت حقيقة بديهية فى رأسها وهى أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لأنه وان لم يكن أقصر الطرق الى جامع الحسين الا انه كان لا يمر ــ كطريق النحاسين ــ بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما ندر » وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرات شبحى ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة اخرى عن وجهى ياسين وفهمى الباسمين ، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم جدت فى السير ــ هى وغلامها ــ يقطعان الدرب المقفر فى شىء من الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالذنب ولكنهما تراجعا الى حاشية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماسية نحو الدنيا التى يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها ؛ ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء فى الحركة والانطلاق » سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمها فى الخرنفش ــ بضع مرات فى العام ــ تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق ... وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما فى طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن ؛ والغلام يحدثها فى اسهاب مزهوا بدور المرشد الذى يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذى يجب ــ قبل الدخول فيه ــ تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التى تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان « ذقن الباشا » مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو أشجاره أو يسميه احيانا أخرى « ميدان شنجرلى » ساحبا عليه اسم

بائع الشيكولاته التركى » أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ، ومع ان الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان الا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى الى طلب يد عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خليل اغا الابتدائية ، فاشار الى شرفتها الاثرية وهو يقول « فى هذه الشرفة كان الشيخ مهدى يلصق وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بحذائه خمسا او ستا أو عشرا كما يحلو له » ، ثم أومأ الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشا وابتاع به ملبنا احمر ، انعطفا بعد ذلك الى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع الحسين ، يتوسطه نبات عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح ، فتساءلت والبشر يسجع فى صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما اجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه — وقد حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت — وبين الصورة التى خلقها خيالها له مستعينا فى خلقه بمناذج من الجوامع التى فى متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون الخيال ، لأنها كانت تنفخ فى الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد ان هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا فى فرحة اللقاء التى ثملت بها جوانحها ، ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا فى زحمة الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وانها تستخيل روحا طائرا يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحى فاغرورقت عيناها بالدمع الذى اسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وايمانها واريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان باعين شيقة مستطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وابسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الأشياء من ناحية اخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس فى النهار والهزيع الأول من الليل ، وبيتا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجىء مستعملا ما فيه من اثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بارجائه

ويصلى فى المحراب ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط ، وكم تمنى حالما لو ينســونه فى الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى الحسين وجها لوجه وأن يمضى فى حضرته ليلة كاملة حتى الصباح وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعــد ذلك عنده من العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الراس فيسأله الشــهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو يقبــل يده « كمــال أحمد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له « تلميذ — ولن ينسى التنويه بتفوقه — بمدرسة خليل اغا » ويسأله عما جاء به فى هذه الســاعة من الليل فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحســين خاصة ، فيبسم اليه عطفا » ويدعوه الى مرافقته فى تجواله الليلى ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلا : « اضمن لى أن العب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى عائشة وخديجة فى بيتنا الى الأبد ، وان تغير طبع ابى ، وان تمد فى عمر أمى الى مالا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ، وأن ندخل الجنة جميعا بغير حساب » ... هذا وتيــار الزائرات الزاحف فى بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفســيهما فى مثوى الضريح ، طالمــا تلهفت اشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه فى هذه الدنيا ، ها هى تقف بين أركانه ، بل ها هى تلصــق جدران الضريح نفســه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية ، واقتدى كمال بها ، ثم قرءا الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لا ينى عن الدعاء والتوســل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس فى ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبــل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها ، وهيهات أن يروى لهــا ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها الى تملى ما ظفرت به من سعادة طاردت

بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها فى نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث اتت انذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع امه التى لم يحلم بمثلها من قبل فابى التفريط فيها واستمات فى الدفاع عنها فاقترح عليها ان يسيرا فى السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكى يقضى على المقاومة التى بدت فى صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع خلفها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما فى زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين فى جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره فى الطريق الهادىء الذى جاءت منه فملاها الارتباك ، واخذت تفقد نفسها فى اضطراب شامل ، ولم تلبث أن شكت اليه ما تلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان فى بطء شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذاك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر فى وسيلة لاقناع أمه بالدخول الى الدكان وابتياع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى الا وامه تفلت من يده فالتفت نحوها متسائلا فرآها وهى تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه فى ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه راى بجانب عينه — فى نفس الوقت تقريبا — سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا ان انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحى الطريق كما تهرع الصبية الى صفارة الحاوى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت اعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة والسنة تهتف بكلام اختلطت اسئلته باجوبته ، وافاق كمال من الصدمة بعض الشىء فراح يردد عينيه بين امه الملقاة عند قدميه وبين الناس فى حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع راسه مقلبا عينيه فى وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا فى نحيب حار علا على الضجة التى تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق امه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد احداهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى —

فى حال اليأس من السلامة ـ الى ان ترى الموت ـ ذاك الحتم المؤجل ـ وهو يطـرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشـــبه بروفا آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعا ان يختموا الحياة بلعبــه ، وصاح أحدهم قائلا « صدمها باب السـيارة الأيسر فى ظهرها » ، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهام الذى يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع أن اتفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدســتها » .. وجاء صـوت من المحـدقين اليها قائلا « ما زالت تتنفس ... أغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر » انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها ابدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله .... » .. ثم انتصبت قامة أول رجل تقـدم لفحصها وقال كأنما يلقى خطبة « ابتعـدوا لا تمنعوا الهواء .. فتحت عينيها .. بخير .. بخير والحمد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لايخلو من زهو كأنه هو الذى رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترســل فيه فى انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له « حسبك يابنى .. امك بخير .. انظر .. هلم ســاعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى امكن بجهد شديد أن تقف بينهما فى اعياء وخور وقد سقطت عنها الملاءة التى امتدت بعض الأيدى لتعيدها الى موضعها ـ بقدر الامكان ـ حول كتفيها ، ثم قدم لها الفطائرى الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من المـاء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد انفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر فى وجوه المحدقين بها فى ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟.. ماذا جرى ؟.. رباه لماذا تبكى يا كمال ؟! » وعنـد ذاك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء ياسيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « القسم » عقلها فرجها من الأعمـاق وهتفت بفزع « لماذا أذهب الى القســم ؟ .. لا اذهب الى القسم أبدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فاذا كان بك سوء وجب أن تذهبى أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن أذهب .. انا بخير » فقـــال لهـا

الشرطي « توكدى مما تقولين ، انهضي وامشي لترى ان كان أصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض — مدفوعة بالفزع الذى اثاره ذكر القسم — فنهضت واصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطي وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة باى ثمن « انى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شىء بى » لم تعد تشعر بخوف فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحدقين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس فى وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تأل ان قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها إحد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها « يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل الى اني اهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وان الأرض تدور تحت قدمى ، ثم غبت عن كل شىء حتى فتحت عينى على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بى الى القسم ؟ ! يالطيف يارب .. يامنجى يارب ، متى نبلغ بيتنا ؟ ! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك ابدا .. جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك فى البيت .. آه »

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا إن يطويا طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألها :

— ماذا بك ؟

فاغمضت عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

— انى تعبة ، تعبة جدا ، لا تكاد تحملنى قدماى ادع أول عربة تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر الى سوق العربة حتى وقف بها أمامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطاه لها حتى تربعت وهى تتنهد فى اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذى

الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة ترنح وراءه مطقطقة .. وتأوهت المرأة متمتمة « ما اشـد الى » عظام كتفى تتفكك » هذا وكمال يرمقها فى جزع وقلق .. ومرت العـربة فى طريقها بدكان السـيد دون أن يعيراها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيـات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة الا نهايتها المحزنة ..

— ٢٨ —

فتحت أم حنفى البـاب فاذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة كارو ، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة فى العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى لحظة قصيرة اذ ما لبثت أن رات عينى كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عيناها الى سيدتها فى انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعانى من اعيـاء وألم فندت عنها آهة وهرعت الى العـربة هاتفة « ستى ، مالك ، بعد الشر عنك » فقال لها الحوذى « تعب بسيط ان شاء الله ، عاونينى على انزالهـا » وتلقتها المرأة بين ذراعيها ، وسـارت بها الى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا فى الفناء وكلتاهما تفكر فى دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما الا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجى وهى تكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليها فزعتين وهما تهتفان :

ـ نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة فى أثنـاء ذلك عن ان تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى ان يغمغم فى خوف بالغ :

ـ سـيارة !

ـ سـيارة !

هكذا هتفت الفتـاتان معا مرددتين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال . فولولت خديجة هاتفة « ياخبر اسود .. بعد الشر عنك يا نينة » اما عائشة فانعقد لسانها وأقحمت فى البكاء ، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وان كانت من الاعياء فى نهـاية فهمست على اعيائها رغبة فى تسكين اضطرابهما :

ــ انى بخير ، لم يحدث سوء ، ما بى الا تعب .

وتناهت الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى راس السلم ، واطلا من فوق الدرابزين وما لبثا ان نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجة الا ان تشير الى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتباك :

ــ سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من اسئلة الى حين ، وحملا الأم الى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبة ثم سالها فهمى قلقا معذبا :

ــ خبرينى عما بك يا نينة ، أريد ان أعرف كل شىء . .

ولكنها مالت براسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد انفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأم حنفى وكمال حتى فقد فهمى اعصابه فثار بهن ونهرهن حتى امسكن ، ثم جذب كمال اليه ليستجوبه عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل اخذوكما الى القسم ، وكيف كان حال الأم فى اثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على اسئلته بلا تردد وفى اسهاب ، وعن أكثر التفاصيل ، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت :

ــ انى بخير يا فهمى ، لاتزعج نفسك ، كانوا يريدون أن أذهب الى القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواى فجاة ، لا تنزعج ، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة . .

الا ان ياسين عانى ــ الى انزعاجه للحادث ــ حرجا شديدا لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشئومة ــ بهذا وصفت بعد الحادث ــ فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة راى الآخرين ، وارتعدت الأم لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمى أن يلحق بأخيه وان يثنيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرأ دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مبينا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه ، وفى اثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها وجاءتها ام حنفى بقدح ماء ثم احاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسالونها مرارا وتكرارا عما تجد ، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو تقنع بأن تقول اذا ألح عليها الألم « ثمة الم خفيف فى كتفى اليمنى » ثم تستدرك قائلة

« ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب » ؛ والحق انها لم ترتح لاستدعائه ابدا ، لأنها من ناحية الم تلق طبيبا قط ـ لا لحصانة صحتها فحسب ـ ولكن لأنها نجحت دائما فى مداواة ما يلم بها من توعك أو انحراف بطبعها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمى ، الى أنه اقترن فى ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب لفادحة » ومن ناحية اخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه ان يهول الأمر الذى تود له الستر والطى قبل عودة السيد .. ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها ؛ ولكنهم لم يهتموا فى تلك اللحظة الدقيقة الا بشىء واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت فى ميدان بيت القاضى ، ثم عاد بتقدم الرجل الذى ادخل الى الأم حال حضوره ، وأخليت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمى ، وسأل الطبيب الأم عما تشكو فأشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف :

ـ أشعر هنا بألم ...

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدثه به ياسين فى الطريق عن الحادث جملة ، تقدم لفحصها ، وطال وقت الفحص فى شعور الشابين المنتظرين فى الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

ـ كسر فى الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك

وأحدثت « لفظة » الكسر ارتياعا فى الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على انهم وجدوا فى ذات التعبير » واللهجة التى ألقى بها مايغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..

ـ وهل هو شىء خطير ...؟

ـ كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشده ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتعذر عليها ان تنام على الظهر أو الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه فى ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا .. والآن دعونى أعمل ...

ومهما يكن من امر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدا هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة :

— فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ماخرجت الا لزيارته ..

وكأنما تذكر كمال بقولها امرا هاما انسيه طويلا فقال بدهشة

— كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟

ولكن أم حنفى قالت ببساطة :

— ومن ادرانا بما كان يحدث لها — والعياذ بالله — لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟ !

ولم تكن عائشة قد افاقت من اثر الصدمة فضاق صـدرها بالحديث وهتفت برجاء حار .

— آه يا ربى متى تنتهى كل شيء كأنه لم يكن ! ..

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

— ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟ ! لو رجعت بعد الزيارة الى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث !..

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :

— أرادت أن تتمشى فى الطريق وعبثا حاولت أن أثنيها عن ارادتها ..

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها امسكت اشفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسها « حسبنا مانحن فيه الآن » ..

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه :

— ينبغى أن أعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا ...

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة فى الفراش ، مسندة الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع فى كتف الفستان فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحته ، فهرعوا اليها ووقفوا

— الحمد لله ...

كم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنينا متواصلا ، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زايلها الآن الألم ، أو هكذا بدا ، وشعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن زوال حـدة الألم مكن لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر فى الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصرا زائغـا :

— ماعسى أن أقول لأبيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال - ساخرا متحديا - نسمات الطمانينة التى سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة ، على انه لم يجىء مفاجأة لوعيهم ، بل لعله اندس فى زحمة المشاعر الأليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامهـا بالخبر ولكنه ضاع فى زحمتها فتأجل حسابه الى حين » الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، ورأوا بحق انه اشد عليهم وعلى أمهم من الاصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء . وشعرت الأم - للصمت الذى قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب اذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شـاكية :

- سيعلم حتمـا بالحادث ، وسـيعلم اكثر من هذا بخـروجى الذى ادى اليه ..

ومع أن أم حنفى لم تكن دون أفراد الأسرة قلقا ولا أقل ادراكا لخطورة الموقف الا انها أرادت أن تقول كلمة طيبة ، تلطيفا للجو من ناحية ، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضى عليهـا - كخادم الأسرة القديمة الأمينة - بالا تلوذ عند الشدائد بالصمت ان يظن بها عدم اكتراث ، فقالت وهى أدرى ببعد قولها عن الواقع :

- اذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه الا أن يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ..

وقوبل قولها بالاهمـال الذى يستحقه عنـد قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا ان كمال آمن به ، وقال متحمسـا وكأنه يتم كلام أم حنفى ...

- خصوصا اذا قلنا له ان خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين ..

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت :

- ماعسى ان أقول له ؟

فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته :

- اى شيطان اضلنى حين نصحت لك بالخروج ، كلمـة جرت على لسانى وليتها ماجرت ، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا فى هذا المأزق الأليم ، على اننى أقول لك بأننا سنجد ما نقوله ، وأيا كان الأمر فلا ينبغى ان تشغلى فكرك بما سيكون ، دعى الأمر لله ، وحسبك ماقاسيت فى يومك من آلام ومخاوف ...

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الأم عطف المتألم لحالها ، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر الا أنه روح عن

شعوره الضيق بالحرج ، وافصح به فى نفس الوقت عمـا عساه يدور فى عقول بعض ــ او كل ــ من يقفون الى جانبه فاغناهم عن الافصاح عنه بانفسهم .اذ أن التجربة علمته بأنه احيانا ما يكون السبيل خير السـبيل للدفاع عن النفس هو فى الهجـوم عليهـا وان الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر ما يغرى الدفاع عنه بالغضب ، وكان آخوف ما يخـاف أن تنتهز خديجة الفرصـة السانحة لتحمله جهارا مسـئولية ما ادت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن تطالبه ــ بصفته المسئول الأول عما وقع ــ بأن يجد لهم مخرجا ، فلما أن القى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وانها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النقار لا الكراهة ، بذلك تحسن .موقفه بعض الشيء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة :

ــ لماذا لا ندعى أنها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها امها بوجه يتلهف على النجاة من اى سبيل ، وقلبته بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ، بيـد أن فهمى تساءل فى حيرة :

ــ والطبيب ؟ . سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل ابى بالضرورة ..

ولكن ياسين ابى ان يغلق الباب الذى تسللت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

ــ نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى !

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع فى الوجوه البشر للاحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشـمل القبة السماوية فى دقائق معدودات ثم تضيء الشمس ، قال ياسين وهو يتنهد :

ــ نجونا والحمد لله ..

فقالت خديجة بعد ان استعادت فى الجو الجديد نشاطها المألوف :

ــ بل نجوت انت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

ــ أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى بين حين وآخر لتلسعنى ..

ــ ولكنها هى التى انقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق ..

كادوا ينسون فى فرحة النجاة ان امهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة ، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى ..

— ٢٩ —

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرات خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة :

ــ نمت طويلا ...

فقالت عائشة :

ــ ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن ، يالها من ليلة لن انساها مهما امتد بى العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء ــ لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طوال الليل يبادلانها الألم والأرق ــ وتحركت شفتاها وهى تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

ــ شد ما اتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

ــ تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودى الى اوعابنا .. (ثم بنبرات قلبها التأثر) .. كيف هاجمك ذاك الألم المخيف ؟ ! .. لقد حسبتك استغرقت فى النوم وانت على أحسن حال ، واستلقيت لأنام بدورى ، واذا بى استيقظ على أنينك ، ثم لم تمسكى عن آه .. آه .. حتى مطلع الفجر ...

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

ــ على أي حال ابشرى ، لقد اخبرت فهمى عن حالك حين سألنى عن صحتك فى الصباح فقال لى ان الألم الذى انتابك دليل على أن العظم المكسور كان آخذا فى الالتئام ..

وجذبها اسم فهمى من لجة افكارها فتساءلت :

ــ ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجة :

ـ طبعا ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بانفسهم ولكنى لم اسمح لأحد بان يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا ..

فتنهدت الأم فى استسلام :

ـ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة .. فى اى وقت نحن الآن ؟ ...

فقالت خديجة :

ـ كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى ان تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فاذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ـ لعله الآن فى الطريق الى البيت ..

وادركتا من تعنى ، ومع انهما شعرتا بدبيب الخوف فى قلبيهما الا ان عائشة قالت بثقة :

ـ اهلا به وسهلا ، لا داعى للقلق ، اتفقنا على ما ينبغى ان يقال وانتهى الأمر ...

ولكن اقتراب عودته اشاع فى نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ـ ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

ـ ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ..

تمنت فى تلك الساعة لو بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعاها ، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سرا مغلقا الى الأبد .. الا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها الى الرجل ؟ . . كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدرى أى مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

ـ سيدى جاء يا ستى ...

وخفقت قلوبهن فى اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش فى وثبة واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الأم ...

ـ لا تتكلما أنتما فانى أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا لى القول والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب اطفالا فى الظلام

اذا قرع آذانهم وقع أقـدام من يظنونهم عفاريت يجوسون فى الخارج ، حتى ترامى اليهن وقع أقدام السيد على السلم وهى تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت ..

- اذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد أحدا ؟! ..

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة :

- اخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ..

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مسـتبقتين وغادرتاها وحيـدة ، ووجدت نفسـها وكأنها فى عـزلة عن العـالم كله فاستسلمت للمقادير » وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام فى سـلوكها - الاعـزل من كل سـلاح - كأسـلوب من اساليب الشجاعة السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك فى سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن فى أعماق شعورها معلنة عن ذاته بحـال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت « رحمتك يارب وعونك » ثم تطلع بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض ، ورأته وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف فى منتصف الحجرة وهو يتسـاءل بصوت خالته رقيقا على غير عادته :

- مالك ؟ ..

فقالت وهى تغض بصرها :

- حمد الله على سلامتك يا سيدى ، بخير ما دمت بخير ..

- لكن أم حنفى قالت لى انك مريضة ..

فاشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

- اصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوءا .

فتساءل الرجل وهو يتفرس فى كتفها باهتمام وقلق :

- ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصـلة ، ما عليها الا أن تتـكلم « أن تنطق بكذبة النجاة ، فتمـر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ، ورفعت عينيها وهى تتوثب ، فالتقت عيناها بعينيه « أو بالأحرى غابت عيناها فى عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمة ، هناك تبخر ما جمعته فى راسها من راى ، وانتثر ما كتلتـه فى ارادتها من عـزم « ورمشت عيناها فى اضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

ـ ماذا حدث يا آمينة ؟ !

لاتدرى ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات فى حكم اليقين انه لم يعد بوسعها أن تكذب ، أفلتت الفرصة دون أن تدرى كيف ، ولو انها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشـوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى اعادة خاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثوانى غاصت فى الارتباك والهزيمة حتى اشفت على اليأس ..

ـ لماذا لا تتكلمين ؟ ..

ها هى لهجته قد بدأت تنم عن نفاد صـبر ولا يبعد أن تقعقع قريبا بالغضب ، رباه لشد ماهى فى حاجة الى العون ، اى شيطان اغواها بتلك الخرجة المشئومة ..

ـ عجبا الا تريدين أن تتكلمى ؟ ! ..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهـر ...

ـ اخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتنى سيارة ..

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقـرون بالانكار .. وكأنه بات يشك فى صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهمنا تكن العواقب ، كمن يقدم ـ مغامرا بحياته ـ على اجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذلك شـعورها بفداحة الذنب وخطـورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن باخفاء نبراته الباكية اما لأنه غلبها على صوتها او لأنها ارادت أن تبذل محاولة يائسة لاسـتدرار العطف ..

ـ ظننت أن سـيدنا الحسين يدعونى الى زيارته فلبيت .. ذهبت للزيارة .. وفى طريق العودة صدمتنى سيارة .. قضاء الله ياسيدى .. ولقد نهضت من سـقطتى دون معاونة احد (قالت العبـارة الاخيرة بوضـوح) ولم اشـعر بادىء الأمر باى ألم فحسبتنى بخير وواصلت السـير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم فاحضروا لى الطبيب ففحص كتفى وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودنى يوما بعـد يوم حتى يجبر الـكسر ، لقد اخطأت خطأ كبيرا يا سـيدى وجوزيت عليـه بما أستحق .. والله غفور رحيم ..

انصت السيد اليها صامتا جامدا ، لم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد

فى وجهه اثر مما يعتلج فى صدره على حين تكسبت هى راسها فى تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاعت فى جوه القبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت من امره لا تدرى عن اى قضاء يتمخض ولا الى اى مصير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول فى هدوء غريب :

ـ وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟..

فالتفت راسها صوبه بذهول .. أجل توقعت كل شىء الا ان يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحة ما سمعت وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم فى البكاء ، ثم غمغمت فى ذل وانكسار :

ـ قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول :

ـ الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

— ٣٠ —

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق ، ثم لاحظتا احمرار عينيها من اثر البكاء ، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

ـ خير ان شاء الله ؟..

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكا :

ـ اعترفت له بالحقيقة ...

ـ الحقيقة !..

فقالت باستسلام :

ـ لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عنه الى الأبد ، وحسنا فعلت ...

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

ـ يا نهارنا الاسود ...

على حين بهتت عائشة فحملقت فى وجه أمها دون أن تنبس بكلمة ، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء ، وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها به حين لم تكن تتوقع الا غضبا كاسحا يعصف بها ويستقبلها .. أجل شعرت بزهو وحياء وهى تتهيأ للحديث عن عطف السيد عليها فى محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ كان بى رحيما أطال الله عمره ، أنصت الى قصتى صامتا ، ثم سألنى عن رأى الطبيب فى خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير على أن الزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى ..

وتبادلت الفتاتان النظرات فى دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهما الخوف سريعا فتنهدتا فى ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

ـ أرأيت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

ـ لكل شىء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال ، الآن عرفنا قيمتها عنده .. (ثم مخاطبة أمها فى دعابة) .. يالك من أم محظوظة ، هنيئا لك التكريم والعطف !

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

ـ أطال الله عمره .. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

ـ يجب أن تلحقى به لأنه سيحتاج الى خدمتك حتما ..

وشعرت الفتاة ـ لما يركبها فى محضر أبيها من الارتباك والاضطراب ـ كأنها وقعت فى شرك ، فقالت محتدة :

ـ ولماذا لا تذهب عائشة ؟ !

ولكن الأم قالت فى عتاب :

ـ أنت أقدر على خدمته ، لا تتلكئى يا شابة اذ ربما يكون فى حاجة اليك الآن ..

وكانت تعلم ان احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت الى أداء واجب ترى الأم انها أقدر عليه من اختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه فى أمثاله من المواقف ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التى تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها ، ثم لتحمل أمها على اعادة القول بأنها « أقدر

على كيت وكيت من عائشة » كاقرار من أمها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هى نفسها ، والحق انه لو حدث أن عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ، ولحالت بينها وبينه ، ما دامت تجد — فى أعماق قلبها — ان القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها فى البيت ، ولكنها ابت فى الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس — بالقيام بها — حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة ، حتى تدعى اليه — اذا دعيت — فى حرج من الداعى ، ولتحتج عليه — اذا احتجت — فى غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذى تود ؛ ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر !.. ولذلك غادرت الحجرة وهى تقول :

— فى كل مأزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد امامك غير خديجة . ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها أن تمثل بين يدى الرجل ، وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه اذا تلجلجت أو إبطأت أو اخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو فى حاجة اليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت الى الصالة فمكثت بها لتكون رهن اشارته اذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التى يقضيها فى البيت يوما بعد يوم حتى تنقضى الأسابيع الثلاثة ؟! .. وبدا لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذى تسده أمها فى البيت فدعت لها بالشفاء ، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة فى الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب الى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعا لذلك ان تبقى فى الصالة كالسجينة ، وفى أثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الأعلى وتسللت الى الصالة حيث تجلس أختها دون أن تحدث صوتا لتريها نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود الى أمها تاركة اياها وهى تغلى من الغيظ اذ كان مما يحنقها أشد الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وان لذ لها هى أن تعابث الجميع بمزاحها » ولم تسترد حريتها بـ

الى حين طبعا — الا عندما اسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت فى عينيه من آى العطف والتقدير لخدماتها !.. ولم تنس ان تعرج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبيانى ، ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغذاء ، ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليها أن تبعث له بياسين وفهمى بمجرد رجوعهما الى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز فى نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الآن — فى الشابين — متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمى وعلما بما كان ثم بلغا أمر أبيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى اليهما باهتمام ، وفى النهاية سألهما :

— أكنتما فى البيت حين خروجها ؟

ومع ان هذا السؤال كان متوقعا لهما من بادىء الأمر الا أنه وقع من نفسيهما — بعد الهدوء العجيب غير المنتظر — موقع الانزعاج فخافا ان يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التى ارتاحا اليها ارتياح النجاة » ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف فى السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذى استنتجه مقدما ، أو لعله اراد أن يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على أن يشير الى باب الحجرة اذنا لهما بالانصراف ، وعندما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه :

— ما دام الله لم يرزقنى رجالا فليهبنى الصبر .

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع الا انه لم يستطع ان يثنى ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية !.. فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، الا انه مر فى طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة .. لم تر فى ذهابه الى سهرته — وهى طريحة الفراش — تجافيا للعطف ، ولعلها وجدت فى مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت

تنتظر ؟ بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟.. وكان الاخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الأم أجابت قائلة « ولماذا يبقى بعد ان علم ان الحال مطمئنة ؟! » ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج اصيبت زوجه بما أصيبت هي به ، ولكنها كانت أدرى بطبعه فسبقت بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع أمكنها - مداراة لموقفها - ان تسوغ انطلاقه بالعذر الذى انتحلت لا بقلة الاكتراث ؟ ولكن خديجة قالت : « كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال ؟ » فأجابها ياسين : « لا عليه اذا فعل مادام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء » وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » ولم يكن ياسين يدافع عن ابيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته فى الانطلاق التى بدات تتحرك فى اعماقه ؟ الا ان مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق أنت مثلا ان تسهر فى قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها فى سره « طبعا لا ، ولكن أنا شىء وبابا شىء آخر ! » .

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذى يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :

- لعله رأى ان جزائى كفاف ذنبى فعفا عنى ، عفا الله عنه وعنا جميعا ..

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :

- ان رجالا غيورين مثله ، منهم أصدقاء له ، لا يرون بأسا فى السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجنا مؤبدا ؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته :

- لم لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه ؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلا :

- يلزمنى مثل انفك أولا كى أدافع به عن نفسى عند الضرورة ..

وتتابعت أيام الرقاد ، فلم يعاودها الألم الذى هصرها أول ليلة وان تهدد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها ، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التى تكره بطبعها السكون والقعود مما جعل الاذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى

عذابها على آلام الكسر ابان احتدامها ، ولعلها لولا تشـــدد الأبناء فى مراقبتهـا لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها .. على ان رقادها لم يمنعهما من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشـها ، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد اليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبـات التى تخاف عليها الاهمـال أو النسـيان » فتسأل وتلح فى السؤال « هل نفضت أعلى الستائر ؟.. وخصاص الشبابيك ؟.. هل بخرت الحمام لأبيك ؟... هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ » الأمر الذى أحنق خديجة مرة فقالت لها « اعلمى انك اذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فانى اعنى به أربعة وعشرين » .. والى هذا كله أورثها تخليها الاجبارى عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت ــ أو أحد من أهله ــ بتخليها عنه شـيئا من نظامه او راحته ؟! .. وايهما يا ترى أحب اليها ، ان يبقى كل شىء كما كان بفضل فتاتيها ــ غرس يديها ــ أم أن يختـل شىء من توازنه يكون خليقا أن يذكر الجميع بالفراغ الذى خلفتـه وراءها ؟! . وهب السـيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو اسخطه على ذنبها الذى جر هـذا كله ؟!.. تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتهـا المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها ، ولكن المحقق أنه لو اختل شىء من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ..

أما الواقع فهو ان فراغها لم يسده أحد ، واثبت البيت انه اكبر من الفتاتين على نشـاطهما واخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا حارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرا على الزوالها ..

- ٣١ -

وفى فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش فى خفة صبيانية من الفـرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفى ... ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التى انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفى ، واستيقظت المرأة وهى لا تصـدق أذنيها ، ثم نهضت الى سـيدتها فعانقتها ودعت لهـا ، ثم باشرا عمـل الصباح فى سرور لا يوصف ، وعند شروق أول شعاع الشمس صعدت الى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهانى والقبل ، ثم مضت الى حيث ينام كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص من ذراعيه برقة وهى تقول :

ـ الا تخاف ان ترد كتفى الى ما كان عليه ؟..

فامطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا فى خبث :

ـ متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

ـ عندما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى الى الطريق الذى كدت أهلك فيه ..!

وأدرك أنها تشير الى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع لهـا فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد ان ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذى باشره أخوته الى معرفة الجانى المستتر ، وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حينا وياسين حينا آخر أن تكشفه فى الركن المنزوى فيه لولا صمود أمه فى الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق الى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى ان يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، ومضت فى أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه فى الصباح ، وسـوف تنيمه فى المساء ، رجع كل شىء الى أصله ، ونشر الأمان ألويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وان يهنىء ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى اليها صوته وهو يردد فى صلاته « سبحان ربى العظيم » فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدت نفسها تتساءل « أتدخل لتصبح أو الأجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع فى نفسها من الخوف أو الخجل أو كليهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا ان يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضها ... ومضت الى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا ان قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التاجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما املت ولكن محنة انتظار اشد عناء من الموقف الذى نكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كانها كانت تهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وان السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم فى اثناء رقادها ، ولكن الحق ان برءها رفع عنها الحماية التى ضربها حولها المرض فشعرت بانها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها .. ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث ان دخل السيد الحجرة فى جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد فى وجهه أثر لدى رؤيتها ، وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه فى المائدة :

ــ جئت ..؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) .. اجلسوا ..

واخذوا فى تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد ، ومع ان الخوف تناهى بها حال دخوله الا انها مضت تسترد انفاسها بعد ذلك ، اى بعد ان تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذاك بانها لن تجد مشقة فى الانفراد به فى حجرته عما قليل .. وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرته ، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا فى انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه .. وحسا السيد قهوته فى صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث ، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم املا ـ ولو ضعيفا ـ فى ان يتعطف عليها بكلمة رقيقة ، او فى الأقل أن يلم بشان من شئون حديثه المعتاد فى مثل هذه الساعة من الصباح ، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى الا يزال بنفسه شىء ، واخذ القلق ينشب ابره فى قلبها مرة اخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر فى سرعة

وتركيز لم يذق معهما طعمـــا . لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحى الساعة ، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية ..
واخيرا تساءل دون ان يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :
ـ أاستردت صحتك ؟
فقالت امينة بصوت خفيض :
ـ الحمد لله يا سيدى ..
فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :
ـ انى أعجب ـ وهيهـات أن ينتهى لى عجب ـ كيف أقدمت على فعلتـك !

فدق قلبها بعنف واطرقت فى وجوم .. لم تكن تطيق غضبـه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فـكيف بها الآن وهى المذنبـة ! .. وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسـائلا فى استنكار :
ـ أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وانا لا ادرى ؟!
عند ذاك بسطت راحتيها فى جزع وألم وهمست بانفاس مضطربة :
ـ اعوذ بالله يا سـيدى ، ان خطئى كبير حقا ولكنى لا استحق هذا القول . .
ولكن الرجل واصل حديثـه بهدوئه الرهيب الذى يهون الى جانبه الزعيق قائلا :
ـ كيف اقترفت هـذا الخطأ الـكبير ! . . الأنى ابتعدت عن البـلد يوما واحدا ؟ !
فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :
ـ اخطأت يا سـيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيارة سـيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المبـاركة تشفع لى فى الخروج ولو مرة واحدة ..
فهز رأسه فى شىء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدال » ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :
ـ ليس عندى الا كلمة واحدة : غادرى بيتى بلا توان ..
هوى أمره على رأســـها كالضربة القاضـــية فبهتت لاتنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا ، طالمـا توقعت فى أشد أوقات محنتها ـ وهى تنتظر عودته من رحلة بور سعيد ـ ألوانا من المخاوف ، كأن يصب عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسـبابه ، حتى الضرب لم تستبعده ، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا ، لا لشىء الا انها سكنت الى معاشرته خمسة

وعشرين عاما فلم تتصور ان ثمة سببا يمكن ان يفرق بينهما أو ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ . . اما السيد فقد تخلص — بكلمته الأخيرة — من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية . . وقد بدأ الصراع فى اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفرش ، لم يصدق اذنيه لأول وهلة ، ثم اخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد انه اجل حنقه ريثما يرى ما اصابها ، او انه — وهو الأصدق — لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا انساه خطاها وسأل الله لها السلامة ، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد — يومذاك — الى حجرته محزونا مكتئبا وان لم يفصح وجهه . . لا امامها ولا أمام أحد من الأبناء — عن شىء مما يعتلج فى صدره . . الا انه مضى يستعيد طمانينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة . ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحادث كله — إسبابه ونتائجه — بعين جديدة او بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها فى بيته ، فكان من سوء الحظ — حظ الأم طبعا — ان يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، وإن يقتنع بانه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف — وهو ما نزعت اليه نفسه — فقد اضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فافلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التى يأبى الا ان يسوسها بالحزم والصرامة ، وبالجملة لن يكون فى تلك الحال احمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى ان يكونه ابدا . . اجل كان من سوء الحظ ان يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو اتيح له ان ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دون ان يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب فى وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها — بعد هدوء دام ثلاثة اسابيع — اذ ان هذا الغضب يكون أقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقى ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا فى حينه فقد وجب على الجانب المتعمد — وقد اتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير — أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا القلب الخطر الذى تهدد حياتها حينا والذى امنها من

غضبه بما اثار من عطفه اداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبر والتفكير . . ونهض مقطبا فولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء :

ـ سارتدى ملابسى بنفسى . .

كانت لم تزل متسمرة فى مكانها ذاهلة عما حولها فافاقت على صوته : وسرعان ما ادركت من قوله وبوقفته انه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب فى خطى لا وقع لها ، وقبل أن تجاوزه ادركها صوته وهو يقول :

ـ لا احب أن أجدك هنا اذا عدت ظهراً .

- ٣٢ -

خارت قواها فى الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردد فى باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟ ! ولم تستطع مبارحة مكانها ـ على رغبتها فى الفرار ـ أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم ان يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى اعمالهم متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر ـ لعله الحياء ـ اقعدها عن ان تلقاهم فى ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى يغادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة ترى ماذا يعنى ؟ . . أيطردها الى حين ام الى الأبد ؟ انها لا تصدق انه ينوى تطليقها . هو اكرم من هذا وانبل ، اجل انه غضوب جبار ولكن من الاسراف فى التشاؤم أن تغيب عنها أى شهامته ومروءته ورحمته ؛ وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟ . . وكيف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها ؟ . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب بيتا أو يكسر قلبا او ينزع أما من بين أبنائها . وجعلت تدير هذه الأفكار فى رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمانينة الى نفسها المزعزعة ، والحت فى هذا الحاحا ان دل على شىء فعلى أن الطمانينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدرى ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى

الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ المحذور . وترامى الى اذنيهما وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضى خارجا فاطار افكارها وانصتت باهتمام تتابعه حتى غاب . وشعرت عند ذاك بالم جارح لحالها وسخط على الارادة المنحجرة التى لم ترع لضعفها حقا ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند راس السلم اصوات الأبناء وهم ينزلون تباعا فمدت راسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمى وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ، هنالك غمزت خطرة من الحنان قلبها فاذهلته ، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون ان تودعهما ، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما أياما او أسابيع ؟ وربما لا تراهما مدى العمر الا لماما كالغرباء ؟ .. وعاودها غمز الحنان متتابعا وهى بموقفها من السلم لا تريم ، بيد ان قلبها — على امتلائه — كبر عليه ان يصدق ان يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور ، لايمانها اللانهائى بالله الذى حفظها فى وحدتها العابرة من العفاريت نفسها ، ولثقتها برجلها التى تأبى ان تنهار ، ولأنها لم يصبها فى حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمانينة الى الحياة الوادعة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون ان تنشب فيها ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكين فى جدال كعادتهما ولكنها نزعتها عما كانتا فيه حين راتا وجومها ونظرة عينيها الخابية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة فى قلق :

— ماذا بك يانينة ؟

— لا ادرى والله ماذا اقول .. انى ذاهبة ...

ومع ان العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محددة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا :

— الى اين ؟!

فقالت بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من اذنيهما بل ومن اذنيها هى نفسها :

— الى امى ..

فهرعتا اليها مذعورين وهما تقولان :

— ماذا تقولين ؟.. لا تعيدى هذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت فى فزع فتاتيها عزاء ولـكنه كشانه فى متل هذا الموقف فجر اشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها :

ـ لم ينس شيئا ولم يعف ؛ رددت هدا بأسى دل على عمق حزنها) . . كان يضـــمر لى الغضب ويؤجله ريثمـــا ابرأ ، ثم قال لى غادرى بيتى بلا توان ، وقال لى أيضا لا احب ان اجدك هنـــا اذا عدت ظهرا ؛ ثم بلهجة تنم عن عتاب اسيف وخيبة امل ؛ سمعا وطاعة .. سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

ـ لا أصدق ، لا أصدق ، قولى قولا آخر . . ماذا جرى للدنيا ؟ !

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

ـ لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟!

وعادت خديجة تتساءل فى حدة وحنق :

ـ ماذا يقصد !.. ماذا يقصد يا نينة ؟

ـ لا أدرى ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ..

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلهـــا رغبت بالاقتصـــار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولـكن غلبها الاشفاق من ناحيـــة والرغبة فى طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

ـ لا اظنـــه يقصد أكثر من ابعـــادى عنـــكم أياما عقـــابا لى على ما فرط منى ..

فتساءلت عائشة محتجة :

ـ اما كفاه ما وقع لك ؟ !

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

ـ الأمر لله .. يجب الآن ان أذهب ..

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

ـ لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا ..

وقالت عائشة برجاء :

ـ انتظرى حتى يعود فهمى وياسين ، ولن يرضى ابى أن ينتزعك من بيننا جميعا ..

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

ـ ليس من الحكمة فى شىء أن نتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان ..

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها اسكتتهما باشارة من يدها واستطردت قائلة :

ــ لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، ساجمع ثيابى وارحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى ان شاء الله . .

وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثانى والفتاتان فى أعقابها وهما تبكيان كالأطفال ، واخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى امسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

ــ ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتها أو تستسلم للبكاء الذى صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب ان اجمع ملابسى » ولكن خديجة قالت بحدة :

ــ لن تأخذى معك الا تغييرة واحدة . . واحدة فقط . .

فندت عنها تنهدة . ودت فى تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

ــ اخاف أن تثور ثائرته اذا رأى ملابسى بمكانها . .!

ــ سنحفظها عندنا . .

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت اختها فاذعنت الأم لهما فى ارتياح عميق كان بقاء ملابسها فى البيت مما يثبت لها حقا فى العودة اليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التى سمح لها بها ، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران فى حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

ــ سيعود كل شىء الى أصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، انى اعهد اليكما بالبيت وآله ولى كل الثقة فى كفاءتكما ، ولا شك عندى فى انك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتا وتعمره . .

ونهضت الى ملاءتها فارتدتها واسدلت على وجهها البرقع الأبيض فى تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم تواتِ احداهما الشجاعة على الارتماء فى حضنها كما تود ومرت الثوانى محملة بالعذاب والقلق بيد ان المرأة المتجلدة

خافت أن يخونهـا تجلدها فخطت خطوة نحوهمـا ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

ـ تشجيعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا فى البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

- ٣٣ -

طرقت باب البيت القـديم وهى تـفكر ـ بألم وحيـاء معا ـ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والـكدر ، وكان البـاب يفتح على عطفـة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهى بزاوية أقيمت بها الصـلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمهـا ولـكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها ـ كلما زارت أمها ـ بطفولتهـا حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود اليهـا ، وحين تمد راسها داخلهـا فى أويقات الصـلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حـين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيمـا يليها من العطفـة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار ولـما فتح البـاب أطل منه رأس جارية سوداء فى العقـد الخامس ، ما ان رات القـادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بهـا ، ثم تنحت جانبا لتوسع لهـا فدخلت أمينة ، ولبثت الخـادم بموقفها كأنهـا تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينـة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ـ أغلقي الباب يا صديقة ..

فتساءلت الجارية بدهشة :

ـ ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت ـ عابرة فناء البيت الذى تتصـدره حجرة الفرن وتقـع البئر فى ركنه الأيسر ـ الى سـلم ضيق فرقيته الى الدور الأول والأخـير . ثم اجتازت دهليزا الى حجرة أمها ودخلت ، رات أمها متربعـة على كنبة فى صـدر الحجرة الصـغيرة قابضـة بكلتا راحتيهـا على مسبحة طويلة متدلية فى حجرها ، متجهـة العينين صوب الباب فى تطلع اثاره بلا ريب طرق البـاب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

ـ من . . ؟

وافتر ثغرها وهى تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب ، كأنما حدست هوية القادم ، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

ـ أنا أمينة يا أمى . .

فألقت العجوز بساقيها الى الأرض وتحسست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة فى شوق فرمت امينة بالبقجة الى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعى امها وهى تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق ، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بوقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت امينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

ـ جئت وحدى يا أمى . .

فتحول الرأس اليها كالمتسائل ، وتمتمت المرأة :

ـ وحدك ؟!. . (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذى لا يتغير .!

وتراجعت الى الكنبة فجلست وهى تتساءل بلهجة افصحت هذه المرة عن قلقها :

ـ كيف الحال ؟ . . . لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداءة اجاباته فى الامتحان :

ـ انه غاضب على يا امى . .

ورمشت الأم واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى لا يكذبنى أبدا ، وقد انقبض وانت تقولين لى « جئت وحدى يا أمى » ترى ماذا هيج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قبله ؟! . . خبرينى يا بنتى . .

فقالت امينة متنهدة :

ـ زرت سيدنا الحسين فى اثناء سفره الى بور سعيد .!.

فتفكرت الأم فى حزن وكآبة ثم تساءلت :

ـ وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرصت أمينة من بادىء الأمر على الا تشير الى حادث السيارة

وحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسئولية من ناحية اخرى . ولهذا اجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :

ـ لعل أحدا رآنى فوشى بى عنده ..

فقالت العجوز بحدة :

ـ لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بينك . الم تشكى فى أحد ؟ .. هذه المرأة أم حنفى ؟! او ابنه من المرأة الأخرى ؟

فبادرتها امينة قائلة بثقة ويقين :

ـ لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى ما تشائين الا الشك فى أحد من اهل بيتى ..

فهزت العجوز رأسها فى حيرة وشك وانشأت تقول :

ـ طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده المطلع وهو الكفيل يرد كيد الكائد ، ولكن زوجك ! ... الرجل العاقل .. الداخل على الخمسين .. الم يجد وسيلة لاعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين أولاده ؟! .. سبحانك يارب . الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور ، هل من الكفر ان تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين ! .. الا يسمح أصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض ؟ ! .. أبوك نفسه الذى كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لى فى الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل ..

وغلب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

ـ أى شىء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء ؟! .. لشد ما يحيرنى هذا .. اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد ، اليس كذلك يا ابنتى ؟ .. أعجب شىء اننى لم أجدك يوما فى حاجة الى نصح ناصح .. ؟!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمغمت :

ـ تحكم الشيطان !

ـ عليه لعنة الله ، أيزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوئام والسلام ! .. ولكنه هو الذى أخرج ابانا آدم وأمنا حواء من الجنة ! .. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع

ويعود كل شيء الى أصله .. (ثم وهي كانها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو اســـتوصى بالحلم ؟! .. ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفي عين الشـــمس .. (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعى ملابسك واستريحى ، لا تجزعى ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع امك فى الحجرة التى والدت فيها ؟!

فجرى بصرها فى غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت أطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها — لما وان عليه من فرقة الأحباب — لم يكن مهيئا لتلقى موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها فى قلبها الحنان الذى تهيجه عادة ذكرياتها المتباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم يسعها الا ان تتنهد قائلة :

— ما بى الا القلق على الأولاد يا أمى ..

— انهم فى رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم ..

وقامت امينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة — حزينة اسيفة لما سمعت . من موقفها عند مدخل الحجرة الذى لزمته اثناء الحديث ، ثم عادت المراة الى مجلسها جنب امها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكان فى تقابلهما جنبا لجنب ما يدعو الى تامل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كانهما شخص واحد وصورته المنعكسة فى مرآة المستقبل او نفس الشخص وصورته المنعكسة فى مرآة الماضى وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التى تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذى يدفع الى التغير والنهاية من ناحية اخرى ، ذلك الصراع الذى ينجلى عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصاراها أن تؤدى وظيفة متواضعة فى نطاق قانون الزمن الصارم . فى نطاق ذلك القانون استحالت الأم العجوز جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أى السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين والراس المرصع بالبياض . بيد انها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين يقعدها عن أن تنهض فى الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها — بدون ارشاد الجارية — الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى

حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها فى التسبيح والتأمل الصامت الذى لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التى تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال : مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكئها اذا تلكأت فى مهمة ، وتأخيرها اذا تأخرت فى مشوار ، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والأوانى وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة اشبه ، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت فى صدر الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء فى بيتها فى شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش فى رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميها ما عسى أن تلقى فى البيت الجديد من اهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من القاء اعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزج بنفسها فى بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهى لا تدرى الى ملاحاته الأمر الذى تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، وأخيرا لما تنطوى عليه فى قرارة نفسها من حياء وكبرياء حببا اليها الحياة فى البيت الذى تملك معتمدة — بعد الله — على المعاش الذى تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة أسبابا أخرى لاصرارها على البقاء فى بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة ، كخوفها — اذا أخلت البيت — من أن تجد نفسها مضطرة الى اختيار أمر من اثنين ، فاما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شىء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، واما أن تتركه مهجورا فتتخذه العفاريت ملعبا بعد أن ظل طوال عمره مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ؛ الا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض فى نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك اتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن

معاشها لقاء اقامتها فى بيته وهو ما يقلق غريزتها فى الامتلاك التى اضحت — مع الكبر — عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟!

بل قد توهمت احيانا عند الحاحه عليها فى الانتقال الى بيته انه يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذى سيخلو بعد انتقالها ففزعت الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح « لا تؤاخذنى باصرارى يا ابنى ، ربنا يكرمك بما اوليتنى من عطف ، الا ترى انه لا يسعنى ان اهجر بيتى ؟ . . وما اجدرك أن تجارى عجوزا مثلى على علاتها بيد انى استحلفك بالله الا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجى من البيت متعذرا » وهكذا بقيت فى بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضى العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالاة الشاذة فى الاهتمام بشئون البيت والمال » مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالى مما يبدو كعارض من اعراض الهرم الانتكاسية ، فثمة عادة اخرى مما حافظت عليه جديرة بان تزين الشباب » وبأن تضفى على الشيخوخة جلالا ، تلك هى العبادة ، كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة فى كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغلت فى اعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى » وظلت تمارسها بحب واخلاص غير مفرقة فى اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التى عرفتها بخيرها وشرها ، فربما قالت لها على اثر مشادة مما ينشب بينهما « يا ستى أليست العبادة اولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الأمور ! ؟ » فتجيبها محتدة « ياللئيمة انك لاتوصيننى بالعبادة حبا فيها ولكن كى يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب » ان الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب ! » ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله فى صدريهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجعة فقالت :

— ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك

لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، اجل لن يحيق سوء بمن كان لها اب كأبيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمينة بذكر ابيها وجدها كما يبتل صدر المنقطع به الطريق فى الظلماء اذا ترامى اليه صوت الغفير وهو يهتف « هوه » فآمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب . ولكن لايمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من امها فى جسمها وايمانها وجل طباعها . وانثالت على وجدانها فى تلك اللحظة ذكريات أبيها الذى أفعم قلبها وليدة بالحب والايمان فدعت الله ان ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة رقيقة :

— ان الله يرعاك دائما برحمته ، أذكرى عهد الوباء لا ارجعه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى اخواتك ولم يمسسك سوء !

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت ، وتفرست فى غبش من الماضى كاد يمحوه النسيان فوضحت — بعض الوضوح — من خليط الذكريات صور احييت فى نفسها أصداء من عهد الرعب ، وهى صبية تحجل خارج أبواب غلقت على اخوات مستلقيات على اسرة المرض والموت ، وهى وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها ، أو وهى تسمع الى جماهير من الشعب التقت فى ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين — كما كان يتفق لأبيها — وراحت تجار بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك اخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صفوها الا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين فى اليوم ، واستطردت الأم بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال فى الاحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالى فاستعادت حياته وذكرياته — العزيزة الغالية لاقترانها بالشباب — خالصة من شوائب الألم المنسى ، فقالت :

— ولم يقنع حظك السعيد بانقاذك من الوباء لكنه ابقاك وحيدة الأسرة وكل ما لها فى الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت فى صميم قلوبنا .

لم تعد امينة ترى الحجرة — بعد هذا الخطاب — كما كانت تراها قبله ، بعثت جدة الشباب فى كل شيء ، فى الجدران والسجادة والسرير ، فى امها وفيها هى نفسها ، ورد أبوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ،

وعادت تصغى الى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار الى عرابى باشا والانجليز » بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعاداتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية :

ـ اليس الله حافظك وراعيك ؟ !

بيد أن هذا القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضى السعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالى الى اجترار احزانه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب امها فى حال من الفراغ الصارم لم تعهدها الا حين مرضها فانكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها الا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخر مرعى للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك ! » ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك ان تسرق المرأة او أن تلتزم الأمانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيفة من ناحية ولأنها من ناحية اخرى الفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لانه فى ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغداء والقيلولة ، ثم يرجع الأبناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فوات بخيالها الذى استمد من الألم والحنين قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود » رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا » هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من اثر فى البيت ، والم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر ؟.. وها هم الأبناء عائدون وها هم يهزعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا ، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة » ترى كيف يتلقى فهمى الخبر ، وهل يدرك كمال ـ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ـ معنى غيابها ؟ أيتشاورون طويلا ؟.. ماذا ينتظرون ؟.. لعلهم فى الطريق يستبقون اليها .. يجب أن يكونوا فى الطريق » أم يكون قد أصدر أمرا بعدم زيارتها ؟ يجب أن يكونوا فى الخرنفش .. سترى عما قليل ..

ـ أتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت اليهـا فى دهشة ممزوجة بالحيـاء ، اذ فطنت الى أن كلمـات ـ من حديثها البـاطنى مع نفسها ـ قد تسللت فى غفلة منهـا الى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته أذن أمها المرهفة فلم تر بدا من أن تجيبها قائلة :

ـ انى أتساءل يا أمى ألا يجىء الأولاد لزيارتى ؟

ـ أظنهم جاءوا .. !

قالت العجوز هذا وهى ترهف السمع مادة رأسها الى الأمام فانصتت أمينـة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة البـاب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقـة كأنها صوت يبعث فى لهفة بصرخات اسـتغاثة حارة فعرفت وراء هـذه الضربات العصبية قبضة كمال الصـغيرة كما كانت تعرفها وهى تدق عليها باب حجرة الفرن ، وسرعان ما هرعت الى رأس السلم وهى تنادى صديقة لتفتح البـاب ، ثم اطلت من فوق الدرابزين فرأت الغـلام وهو يثب فوق درجات السـلم وفى أثره فهمى وياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها قليلا عن عنـاق الآخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون فى وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون ، ولمـا رأوا الجدة واقفـة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام الى حين واقبلوا عليها تبـاعا فساد صمت نسبى تخللته همسات القبـل المتبادلة وأخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ـ نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه .

وآوى كمال الى حجرها كالهـارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيته التى طوى صدره عليها فى البيت وفى الطريق :

ـ سأبقى هنا مع نينة .. لن أعود معكما ..

اما فهمى فقد رنا اليهـا طويلا صامتا ، كشـأنه اذا أراد أن يحدثها بالنظر ، فوجدت فى نظرته الصامتة خير معبر عمـا يعتلج فى صدريهما معا . هذا الحبيب الذى لا يفوق حبه الها الا حبهـا له ، والذى يندر أن يشير فى أحاديثه معها الى عواطفه ولـكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعـاله ، وقد قرأ الفتى فى عينيها نظرة تدل على الألم والخجل فاشـتد تأثره وقال بحزن وتألم :

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها أنت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الأم فى ارتباك وقالت :

ــ لست طفلة يا فهمى ، وما كان ينبغى لى أن افعل ..

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة فى التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى الى لغة أخرى قائلا :

ــ أجل ، نحن المذنبون وأنت المتهمة . (ثم ضاغطا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التى تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها ، وانهال عليها بسيل من الأسئلة ، عن معنى مغادرتها للبيت ، وكم تطول اقامتها فى بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع منها جوابا واحدا حقيقيا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع فى تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى ، ذلك العزم الذى كان اول من يرتاب فى قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لانه ــ كما قال فهمى ــ « لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغى ان نتساءل عما سيكون » وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا « ان رجلا كأبينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج امنا مرا كريما ، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الرأى مقنعا لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمى مفصحا عن اقتناعه ومرجوء معا « والدليل على صحة رايك انه لم يقدم على فعل شىء آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا عن « قلب » ابيهم فاتفقت كلمتهم على انه قلب خير رغم ثورته وحدته وان أبعد شىء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسىء الى السمعة أو يؤذى أحدا وعند ذاك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

ــ لو كنتم رجالا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب ابيكم ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومة التى تذوب لدى ذكر أبيهم ، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث

بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالاشارة ـ وهى تردد يدها بين كتفها وامها ـ انها اخفت عنها الأمر . ثم قالت تخاطب امها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشابين :

ـ لا أحب ان يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو . .

وهنا تساءل كمال :

ـ ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها الى فوق وهى تغمغم « ربنا عنده العفو » .

وكالمألوف فى مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق نه قوله بنفس الألفاظ او بالفاظ جديدة من ايثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة اعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة فى عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم فى كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « اظن ان لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، وأصوات قبل وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها فى التسليم فى جو مشبع بالحزن والفتور ، وأخيرا أخذت الأقدام تبتعد تاركة اياها فى وحدة وشجن . .

وعادت قدما امينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت فى قلق حتى هتفت بها :

ـ اتبكين ؟! . . يا لك من عبيطة ! . . كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين فى حضن أمك ! . .

— ٣٤ —

بدت خديجة وعائشة اضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما الذى يشاركهما فيه الأخوة تحملتا وحدهما اعباء البيت وخدمة الأب بيد أن اعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، اما خدمة الأب فهى التى عملا لها الف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة ابيها معتلة بان خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته فى اثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثب من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأم قالت خديجة « ينبغى الا تطول هذه الحال ، ان الحياة بدونها فى هذا البيت عناء لا يطاق » فامنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة فى وسعها غير الدموع فذرفتها ، وانتظرت عودة اخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل ان تلفظ كلمة مما يدور فى نفسها راحوا يحدثون عن حال امهم فى « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :

— اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الأيام والأسابيع وهى مبعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن ، اجل ان مخاطبة بابا فى هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست اشق من السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى أن نجد طريقة .. ينبغى أن نتكلم ..

ومع أن صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا انه قصد بها — كما فهم بالبداهة — شخصا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على احد ، بيد ان خديجة واصلت حديثها قائلة :

— لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض لنا من أمور بايسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لأى واحد منا ، فمن الانصاف أن نتحمل نفس التضحية من اجل خاطرها . . .

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذى اخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح فيه ان ينتهى به الكلام الى ان يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما

لانتظار ما يجىء به النقاش كما يستسلم الفار للهرة . وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :

ـ انت اخونا الأكبر والى هذا فانت موظف . اى رجل كامل . فانت اجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بانامله فى ارتبـــاك ظاهر وتمتم قائلا :

ـ والدنا رجل نارى الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه ، وانا من ناحيتى لم أعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين . واخوف ما اخاف ان ينفجر فى غاضبا فيفلت منى زمام نفسى ويثور غضبى بدوره !

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوترة وانفسهم المحزونة فابتسموا . وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجههـا فى كفيها ، ولعــــل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتســـام كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانا عنــــد اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لاتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال باضدادها ، ذلك انهم عدوا قوله نوعا من الدعابة الجـدير بالضحك والسخرية ، وكان هـو أول من يعلم بعجزه التــام عن مجرد التفكير فى الغضب أو المقـاومة حيــال والده وأول من يعلم انه قال ما قال فرارا من مواجهــة أبيه واتقـاء لسخطه ، فلمــــا رأى هزءهم لم يسعه الا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعونى وشأنى » . فهمى وحده بدأ متحفظا فى ابتســـامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبـل أن تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره اذ اعرضت خديجة عن ياسين فى ازدراء ويأس وخاطبتــــه قائلة برجاء واشــفاق :

ـ فهمى ... انت رجلنا .. !

فرفع حاجبيه فى ارتبـــاك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لهـــا « انت ادرى بالعواقب! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها احد فى الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو اكبرهم عقلا وانفذهم رأيا ، وله من ضــبط النفس فى المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولـكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه اذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء . وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بايماءة من راسها فقال متحيرا :

ـ هل ترينــــه يقبل رجائى ؟ .. كلا .. ولـكنه سينتهرنى قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » .. هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الى كلاما اشد واقسى .. !

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دفاعا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل راى أخيه :

ـ وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على انفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها !

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية :

ـ لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة « حب البقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

ـ فلنفكر فى الأمر بعناية شاملة .. لا اظنه يقبل لى او لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين فى الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدنا للدفاع عنها ، أما اذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح فى استعطافه او لعلها تجد ـ على اسوأ الظنون ـ اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟ .. أنت مثلا يا خديجة !؟

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت فى الشرك وحدجت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

ـ ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى :

ـ العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى ، ولا ننسى أنكما لم تتعرضا لغضبه طوال حياتكما الا فى النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا !..

فأطرقت خديجة متفكرة فى قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة فى قرعتها فرفعت راسها قائلة :

ـ اذا كان الأمر كما تقول فعائشة اخلق منى بالكلام !

ـ انا !.. لم ؟!

نطقت بها عائشة فى فزع من وجد نفسه بغتة فى مرمى الخطر بعد ان اطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شىء خاصة وانها ـ لحداثة سنها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها ـ لم تكن تندب لشىء هام فضلا عن اخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم ، الا

ان خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد انها اصرت عليه فى عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

ـ لأنه ينبغى الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك فى انجاح مسعانا !

ـ وما دخل شعرى وعينى فى مواجهة ابى ؟

لم تكن خديجة تهتم فى تلك اللحظة بالاقناع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعابثة اشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من اسلم السبل الممكنة كمن يقع فى مأزق حرج وتعوزه الحجة فى الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مفرا فى ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

ـ أعرف لهما تأثيرا ساحرا فى كل من يتصل بك ، ياسين . . فهمى . . حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى ؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

ـ كيف أخاطبه فى هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما فى رأسى ؟ !

عند ذاك ـ وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ـ لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت أول دافع اليه ، حيث أن الانسان يركز تفكيره فى النجاة عند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها فى العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء التى أهملت الى حين ، وكأن خديجة أرادت أن تتخفف من هذا الاحساس فقالت :

ـ ما دمنا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست أم مريم . .

وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة فى نظرة لم يرتح الشاب لايحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمى منذ نبذت فكرة خطبتها ، اما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها فى زمرة المحرمات التى لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، بالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة

بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب .. ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض :

ـ هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذي يستطيع ان يرجو والده ليعيد اليه أمه !..

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد ان قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية ، فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون ان يجمع عزمه على رأي ، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه ، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه . فضلا عن مخاطبته أو التوسل اليه ، لم يكن يتصور انه يستطيع ان يقف بين يديه محادثا في هذا الأمر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف الغضبية بأن تحيق به لو فعل ، ولم يصمم على شيء الا انه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع الى ارضاء قلبه المعذب ولو ارضاء عقيما ـ كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأي ، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعا وهو يغرق في الضحك كذلك ، فأذهلته المفاجأة ، فتسمر في مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكار ودهشة لا توصفان ، لم يصدق عينيه وخيل اليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيه ـ شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ، ويغرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس ، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت أساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه .

ــ ماذا جاء بك ؟!

والحال دبت فى أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ــ رغم ذهوله ــ فتقدم من أبيــه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليهــا حتى لثمها فى أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :

ــ أتريد شيئا ؟!

فازدرد كمال ريقــه وهو لا يجــد ما يتلفظ به الا ان يقول مؤثرا السلامة « انه لا يريد شيئا وانه كان فى طريقه الى البيت » ولـكن السيد استبطأه فلاح فى وجهه الضيق وقال بخشونة :

ــ لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد ..

ونفذت خشــونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقــد لسانه فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الأب ضيقا وهتف بحدة :

ــ تكلم ... هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها فى ارادة واحدة وهى أن يخرج من صــمته بأى ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

ــ كنت عائدا من المدرسة الى البيت ..

ــ وماذا اوقفك هنا كالمعتوه ؟!

ــ رأيت .. رأيت حضرتك فأردت أن اقبل يدك ..!

فتجلت فى عينى السيد نظرة استزابة ، وقال بجفاء وتهكم :

ــ اهذا كل ما هنالك !.. اوحشتك لهذا الحد ! الم تستطع ان تنتظر الى الصــباح لتقبل يدى اذا أردت ؟! .. اســمع .. اياك وان تكون قد عملت عملة فى المدرسة ... سأعرف كل شىء ... فقال كمال بسرعة واضطراب :

ــ لم أعمل شيئا وحياة ربنا ..

فقال الرجل بنفاد صبر :

ــ اذن تفضل .. ضيعت وقتى بلا مناسبة .. غر من وجهى ..

فغــادر كمال موقفــه لا يكاد يرى موضع قدميه من الاضطراب ؛ وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولـكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عينى أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شــعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة :

ــ رجع نينه الله يخليك ...

وأطلق ساقيه للريح ..

— ٣٥ —

كان السيد يحتسى قهوة العصر فى حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

ــ جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك . .

فتساءل السيد متعجبا :

ــ حرم السيد محمد رضوان ؟. ماذا تريد ؟. .

فقالت خديجة :

ــ لا اعرف يا بابا . .

فأمرها بادخالها وهو لا يمسك عن التعجب . ومع ان مجىء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ــ لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه ــ لم يكن مع ندرته بالجديد عليه الا أنه استبعد ان يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن اى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن ان يتعدى دائرة اسرته وبين هذه الزيارة ؟! ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال ان تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات ، ثم لم يغد يطرق بابه الا فى الأعياد ، على ان ست ام مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر انها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة اخرى التقى بها عند باب بيته اذ صادف خروجه قدومها الزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة « مساء الخير يا سى السيد » ، اجل علمه اختلاطه بالأصدقاء ان بينهم من يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة ، فلا يرون بأسا من ان تخرج نساؤهم للزيارة او للاستبضاع ، ولا يجدون حرجا فى توجيه تحية بريئة كالتى وجهتها ام مريم اليه ، ولم يكن ــ رغم حنبليته ــ بالذى يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسىء الظن حتى ببعض الأعيان من اصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العربات للتنزه فى الخلوات أو لغشيان الملاهى البريئة مكتفيا فى مثل

هـذه الحال بترديد قوله : « لكم دينكم ولى دين » ، أى انه لا ينزع الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقا أعمى ، الى أنه يحسن التمييز حقـا بين ما هو خـير وما هو شر ، الا أنه لا يفتح صدره لـكل « ما هو خـير » ضالعا فى ذلك مع طبيعته التقليـدية الصارمة حتى انه عد زيارة زوجه للحسـين جريمة قضى فيهـا بأقسى عقوبة أصدرها فى حيـاته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بمـا ينبه الانزعاج دون أن يسىء بأخلاقها الظن . وسـمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذره بالدخول ؛ ثم دخلت ملتفـة فى ملاءتها ، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبيـة عينين مكحولتين دعجـاوين وتدانت منـه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

— أهلا وسهلا ، شرفت البيت وأهله .

فمدت له يدها بعد أن لفتها فى طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت :

— ربنا يشرف قدرك يا سى السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

— كيف حال السيد محمد ؟ ..

فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها :

— الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعا ..

فهز السيد رأسه كالآسف وتمتم :

— ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية ..

واعقب حديث المجـاملات صمت قصـير فأخذت السـيدة تتهيأ للحديث الجدى الذى جاءت من أجله كما يتهيأ المطرب للغنـاء بعد الفراغ من عزف المقـدمة الموسيقية على حين غض السـيد بصره تحشما تاركا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

— يا سـيد أحمد ، أنت فى المروءة مثـل يضرب فى الحى كله ، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك .

فتمتم السيد بصوت حيى وهو يتساءل فى نفسـه « ترى ما وراء هذا كله ؟! .. » :

— استغفر الله ..

— المسألة أننى جئت الساعة لأزور أختى ست أم فهمى فما هالنى الا أن أعلم بأنها ليست موجودة فى بيتها وأنك غاضب عليها ..

وامسست المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأى السيد فيه ، ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح الى فتح هذا الموضوع الا أن ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه ..

ــ هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى ؟!.. ست العقل والحياء ، جارة عشرين عاما وأكثر ، لم نسمع خلالها منها الا ما يسر الخاطر ، فما عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك ؟!..

فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه .. ترى أجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقا أم أنها استدعيت بتدبير مدبر ؟!.. خديجة ؟.. عائشة ؟ .. أمينة نفسها لا .. انهم لا يملون الدفاع عن أمهم ، هل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ فى وجهه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذى عرضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه ؟!

ــ يا لها من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا ... ويا لك من سيد كريم لا يليق به العنف ؛ ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله ، وما أجدر نبلك بافساد كيده ..

وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد :

ــ ربنا يصلح الحال ..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح فى استدراجه الى الكلام :

ــ لشد ما يعز على أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذاك العمر الطويل من الستر والكرامة ..

ــ ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شىء ميعاد ..

ــ أنت أخى ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة ..

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهى تقول « أنت أخى » أن صوتها رق وعذب ، فلما قالت « بل أعز من الأخ » جهر الصوت بحنان دافىء نشر فى الجو المحتشم نفحة طيبة ، فتعجب وتساءل ، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك فرفعه مستأنيا ... واسترق الى وجهها النظر فوجدها ــ على غير ما توقع ــ تتطلع اليه بعينيها الدعجاوين ، فجناش صدره وخفض بصره مستعجلا بين

الدهشة والحرج ثم قال مواصلا الحديث كى يغطى على تأثيره :

ــ اشكرك على ما أوليتنى من اخوة ..

وعاد يتساءل ترى أكانت تتطلع اليــه هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره اليها تطلعها اليه ؟.. وما القول فى انها لم تغض بصرها عنـد التقاء العينين ؟ .. ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه ان ولعــه بالنســاء وخبرته بمعاشرتهن أرهفا حاسة سوء الظن بهن عنــده ، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوره ، أو لعــل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان طبعا وسجية فيظنــه من لا يعرفهن غزلا وما هو بالغزل . ولكى يتحقق من صدق رايه ــ لأنه لم تزل ثمة حاجة الى التحقق ــ رفع بصره مرة أخرى فما هاله الا أن يراها رانية اليه ، فتشجع هــذه المرة وثبت عليهــا عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره فى حيرة شاملة ، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

ــ سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقا أثيرة عندك ..

أثيرة ؟!.. لو قيلت هذه الكلمة فى غير هــذا الجو المشبع بالحســاسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثرا ، أما الآن ؟! .. وعاود النظر فى غير قليــل من الحرج فقرأ فى عينيهــا بعض المعانى التى عابثت ظنونه ، هل صــدق احســاسه ؟ وهل يمكن هــذا حال استشفاعها لزوجه ؟.. ولــكن كيف يعجب من كان فى مثل خبرته بالنســاء ؟ .. سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت فى وجدانه وثبات بهيجـــة ملأته حرارة وزهوا ، ولــكن متى نشأت هذه العاطفة ؟، أهى قديمة وكانت تتحين الفرص ؟.. ألم تزر دكانه مرة فلم ينــد عنها ما يريب .. ولــكن الدكان ليست بالمكان الذى تطمئن مثلها اليــه فى بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيــــد كما فعلت زبيــدة العالمة ، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة الســانحة فى الغرفة الخالية ؟.. لو صح هــذا فهى « زبيدة » أخرى فى لباس ســيدة مصونة ، وليس غريبا أن يجهل أمرها ــ وهو العليم ببنــات الهوى ــ ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراما مثاليــا ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟ . . « أنت آثر عندى مما تظنين ؟.. » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيــــه تحية استجابة لدعائها ، كلا انه لا يريد هــذا ، انه يأباه كل الاباء ، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة ، ولــكن لأنه لا يقبــل بحال أن يحيد عن مبــادئه فى تقديس الأعراض عامة ، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا

لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن ان يخزى بها أمام صديق أو جار او احد من الأطهار على افراطه فى العشق والصبوات ، ولم يزل دأبه ان يخاف الله فى لهوه كما يخافه فى جده فلا يبيح لنفسه الا ما يراه مباحا أو فى حدود الهفوات . لا يعنى هذا انه أوتى ارادة خارقة تعصمه من الاهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبذول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى انه لم يتعمد النظر الى وجه امراة من حيه طوال عمره ، على انه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعوه الى لقاء أخت ذاك الرجل ـ ارملة نصف ـ فى ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت اول تجربة ـ عرضت لمبادئه ـ يكابدها بعينيه ، ومع انها اعجبته الا انه لم يستجب لنوازع الهوى ، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن مواطن المؤاخذة ، كأن هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا فى نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للاخوان لا تزايله حتى فى مغانى اللهو والشهوات فلم يؤخذ عليه ابدا انه سطا على مخلية صاحب أو طمح بطرف الى خليلة صديق ، مؤثرا الصداقة على الأهواء ، لأنه كما اعتاد أن يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته واحيانا يستأذن الخليل القديم قبل أن يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق فى سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه أحن النفوس . بمعنى آخر انه نجح فى التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادىء العالية توفيقا ائتلافيا يجمعهما فى وحدة منسجمة لا يطغى احد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة فى يسر وارتياح ، كما وفق من قبل فى الجمع بين التدين والغواية فى وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا ، غير انه لم يكن يصدر فى وفائه عن اخلاص مجرد للأخلاق ولكن ـ الى هذا أو قبل هذا ـ عن رغبته التليدة فى أن يظل حائزا للحب متمتعا بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة فى العشق هونت عليه الاعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة ، وفضلا عن هذا وذاك فانه لم

يعرف الحب الحقيقى الذى كان خليقا بان يدفعه الى احدى اثنتين : فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء ، واما الوقوع فى ازمة عاطفية خلقيــة حادة لم يقدر عليــه الاكتواء بنــارها . فلم يكن يرى فى أم مريم الا صــنفا لذيذا من الطعام لن يضيره - اذا هدده تنــاوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه الى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفــل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

- شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب ..

فقامت المرأة وهى تقول :

- ربنا يكرمك يا سى السيد ..

ومدت له يدا بضة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيل اليه - وهى تسلم - أنها ضغطت قليــلا على يده ، وجعل يتساءل أهــــذه طريقتها المعتادة فى التسليم أم أنهــا تعمدت الضغط على يده ، وحاول أن يتــذكر كيفية تســليمها عند اســتقبالها ولكن الذاكرة لم تســعفه ، وقضى أكثر الوقت الذى ســبق عودته الى الدكان وهو يفكر فى المرأة ، حديثهـــا ، ولينها ، وتسليمها ...

- ٣٦ -

تيزه حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :

- لمــــاذا ؟!

ولــكن أعلنت نبراته الغاضــبة ونظراته الثــائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لمــــاذا » وكأنه أراد أن يقول لهــا « لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم ، من قال لك أن هذه الحيل تجوز على ؟.. وكيف تجسرين أنت واخوتك على المكر بى ؟ »

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :

- لا أدرى والله ..

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وأدرى أنا أيضــا ولن يجرك مكرك الا الى أوخم العواقب » ثم قال ساخطا :

- خليها تتفضــــل ، لن أشرب قهوتى براحة بال بعــد الآن ، أصبح حجرتى محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هى الراحة التى أجدها فى بيتى ، لعنة الله عليكم أجمعين !..

اختفت خديجة قبل ان يتم كلامه كما يختفى الفار اذا قرعت سمعه درقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حانقا ، حتى خطرت على ذهنه صورة خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صدره عطفا ، يا لهم من اطفال يأبون ان ينسوا امهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب — وهو فى بيته — لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق ، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها احد من النساء اللاتى يترددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم شوكت من قبل ، أسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تزل أرملته عنده — وعند أسرته بالتبعية — بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ، وتلقت ابناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله فآل شوكت اناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركى فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصورين ، فاذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من اهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج ، فليست هى بالتى تلتزم الاحترام فى مخاطبته ، ولا بالتى تتعب فى استعطافه ، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معا ، أجل ليست هى ..

وأمسك عن افكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

— أهلا وسهلا ، زارنا النبى ..

اقتربت منه سيدة طاعنة فى السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهى تقول :

— من يعش ير ، حتى أنت يا زين الرجال ! . . وحتى هذا البيت

تحدث فيه هـذه الأمور التى لا يطيب التحـدث عنها ! .. شخت ورب الحسين وبادرك الخرف ..

واسترسلت فى الكلام مطلقـة العنان للسانها يقول ويعيـد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتهـا أو التعقيب عليها ، حدثتـه كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجه « ظننت بادىء الأمر أنها خرجت فى زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث للدنيـا ؟! .. وكيف سمح لهـا السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الالهيـة والقوانين البشرية والفرامانات العثمانية !... » بيد أنهـا سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشـدى وقلت الحمد لله الدنيـا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها السـاخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد فى الرثاء لزوجه التى تعدها آخر امرأة تستحق عقابا ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثـك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، انى اريد عمـلا صالحا لا قولا مزوقا » وصـارحته بأنه يغالى فى المحـافظة على أسرته مغالاة خرقت المألوف ، وانه يجمـل به ان يأخذ نفسه بشىء من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليهـا طويلا ، ولما سمحت له بالـكلام - بعد أن أعياها الـكلام - شرح لهـا وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكد لهـا بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وان وعدها فى النهاية - كما وعد أم مريم من قبـل - خيرا ، وظن ان آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدرى الا وهى تقول :

- غياب امينة هانم مفاجاة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جدا ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتى ، ولا أدرى الآن أن كان يحسن بى أن أتكلم فيما أردت الـكلام فيه أم أنتظر عودتها ! ..

فقال السيد مبتسما :

- كلنا تحت أمرك ..

- وددت لو كانت هى أول من يسمعنى وان كنت لم تترك لهـا من الأمر شيئا ، ولـكن لئن فاتنى هذا فعزائى انى اهيىء لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد فى فهم حديثها وحدج اليها متسائلا :

- ما وراء هذا ؟

فقالت وهى تنكت السجادة بسن مظلتها :

ـ لا اطيل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجا لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، أدرك من أول وهلة ان تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها .. رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على انها ترفضه سلفا وتابى أن تنزل عند حكمه ..

ـ مالك صامتا كانك لم تسمعنى ؟!..

وابتسم السيد ارتباكا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلب الأمر على وجوهه :

ـ هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كانما تقول له « ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

ـ لا حاجة بى الى الضحك على باجوف الكلام ، لن ارضى بغير الموافقة التامة ، لقد ندبنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هى خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختيارى ولم يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟! الله ... الله ..

الام يقع فى هذه المشكلة المعقدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! .. ونظر اليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

ـ ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والراس ، ولكن ..

ـ آه من لكن ! ... لا تقل انك قررت الا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا او ذاك ؟.. دع ما لله لله وهو ارحم الراحمين ، ان شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن اخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج اخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله ... الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟.. أليست هى الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟!

قال لنفسه : اذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها ؟! .. وهم باحراجها كما أحرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابة تتضمن اساءة

— ولو بحسن نية — لخديجة وبالتـــالى له هو . وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمـــام :

— ليس الا أننى أشفق على خديجة .

فقالت بحدة كأنما هى المطالبة لا هو :

— كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك احدا . ان الله يكره من عبده العنـــاد والمكابرة ، أقبـــل رجائى وتوكل على الله . لا ترفض يدى فانى ما مددتها الى أحد قبلك ..

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

— هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة ... فقط امهلينى قليلا ريثمـــا اراجع نفسى وأرتب أمورى ، وستجدين رأيى عنـــد حسن ظنك ان شاء الله ...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

— لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممـــا أخذت ، ثم انه كلمـــا طال الأخذ والرد خيـــل الى أنك لا تتقبـــل رغبتى بقبـــول حسن ، ومثلى من تطمع اذا قالت لك أريد أن تبـــادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن ازيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليـــل ابنى وابنك وعائشة بنتك وبنتى ..

وقامت فقـــام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ؛ ولكنها أبت الا أن تذكره بوصاياها جمـــلة . وكأنما خافت أن يفوته شىء منهـــا فأعادتها تفصـــيلا ، وما يدرى — أو ما تدرى — الا وهى ترجـــع لتأييد بعض آرائهـــا وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبهـــا تداعى الأفـــكار فاسترسلت فيـــه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبـــة ، والى هـــذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحـــديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث واذا بتداعى الأفـــكار يغلبهـــا مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصـــابه ، ثم أوشـــك أن يضحك فى النهـــاية وهى تقول له : « لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممـــا أخذت » وأوصلها الى البـــاب مشفقا فى كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشتبك فى الـــكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلســـه وهو يتنفس من الأعمـــاق ، عاد مفتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق ممـــا يظن الكثيرون ، بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هـــذا من لا يرونه الا مكشرا أو صاخبا أو ضاحكا ساخرا !... أن مســـة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة فى عينيه ، ولـــكم يسعده أن يجود بكل غال فى سبيل اســـعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى فى وجهها

الجميـل وجه امه او تلك التى لم تصب من الحسن الا لونا شاحبا ، كلاهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد ان الزوج الذى تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فتى فى الخامسة والعشرين ، ذو دخل شهرى لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا انه ككثير من الأعيان لا عمل له ، وحقا ان حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال ابيه فى الطيبة وكرم الاخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟.. يجب ان يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل ان يبدو امام أهله ـ ولو لحظة قصيرة ـ كمن لا رأى قاطعا له ، الا يشاور خاصته المقربين ؟ .. انه لا يرى غضاضة فى مشاورتهم كلما جد أمر ، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل ان تطير بهم الخمر الى الدنيا التى لا تعترف بالهموم والمشاكل ، ولكنه على قدر ما يستبد فى باطنه برايه فلا يحيد عنه ، فهو من الذين يلتمسون فى الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها حتى فى هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجل بافكاره هتف قائلا :

ـ من يصدق ان ما بى من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير اكرمنى به الله !! ..

ـ ٣٧ ـ

لم يكن لأمينة من عمل فى أيام منفاها الا الجلوس الى جانب امها والاسترسال فى الحديث ، فى كل ما يخطر على البال من احاديث تجاذبها الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية ، فى عالم الذكريات ، بيد ان مرور الأيام دون وقوع الشيء الذى تخاف وما بلغها من شفاعة ام مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد ، كل اولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها ، الى أن زيارات الأبناء المسائية التى لم تنقطع يوما واحدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجدد ، ومع أن الزمن الذى يتغيبونه عنها فى البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره فى البيت القديم ـ فى كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم فى جلسة المساء ـ

الا انها باتت تشتاق اليهم اشتياق المغترب فى بلد بعيد الى احباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع فى طريق الفراق قيراطا كابده القلب اميالا ، ودابت العجوز على ان تقول لها كلما وجدت منها صمتا او آنست فى حديثها الشرود :

ـ الصبر يا امينة ، انى ارثى لحالك . الأم غريبة ما ابتعدت عن ابنائها ، غريبة ولو حلت البيت الذى ولدت فيه ...

اجل انها غريبة ، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتها الأولى سواه موطنا ، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة ، لم يعد « بيتها » ، ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء . وجاء العفو بعد طول انتظار ، حمله الأبناء ذات مساء . دخلوا عليها وفى اعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى اشفقت من ان تكون قد ذهبت فى تأويلها الى ابعد مما تحتمل ، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

ـ البسى ملاءتك وهيا بنا ...

وقهقه ياسين قائلا :

ـ جاء الفرج (ثم هو وفهمى معا) دعانا ابى وقال لنا اذهبا فعودا بأمكما ...

وغضت بصرها لتدارى فرحتها الغامرة . ما اعجزها عن كتمان ما يضطرب فى نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما فى اعماقها الا سجلته . لشد ما ودت ان تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ، ولكن الفرح استخفها فضحكت اساريرها ونطقت بابتهاج صبيانى ، وفى نفس الوقت تولاها حياء لم تدر له سببا . وطال جمودها فى مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله الى الوراء حتى طاوعته ناهضة ، ووقفت قليلا فى ارتباك غريب وما تدرى الا وهى تلتفت الى امها متسائلة

ـ اذهب يا أمى ؟

بدا السؤال الذى ند عنها فى نغمة الارتباك والحياء ـ غريبا ، فابتسم فهمى وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذى جاءوا به ، اما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدست

باطنهـــا فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الانكار لسؤالها ولو بابتســـامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

ــ الى بيتك مصحوبة بسلامة الله .

فذهبت امينة لترتدى ملاءتها وتصر ثيابها وكمال فى أعقابهـــا ، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها بابتسامة رقيقة :

ــ اما كان الأخلق بأبيكما ان يأتى بنفسه ... ؟!

فأجابها فهمى كالمعتذر قائلا :

ــ انت ادرى يا جدتى بطبع أبينا ...

على حين قال ياسين ضاحكا :

ــ فلنحمد الله على ما كان ..!

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ــ على أى حال السيد احمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجـــدة لهم بالبركة يتردد فى آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لأول مرة فى حياتهم حتى بدا المنظر فى اعينهم بالغـــا فى غرابته فتبـــادل فهمى وياسين نظرات باسمه . وتذكر كمال يوم ســـار ــ كما يســـير الآن ــ ممسكا بيـــد امه يقودها من عطفة الى عطفـــة ، ثم ما تلى ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الـــكابوس نفســه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان المـــاضى فى فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

ــ تعالى نخطف أرجلنا الى سيدنا الحسين ..!

فضحك ياسين قائلا بلهجة ذات معنى :

ــ رضى الله عنه ، انه شهيد يحب الشهداء .

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصـــــاصها فهفا قلب الأم اليهمـــا فى حنو واشـــتياق ، ثم وجدت وراء البـــاب أم حنفى فى استقبالها فغمرت يدى سيدتها بالقبل ، والتقت فى فنـــاء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورقوا الســـلم فى مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا فى حجرتها فتبـــادروا الى نزع ملابسها ــ رمز الفراق البغيض ــ وهم يضجون بالضحك ، فلمـــا جلست بينهم كانت تلهث من الانفعـــال والتأثر . واراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

ــ هذا اليوم اعز عندى من يوم المحمل نفسه .!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير فى مجلس القهوة . فعاودوا السمر فى جو من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من ايام فراق وكآبة كما تزداد لذة اليوم الدفء يجىء فى اعقاب اسبوع من الزمهرير » ولم تنس الأم - التى استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا - أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب . وكم سرها أن تعلم انه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها ؛ فمهما يكن من أمر الراحة التى تهيأت له فى غيابهـا فثمة تغيير قد طرأ على نظـام حيـاته حمله بلا ريب عنـاء سيزول بعودتها ، عودتها التى تكفل له - وحدها - الحياة التى يألفها ويرتاح اليها ..! الشىء الوحيد الذى لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت فى هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى !.. ولكن هكذا كان ؛ فهذه القلوب التى شغلت بحزن الأم عن احزانها عادت الى التفكير فى اشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمغص الشديد الطارىء ننسى به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنـا آلام الجفون ، عاد فهمى يقول لنفسه « لكل حزن - فيما يبدو - نهاية ، هذه امى قد رفع عنها الهم . ولكن حزنى يبدو كأن لانهاية له » ؛ ورجعت عائشة الى أفكارها التى لايطلع على سرها أحد ، تتراءى لهـا الأحلام وتلم بهـا الذكريات وان عدت بالقياس الى أختها اهدأ حالا واسرع الى النسيان خطوة ، ولكن امينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغص عليها صفوها منغص ، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لا يجد متسعا فى نفسها التى افعمها الفرح فلم تذقه الا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتباكا ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا فى هذه اللحظة ... لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟ .. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟.. ما عسى أن تقول له أو يقول لها !. لو يسعها أن تتصنع النوم !. ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق ان يدخل عليها وهى مستلقية ، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضىء له ، واكثر من هذا كله انها بعـد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها - شاعت اريحية الرضا فى قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها - بالرغم من انه لم يعن

بالذهاب الى بيت أمها لمصالحتها - حقيقا بالاسترضاء ، فناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد اليها ، لقيته برأس مطاطأ فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أى تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضى القريب الأسيف :

- مساء الخير ...

فغمغمت :

- مساء الخير يا سيدى ...

وذهب الى الحجرة وهى فى اثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد انفاس الراحة . ومع انها ذكرت صباح القطيعة المشئوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سأرتدى ملابسى بنفسى » الا ان ذكراه خطرت عارية من احاسيس الألم واليأس التى غشيتها وقتذاك ، وشعرت وهى تتعهده بهذه الخدمة التى لم يسمح بها سواها بأنها تسترد أعز ما تملك فى الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشلته عند قدميه دون أن ينبس احدهما بكلمة ، وكانت تتوقع ان يشيع « الماضى الأسيف » بكلمة ، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك ، وعملت لذلك الف حساب ، ولكنه سألها ببساطة :

- كيف حال امك ؟

فاجابته وهى تتنهد بارتياح :

- بخير يا سيدى وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل ان يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

- حرم المرحوم شوكت فاتحتنى برغبتها فى اختيار عائشة زوجا لخليل ...

فرفعت اليه امينة عينيها فى دهشة ناطقة باثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف ان تدلى برأى يتفق أن يكون موافقا لقراره الذى لم يعلم به احد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه اخذ برأيها فسبق قائلا :

- فكرت فى الأمر طويلا فانتهى بى التفكير الى الموافقة ، لا أريد ان اعترض حظ البنت اكثر مما فعلت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

- ٣٨ -

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لا تصدق أذنيها حين زف اليها الخبر ، هل حقا وافق ابوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية ؟. لم يكن قد فات على الخيبة التى منيت بها الا قرابة اشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها فى نفسها كان شديدا قاسيا الا انه مضى يخف ويهون مع الأيام حتى امسى ذكرى شاحبة تستثير - اذا استثيرت - حزنا رقيقا غير ذى خطورة ، كل شىء فى هذا البيت يخضع خضوعا اعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هى بالسيطرة الدينية أشبه . حتى الحب نفسه - بين جدرانه - يسترق خطاه الى القلوب فى حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب « لا » استقر قوله فى اعماق نفسها وآمنت الفتاة ايمانا راسخا ان كل شىء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كأن « لا » هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد اى اعتراض عليها ، ولا محيد من اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على انهاء كل شىء فانتهى . على انها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة اشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا الفؤاد اليه ؟.. الا ينطوى حظها السعيد نفسه - تبعا لذلك - على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد انه تساؤل ظل فى طى الكتمان ، لم يطلع عليه احد ولا امها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية فحسب - عد استهتارا يجافى الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة فى رجل بالذات !.. ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه امه فى جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب اليه فى هيمانها ، كان حبها نوع من « القابلية » اكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شىء فى سبيله ، وقد يكون رجل آثر

عندها من آخر ولـكن ليس الى الحد الذى يفسـد معه طعم الحيـاة او يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو اختها ــ كشأنها فى مثل هذه الحال ــ عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو كانت سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

ــ وددت لو تقـدمتنى الى بيت الزوجيـة ! ... ولـكنها القسـمة والنصيب ، وكل آت قريب ..

ولكن خديجة ــ التى تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ــ تلقت قولها بامتعاض شـديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمهـا قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

ــ تمنينا جميعا أن يكون دورك السـابق ، وعملنا على هذا اكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذى عاق حظك الى اليوم ، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخيرة فيها خيرة ..

ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر ، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلت ــ ولو الى حين ــ محل المزاح القارص الذى كان مألوفا بينها وبينهما او بينها وبين ياسين خاصة ، والحق انه لم يعدل بحزنها على سوء حظها الا نرفزتها من العطف الشائع فى جوها ، لا لنفور من العطف مركب فى طبعها ، ولكن لأن مثلها مثـل المصـاب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء الطلق الذى ينعشه عادة وهو صحيح ، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت ــ الى هذا كله ــ فى البواعث التى تدفعهم الى اغداق العطف عليها ، ألم تكن امها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها ؟ فمن يدريها أنها كانت تقوم بالوسـاطة اداء لواجب ربة البيت لا سعيا وراء رغبة خفية فى تزويج عائشة ؟! واليس فهمى الذى حمل رسالة ضابط قسم الجمالية ؟.. ألم يكن بوسعه ان يعدل به عن رأيه من وراء وراء ؟!

واليس ياسين .. ولكن بأى وجه تلوم ياسـين وقد خانها من هو اقرب منـه اليها ؟.. فأى عطف هذا ؟! بل اى رياء واى كذب ! لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الاسـاءة لا الاحسـان ، فامتـلأت حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما فى الأعماق ان تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها او تعرض نفسها ــ هكذا سور لها سوء ظنها ــ لشماتة الشامتين ، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان فى هـذه الأسرة ــ

خاصة فيما يتعلق بالعواطف — عادة متأصلة وضرورة اخلاقية طبعت عليه فى ظل الارهاب الأبوى ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا . وأبوها ؟!.. ماذا عدل به عن رايه القديم ؟!.. اهانت عليه بعد اعزاز ؟!.. هل نفد صبره فى انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار ؟! لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شىء لا يكون ؛ نسيت فى ثورتها مواقفهم السابقة فى الدفاع عنها فلم تذكر الا « خيانتهم » الأخيرة ، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئا بالقياس الى ماتجمع فى صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق ! كرهت سعادتها ، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة ؛ وكرهت جمالها الذى بدا فى عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع فى عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التى لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت فى الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها فى غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات فى البركة الآسنة . ثم شرع السيد فى تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية ، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئا وتعرض عن شىء ، أو توازن بين لون ولون ، فى اهتمام ونسوا نسه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هى نفسها اضطرت — مجاراة لما تتظاهر به من رضى — الى المشاركة فى نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التى لا تنتهى . بيد أن هذا الموقف العاطفى المعقد ، الذى يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ، تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالى حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله . وقد توقعت هذا الواجب كأمر لامفر منه ، يحنقها قبوله أشد الحنق ولايسعها رفضه والا فضحت خبيئتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الأبصار نأرستها أمها بأختها خيرا وزنت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمى لعائشة على مسمع منها « لن تكونى عروسا حقا حتى تحيك خديجة ثياب العرس » ، وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت .. هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من

البذور الكامنة تحت الطين . ولم ترتب فى بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل فى بواعث العطف « الزائف » لشعورها بصدقه من ناحية ولأنه اتجه الى براعنها التى لاشك فيها من ناحية اخرى . فكأنه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة — التى ابت ان تكون من نصيبها — لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هى فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت الى اقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، ان الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكن عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هى الا ساعة او بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لا يعنى هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحنق ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من اهلها بقدر ما عتبت على بختها حتى نصبته فى النهاية هدفا لامتعاضها وتذمرها ، ذلك البخت الذى قتر عليها فى الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت اخيرا — كأمها — المقادير . عجز جانبها الحامى الموروث عن ابيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة فى ان تلوذ بالجانب السلمى الموروث عن امها فاستسلمت للمقادير . كالقائد الذى تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، او يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها فى الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت — منذ صباها — تجارى أمها فى تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التى تلم بالعبادة فى نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها ، وطالما تعجبت خديجة — وهى بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها — من سوء الجزاء الذى تثاب به على اخلاصها ، وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها .. « انى احافظ على الصلاة اما هى فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين ، وانى أصوم رمضان كله وأما هى فتصوم يوما او يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا اطلق مدفع الافطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين ! » . وحتى من ناحية الجمال لم تسلم

العائشة بدون قيد ولا شرط نعم انها لم تجهر برايها لأحد . بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها فى المرآة وتناجى نفسها قائلة « عائشة جميلة بلاشك ولكنها نحيلة ؛ السمانة نصف الجمال ؛ أنا سمينة ؛ واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى ، لم يبق الا ان يشد بختى حيله .. » على أنها فقدت ثقتها بنفسها فى الأزمة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا انها عاودتها هذه المرة لتدرى — أمام نفسها — احساسها القلق بعدم الثقة كما نلجأ احيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور — كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية — لا تمت الى المنطق بسبب .

ولم تنس أمينة — رغم كثرة مشاغلها كأم للعروس — خديجة ؛ او ان فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التى نحظى بها بفعل مخدر بالألم الذى سيعاودنا بعد حين ؛ وكأن زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت — التماسا للطمأنينة من أى سبيل — أم حنفى الى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها أن الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع انها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا أنها املتها خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يزايلها ..

— ٣٩ —

ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منى الا رغوة ؛ هى تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة ، تدللى ... تدللى يا بنت المركوب ، ألم نتفق على هذا الميعاد ؟ ولكن لك حق .. فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مالطة ... وفردة أليه تطير مخ هندنبرج ، عندك كنز ؛ ربنا يلطف بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة فى الآخر ؛ اذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير الف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالمة وجارة التربيعة .. تلك لقنتك أصول الدلال وهذه تمدك بأسرار الجمال ، لهذا

ينهد ثدياك من كثرة من عبث بهما من العشـــاق « اتفقنا على الميعاد لست احلم ، افتحى النافذة ، افتحى يا بنت المركوب « افتحى يا أجمل من اقشعرت لها سرتى « ومص الشفة ورضع الحلمة لاتنظرن حتى مطلع الفجر ، ستجديننى طوع بنانك ، ان اردت أن اكون مؤخر عربة الكارو الذى تتأرجحين عليه اكنه « ان أردت أن أكون الحمار الذى يجر العربة اكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد « يا شماتة الاستراليين فيك يا أنا يا طريد الأزبكية وحبيس الجمـالية « الحـرب يا هوه لا شـنها غليوم فى أوروبا ورحت ضحيتها أنا فى النحاسـين ، افتحى النـافذة يا روح أمك « افتحى يا روحى انا .. » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على ، وعيناه تتطلعان الى بيت زبيدة العالمة خلل الكوة المطلة على الغـورية ، كلمـا شكه الجزع غرق فى احلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج أشواقه معا ، كبعض المنومات الطبية التىتعالج الأرق وتتعب القلب ، كان تقدم خطوة موفقة فى مغازلة زنوبة العوادة خرج بها من دور التحضـــير ــ ملازمة قهوة سى على مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب ــ الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث ذلك فى عطفة التربيعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصـغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل . ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه ، كيف وهى سوق النسوان من جميـع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع ، فهى هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه اليه ، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا ــ بحكم الرحمة والرغبة معا ــ من طرف الى طرف كانما يسـتعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو فى الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات « ما يرى جملة ومايرى تفصيلا ، مايسطع هنا وهنـاك من روائح زكية ، ما ينـد من حين لآخر من أصـوات أو يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات « قانعا بالمشاهدة والموازنة والنقد ، لاقطا من المرئيـات صورا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فلا يفوق سعادته شىء اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، أو بلحظ عين لم يتعرض لمثـله ، او لثدى عجيب فى نهوده ، او لعجيزة خرقت المألوف فى ضـخامتها او حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول « فاز بالسبق اليوم نهد الست

التى كانت واقفة امام الدكان الفلانية » أو « هذا يوم الكفل الرابى رقم ٥ » أو « يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة .. هذا يوم الحقائب المشرفة » اذ تأدى به مزاجه الى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية فى أجزاء من الجسم متجاهلا جملته .
وكأنه فى هذا كله ينعش آماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية فى دنياه ـ عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لغد . الى ما يسنح له فى هذه الجولات الجنسية من صيد طيب فى أحوال نادرة ، ففى ذات اصيل ـ وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سى على ـ راى الموادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التربيعة فمال وراءها ، ثم وقفت امام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك « التجاهل » على أنها فطنت لوجوده ـ كما لا بد أن تكون حدست متابعة لها من بادىء الأمر ـ فهمس قريبا من أذنها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الأمام الا أنه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ، ردا لتحيته ، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئنا الى جنى ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى انفه رائحة الشواء الذى يهيأ له وراى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها من الحناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه ـ بأداء هذا الواجب اللذيذ ـ يكتسب حقا ألذ وامتع ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمانت الى انه سيدفع الثمن .
وفى طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « ياست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء المحب « اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة فى تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى احكام اغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابها هامسا « اللقاء ولوازمه ! » فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اللقاء » .. كلمة صغيرة .. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون ، أليس كذلك يا حضرة الأفندى الذى يضاهى الجمل طولا وعرضا ؟ ! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، أليس هكذا العشق

يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليهـــا ؟ » فقالت وهى ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه « ومن أدرانى بالعشق يا جملى ؟.. لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوزام أيضا ؟ » فقال وهو يغالب الضـحك « هى ولوازم اللقــاء شىء واحــد » « بلا زيادة ولا نقصـــان ؟ .. » « بلا زيادة ولا نقصـــان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟! .. » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة » لعلها التى يسمونها الزنا ؟! » « بلحمه وعظمه ! » فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا ... انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سى على وعندما افتح النافذة قم الى البيت » انتظر مساء ومساء ومساء « مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة فى حانطور ومساء لم يبد على البيت اثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد اعيا أعصاب راسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليل فاغلقت الدكاكين واقفر الطريق وشمل الغورية ظلام » ووجد ـ كما يقع له كثيرا ـ فى اقفار الطريق واظلامه مثارا غريبا لمكمن الشهوة فى جسده فازداد جزعا على جزع . بيد انه لكل شىء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكان لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك الغارق فى الظلمة طقطقة نفخت فى حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل فى نفس التائه فى الغطب اذا ترامى الى سمعه أزيز الطيارة التى يحدس انها جاءت للبحث عنــه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشـــع منها ضوء » ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق الى الداخل ليجد نفسه فى ظلمة دامسة لم يهد معها الى موقع الســلم فلازم موقفه ليأمن الاصــطدام أو العثار ووثب الى راسه سؤال لا يخلو من قلق « ترى أدعته زنوبة على غير علم من العــالمة ؟.. وهل تبيح لهــا العالمة الاجتماع بعشاقها فى بيتها ؟ ولكنه ابرز لسانه استهانة لأن رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق فى بيت تقوم جدرانه على مهج العاشـــقين ليس مما تحــاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من أعلى » ثم لمحه يترانح على الجدران التى وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه ، وما عتم ان رأى زنوبة قادمة وبيدها مصـباح فمضى نحــوها فى سكرة من الشوق وضغط فى حنان على ســاعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة اوحت على رقتها بانها لاتحاذر » وتساءلت بمكر :

ــ طال انتظارك ؟

فمس سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :

ــ شاب شعرى الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :

ــ نعم .. فى خلوة مع رفيق قد الدنيا ..

ــ الا تغضب أذا علمت بحضورى فى هذه الساعة ؟

فاستدارت وهى تهز منكبيها استهانة ورقت فى الدرج وهى تقول :

ــ وهل انسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟

ــ اذن لا ترى بأسا فى اجتماعنا ببيتها ؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

ــ العلها ترى كل البأس فى عدم اجتماعنا ..!

ــ عاشت .. عاشت ..

فاستطردت فى لهجة تنم من الفخر قائلة :

ــ لست عوادة فحسب ، أنا بنت أختها ، وهى لا تضن على بغال .. تقدم بسلام ..

ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فانصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ــ خلوة أم حفلة ؟

فهمست فى أذنه :

ــ خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ؛ لا يطيق ان يخلو مجلســــه ساعة من العود والدف والكأس والضحك .. وعقبى لك ..

ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على كنصول ثم وقفت امام المرآة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وســدد عينيه المنهومتين الى الجســم المشتهى الذى بدا لناظريه متجردا من الملاءة ، ول مرة ، سددها بقوة وتركيز وحركهما فى أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق ، ولكنه قبل أن ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت فى صدره قالت زنوبة كانما تصل ما انقطع من حديثها :

ــ رجل لا نظير له فى لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من اليوم الى الغد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ..

لم يغب عنه فى إشارتها الى « كرم » عشيق العالمة من معان ، ومع

انه سلم من بادىء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة الا أن تلميحها — الذى بدا اله مبتذلا — ضايقه ، فلم يسعه الا أن يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

— لعله رجل واسع الثراء !

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

— الثراء شيء والكرم شيء آخر ... رب ثرى بخيل ..!

فتساءل لا عن رغبة فى المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذى خاف ان يفضح استياءه

— ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالت وهى تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته :

— انه من حينا ولابد انك تسمع عنه .. السيد احمد عبد الجواد ..

— من ..!

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فالفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة :

— مالك ؟.

كان تلقى الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل فى نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدرى ، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة فى حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره وركز ارادته كلها فى الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

— السيد احمد عبد الجواد !.. صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد من لازعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة :

— نعم هو .. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟..

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله فى سره على انه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

— من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟!

فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

— أهذا ما أفزعك حقا ؟ .. ولا شيء غيره ؟ ! .. أظننته من المعصومين ؟.. وماذا عليه من هذا ؟.. هل يكمل الرجل الا بالعشق ؟!

فقال بلهجة المعتذر :

— صدقت .. لا شيء يستحق الدهش فى هذه الدنيا (ثم ضاحكا) .

عصبية) تصورى هذا الرجل الوفور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء ..!

فقالت وكأنها تحمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

ــ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا ــ بعد هذا كله ــ أن يرى في دكانه مثالا للجد والوقار فالجد جد واللهو لهو . وساعة لربك وساعة لقلبك ...

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة !.. ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكا !.. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟!

ابوه ؟! .. السيد احمد عبد الجواد ؟!.. الصارم الجبار الرهيب التقى الورع ؟!.. الذى يقتل من حوله رعبا ؟!

كيف يصدق ما سمعت أذناه ؟!.. كيف ، كيف ؟!.. الا يكون ثمة تشابه فى الأسماء والا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف ؟!..
ولكن زنوبة وافقت على انه صاحب دكان « النحاسين » وليس فى النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه !.. رباه هل ما سمعه حقيقة أو انه يهذى ؟!.. لشد ما يود أن يطلع على الحقيقة بنفسه ، أن يرى بعينيه دون وسيط ، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شىء فى الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما تقول « يا لها من أيام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :

ــ الا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟

فقالت معترضة :

ــ امرك عجيب وما الداعى الى هذا التجسس !

فقال برجاء :

ــ منظر يستحق المشاهدة فلا تحرمتنى منه ..!

فضحكت باستهانة وقالت :

ــ عقل طفل فى جسم جمل ، اليس كذلك يا جملى ؟.. ولكن لا عاش من خيب لك رجاء .. انزو فى الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى أرجع..

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى فى ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذى ينبعث منه الغناء

فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها . هناك بدا مجلس الطرب فى صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهى تلعب بالأوتار بأناملها وتغنى « يا مسلمين يا أهل الله » وعلى كثب منها جلس « أبوه » دون غيره ـ وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة أو دقيقتين ، ولكنه رأى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ فى أعقابها كالذى يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف ، راى فى دقيقتين عمرا كاملا ملخصا فى صورة كمن يرى فى حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شتى يستغرق وقوعها فى عالم الحقيقة اعواما طويلة ، رأى اباه حقا ، اباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود أن يراه ، فلم يسبق له أن رآه متجردا من جبته فى جلسة مريحة منسابة مع سجيتها ، ولا راى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس ، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر ، ولا رأى ـ اى والله ـ الدف بين يديه يرعش باعثا شخشخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا رأى ـ ولعله اعجب ما راى ـ هذا الوجه الضاحك المتالق الريان بالود والصفاء الذى اذهله كما اذهل كمال من قبل حين رآه يضحك امام الدكان يوم قصدها مدفوعا برغبته فى الافراج عن أمه ، راى هذا كله فى دقيقتين ولما اغلقت زنوبة الباب وعادت الى حجرتها لبث بموقفه يستمع الى الغناء وشخشخة الدف برأس دائر ، نفس الصوت الذى استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن اى تغير اعتور الأثر الذى ينطبع منه على نفسه ، اى معان وصور جديدة ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب فى أذنيه نذيرا لمتاعب جمة اذا سمعه وهو ضمن تلاميذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة . .

ـ هل أنساك نفسك ما رأيت ؟

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح :

ـ منظر نادر ، وغناء بديع . .

ـ اتحب أن نفعل مثلهما ؟

- فى ليلتنا الأولى ؟! .. كلا .. لا احب ان اخلط بك شيئا آخر ولو كان الغناء نفسه ..؟

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث ليبدو امامها - وامام نفسه على السواء - هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حاله الطبيعية باسرع مما قدر . كالذى يتصنع هيئة الباكى فى مأتم فيستخرط فى البكاء . على انه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل : انا هنا مع زنوبة وابى فى الحجرة القريبة مع زبيدة . كلانا فى بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد فى حديثه مع نفسه « كيف احمل نفسى مشقة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت المسه واقعا !.. انه هنالك فمن السخف أن اتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا .. فلأصدق ولا اتعجب .. وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح به فرحة فاقت كل تقدير ؛ لا لأنه كان بحاجة الى مشجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لأنه - كاكثرية الغارقين فى الشهوات المحرمة - يستأنس الى الشبيه ، فكيف أن وجده فى شخص ابيه - القدوة التقليدية - الذى طالما أزعجه ؛ بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه واياه على طرفى نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به فى حياته ؛ وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين - غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف - حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى ؛ بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيا قريبا قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ؛ ليس الرجل الذى يرعش الدف فى الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يحب أن يكون ، وكما ينبغى أن يكون ؛ لا يفرق بينهما الا عبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدى ؛ اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك فى نفسى ؛ يا له من يوم ويا لك من اب لم يكن قبل الليلة الا نتيما ، اشرب واطرب والعب بالدف لعبا ، ولا يد عيوشة الدفافة ، انى فخور بك ، هل تغنى أيضا يا ترى ؟.. »

- ألا يغنى السيد عبد الجواد أحيانا ؟

- الا زال فكرك مشغولا به ؟! يا ويل الناس من الناس !.. بل يغنى احيانا يا جملى .. يشترك فى الهنك اذا سكر ..

- وكيف صوته ؟
- غليظ جميل كعنقه ..

«الى هذا الأصل ترجع الأصوات التى تغنى فى بيتنا ، الجميع يغنون ، اسرة عريقة فى الطرب ، ليتنى اسمعك ولو مرة ، لا احفظ الك فى ذاكرتى الا الزعق والنهر ، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا « يا ولد - يا نور - يابن الكلب » اريد أن اسمع منك « الوداد فى الملاح صدف » أو « حبيت جميل » كيف تسكر يا أبى ؟ كيف تعربد ؟ ينبغى أن اعرف لاحتذى مثالك واحيى تقاليدك ، كيف تعشق ؟ كيف تعانق ؟.. »

وانتبه الى زنوبة فرآها امام المرآة وهى تسوى اهداب شعرها بأناملها وقد لاح ابطها من فرجة الفستان املس ناصعا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت فى بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كانه فيل ينقض على غزال ..

- ٤٠ -

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء امام بيت السيد احمد فى انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصيلا وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورود التى ازينت بها اولى السيارات الثلاث فلفتت انظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التى تفاخر الأسر باعلانها ، فى امثال هذه المناسبات وتتعلل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد ، تم كل شىء فى صمت وهدوء فلم يدر به احد الا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وابى السيد أن يتزحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بان يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة ، وفى ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفى على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة فى سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتمل

فستان العرس أو قنـاعه الحريرى الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعتهـا خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واسـتقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الآخرين ـ على حين اتخذ كمال مجلسه الى جانب سائق سـيارة العروس ورغبت الأم فى ان يمضى الركب الى السـكرية عن طريق الحسـين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذى كلفها الشوق اليه قبل ذلك غاليا ولتستوهب صاحب المقـام البركة لعروسها الحسناء ، فاخترقت السيارات الطرق التى قطعتها هى ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت الى الغورية عنـد المنعطف الذى كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولى امام مدخل السـكرية الذى يضـيق عن دخول السـيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفـة فطالعتهن معـالم الزينات وهرع اليهن غلمـان الحارة هاتفين وتعـالت الزغاريد من بيت آل شـوكت ، أول بيت الى يمين الداخـل ـ حيث ازدحمت نوافذه برءوس المطـلات المزغردات ، ووقف عنـد مدخله العريس خليـل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسـين وفهمى ، وتقـدم خليل مبتسما من العروس ومنحهـا ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم الى يدها فشبكتها بساعده ، ثم سار بهـا الى الداخل مارا بحـذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهـال على اقدامها وعلى اقدام من تبعنها من حاشـية العروس حتى واراهن باب الحريم .
ومع أن قران عائشة بخليـل تم قبـل ذلك اليوم بشهر أو اكثر الا أن منظر اشـتباكهما وسـيرهما معا لاقى من ياسـين وفهمى ـ والأخـير خاصة ـ دهشة مقرونة بالحيـاء وشعورا بالانكار اشـبه كأن جو أسرتها لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هـذا الأثر بصورة اوضح عنـد كمال الذى جعل يجذب أمه من يدها فى انزعاج وهو يشير الى العروسين اللذين يتقدمان الجميع على السـلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ، وخطر للشـابين ان يسترقا النظر الى وجه ابيهما ليريا اى اثر تركه ذلك المنظر الفريد ، فشملا المـكان بنظرة سريعة ولـكنهما لم يقفا له على اثر ، لم يوجد عنـد المدخل ولا فيما يلى هـذا من فناء البيت الذى اصطفت به الأرائك والمقاعد واقيمت فى صدره منصـة الغناء والواقع أن السيد خلا الى نفر من خاصة اصدقائه بمنظرة الفنـاء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على الا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسـه عن « الجمهور » الصاخب خارجها ، لم يكن اشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله فى ليـلة زفاف ، اذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابتـه

فى يوم خالص السرور »، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعى الفرح ». وفضلا عن هـذا وذاك لم يكن أكره لديه من ان يرى — بينهم — على غير ما عهـدوا من وقار صـارم ، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف فى صمت شـامل ولـكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحاته فى هـذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وابت الا ان تحييها ليـلة حافلة فاتفقت على احيائها مع العـالمة جليـلة والمغنى صـابر » وبدا كمال لفرط ابتهـاجه بما اتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان احد افراد قلائل أبيح لهم التنقـل كيفما شاءوا بين الحريم فى الداخل وبين مجلس الطرب فى فنـاء الدار » لبث طويلا مع أمه بين النســاء منقلا طرفه بين زينـاتهن وحليهن مصـغيا الى دعاباتهن واحاديثهن التى يستاثر الزواج بخلاصـتها ، أو منصتا معهن الى العـالمة جليلة التى تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارا ، فاسـتأنس الى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته — والأهم من هذا كله — لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بهـا من قبل ، وشجعته امه على البقاء ليظل تحت رعايتها » بيـد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضـطرت الى ان تحثه همسـا على الانتقال الى مجلس اخويه لأمور لم تتوقع حدوثهـا . من ذلك ما بدا من اهتمـامه بعائشة ، بفستانها حينا وبزواقها حينا آخر » فخيف منه على هندامها ، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السـيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير الى امرأة من آل العريس قائلا : « انظرى يانينه الى أنف هذه الست . . اليس أكبر من انف ابله خديجة » أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغنى من الاشتراك مع التخت فى ترديد « يامه حلوه . . ومنين اجيبها » حتى دعتـه العالمة الى الجلوس بين أفراد تختها ، بهـذا وغيره جذب الأنظار اليه فاخذت المدعوات فى مداعبته ولـكن امه لم ترتح الى الضجة التى اثارها ، وآثرت على كره منها — اشفاقا على البعض من عبثه واشفاقا عليـه من اعين المعجبـات — ان تحمله على مغادرة المكان ، انضـم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصـفوف » ثم وقف بين فهمى وياسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميـل » واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فاغراه حب الاستطلاع بالنظر الى داخلها فمـد رأسه وما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعينى والده فتسمر فى مكانه وعجز عن استردادهما ، ورآه احد أصدقاء أبيه — السيد محمد عفت — فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من اغضاب ابيـه فتدانى من الرجل

على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكرى فى طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

— ماشاء الله . . فى أى سنة يا عم ؟

— سنة ثالثة رابع . .

— عال . . عال . . سمعت صابر ؟

ومع انه كان يجيب على أسـئلة محمـــد عفت الا انه راعى من بادىء الأمر أن تـكون اجاباته بحيث ترضى أباه . . . فلم يدر كيف يجيب على السـؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلطفا :

— الا تحب الغناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

— كلا . . .

وبدا من بعض الحاضرين مايدل على انهم سيعلقون على هذه الاجابة ـ آخر ماينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد ـ مازحين ـ ولكن السيد حذرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السـيد محمد عفت فعاد يسأله :

— الا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ اباه :

— القرآن الشريف . .

فتعالت أصوات الاستحسـان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السـيد الفار قائلا :

— ان صح هذا فالغلام ابن زنا . .

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف كمال . . .

— هل رأيتم أمكر من ابن الكلب الذى يدعى التقوى أمامى !. . رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « ياطير يا اللى على الشجر »

فقال السـيد على :

— آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء فى انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسـه . .

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلا :

— المهم ان تخبرنا هل اعجبك صوته فى دور « يا طـير يا اللى على الشجر » ؟. .

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

— ذاك الشبل من هذا الأسد !

فهتف الفار قائلا :

ـ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التى انجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث ان استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مغتبطا بحريته التى جعلت من المكان كله ـ فيما عدا المنظرة المخيفة ـ مجالا مباحا لقدميه دون معترض او رقيب ، فاى ليلة هـذه فى الزمان ! شىء واحـد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذى باتوا يدعونه « بيتها » هذا الانتقال الذى نفـذ على رغمه دون أن يستطيع احد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف يسمح أبوه به وهو الذى لا يسمح لظل امراة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وسأل امه فى عتاب ، كيف تفرط فى عائشة لحد النزول عنها للغير فاجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلهـا من بيت ابيها فتشيع اليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فاجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لا يطيب له الرى الا من موضع شفتيها ، حقا ان الفرح الراهن ينسى أشـياء ما كان يتصور انه يتساها لحظة ولكن خاطرة الاسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر فى ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغنـــاء تلك الليلة فاق اى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال فى مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والالمظية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سـنه كل من لاحظه من النساء والرجال فلم يدهش احـدا من اسرته التى تعرف سوابقه فى الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعـده احسن اصواتها بعد عائشة وان كان صوت الأب ـ الذى لايسمعونه الا مزمجرا ـ احسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا الى جليـلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته أحب الى قلبه وأخذ لنفسه ، فرسخت منه فى ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشـق ليه ... علشان كده » جعل يرددها بعد ليـلة الزفاف طويلا فى سقيفة اللبـلاب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت أمينة وخديجة كمال فى بعض ما أتيح له من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ـ مثله ـ إن شهدا ليلة كتلك الليـلة بما حفلت من انس وطرب ومرح ، وابهج امينة خاصة مالاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التى لم

تنعم فى حياتها برعاية او مجاملة ، حتى خديجة اختفى همهـــا فى انوار الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطلية ؛ وازدادت لها نـــسيانا بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شـــعورها بفراق عائشة الوشـــيك ، شعور أثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الأحزان القديمة امام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى — ساعة الفراق مثلا — الكراهية للجانب أمام الحزن على الجانب الآخر ؛ هذا الى ماشاع فى نفســـها من ثقة حين تبدت فى زينة اضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها انظـــار بعض النســـاء فلهجن بالثنـــاء عليها ثناء ملأها املا واحلاما عاشت بها زمنا رغـــدا . .

وجلس ياسين وفهمى جنبا لجنب : يراوحان بين السمر والسماع . وجعل خليل شوكت — العريس — ينضم اليهما بين ساعة واخرى كلما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة الممتعة ؛ وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت فى عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظماه ولو بكاس أو بكاسين ؟ لذلك مال مرة على أذن خليـــل شوكت — وكان صديقا للأخوين وهمس قائلا :

— ادركنى قبل أن تضيع الليلة . . .

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينيه مطمئنا :

— افردت مائدة فى حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء . .

عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماع : لم يكن فى نيته أن يسكر ؛ ففى مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ؛ خاصة وان والده وان انزوى فى المنظرة — غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على اسرار حياته بمزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه الحصين من المهابة والاجلال ؛ ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية ، حتى السر الذى اطلع عليه خفية لم يفكر فى البوح به لانسان ولا لفهمى نفسه اقرب المقربين اليه ؛ لهذا كله قنع من بادىء الأمر بكاس او بكاسين يتملق بهما رغبتـــه الجامحة . ويتهيـــأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التى لم يعد لهـــا عنده طعم بغير شراب . فهمى بخلاف ياسين — لم يجد ، أو لم يطمئن الى أنه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لاينتظر عند مجىء العـــروس ،

ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوقع بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد شف قناعها الحريرى عن ديباجة وجهها الصافى ، فاتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد انه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالى الناسى : والحق تمر به اوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كان قلبه يستجم من العناء ، ولكن ما أن تخطر خطرة او تهفو ذكرى ، او يجرى اسمها على لسان ، او او ، حتى يخفق فؤاده الما ، ويفرز الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملتهب تجىء عليه فترة فيسكن المه حتى اذا هرس لقمة أو مس جسما صلبا انفجر به الألم وهنالك يقرع الحب اضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ، صائحا بأعلى صوته انه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف فى تقرير مصيره . وقرب امنيته كر الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران احلامه ويخلقان له ضروبا من الألم والغيرة ان تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة ، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالى الألم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب لو يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام ، ولكنه لم يستسلم للشجن فى مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء ، الا انه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته « اترا » لايمكن ان يمضى بلا رد فعل محسوس ولما لم يسعه ان يجتر به احزانه وان يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالاغراق فى الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة ، على انه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر فى اعماقه بعزلة قلبية عما حوله ، وادرك مع مرور الوقت ان رؤيته مريم وهى تخطر فى معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا قابلية للأرق ، وانه لن ينعم على الأقل هذه الليلة - بصدر مستقر ، وان شيئا مما يدور حوله لن يستطيع ان ينتزع من مخيلته صورتها او الابتسامة التى حيت بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة

عذبة صافية وشت بقلب خلى متشوف للهدوء والسرور : ابتسامة لا يوحى رواؤها بانه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم ، فحز منظرها قلبه وكاشفه بانه يكابد الألم منفردا ويحمل متاعبه وحده ، ولكن الا يقهقه هو الآن عاليا . يحرك راسه مع الانغام كالمنبسط الطروب ؟ . . الا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟ . . وجد فى تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « الا يحتمل أن أشفى كما شفى فلان الذى اصيب به قبلى ، وما لبث أن ذكر رسالتها التى عاد بها كمال اليه منذ اشهر وهى تقول له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب اثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار . . وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات ؟ . . . اجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تتضمنه من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما اشعره بالعجز حيالها وما احنقه بالتالى عليها ، اذ يندر ان يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب الى الحب الهائج ؛ ليست رؤيته لها وحدها التى رجته هذه الرجة العنيفة ، فلعل ذلك لأنه رآها لأول مرة ، فى مكان جديد ـ فناء بيت آل شوكت ـ بعيدا عن داره التى لم يرها خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم فى النظام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجىء فى المكان الجديد ـ ذلك الظهور الذى خلقها فى عينيه خلقا جديدا ـ حياة جديدة فى وجدانه ، ايقظت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معاً على احداث هذه الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة اقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها فى جو من الحرية والأنطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة ، وجودها فى بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال ، كل أولئك اطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب املا غير عسير وكأنما تقول له « انظر اين ترانى الآن ، ماهى الا خطوة اخرى فتجدنى بين ذراعيك » ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى احداث تلك الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا فى نفسه وتغلغلا فى حياته ونشوبا فى ذكرياته ، فان الصور تتعمق فى انفسنا باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد اليها تجاربنا ، وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات

الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع امه فى حجرة المذاكرة والرسالة التى عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه ومثل هذه العملية .. لا يمكن أن تتم دون أن تشارك فى احداث الرجة العنيفة التى دوخته . وحدث فى فترة الاستراحة ان ترامى صوت العالمة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الغناء وهى تغنى « حبيبى غاب » فنشبط الى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت جليلة اعجبه ولكن الظنه أن مريم تنصت اليها فى تلك المحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب اذنيهما فى وقت واحد معا ، لانها الفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ، لانها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس واحد ، وحاول طويلا ان ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، ان يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة ، ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » أو « بقى له زمان ما بعاتش جواب » ؟ ترى هل غاصت فى لجج الذكريات ؟.. او لم تنحسر موجة منه عن وجهه ؟ .. الم ينقبض قلبها لشكة الم او لحزة حسرة ؟ ام لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة الا فرحة الطرب ؟ ... وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية او ثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على شفتيها عند مجيئها فآلمته لانه توسم فيها رمز السلو والنسيان ، او وهى تحادث احدى اختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسدهما عليه على حين لا يجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الأحاديث التى يشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، اجل طالما عجب لموقف اختيه منها ، لا لأنهما لا يكترثان لها فالحق انهما يحبانها ، ولكن لانهما يحبانها انما يحبان غيرها من فتيات الجيران كانها مجرد «فتاة» من فتيات الجيران ، وكيف يلقيانها بترحيب عادى دون ان يضطرب لهما نفس كما يلقى هو اى فتاة عابرة او أيا من اقرانه طلبة مدرسة الحقوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت او مريم فعلت » وينطقان بالاسم كما ينطقان بأى اسم .. ام حنفى مثلا كانه ليس الاسم الذى لم ينطلق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من اذنه او كانه ليس الاسم الذى

لا ينطق به فى وحدته الا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة فى خيـاله بتهاويل الأحلام التى لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنـه » أو « عليه السلام » . . كيف اذن عطل الاسم — بل الشخص نفسـه — عندهما من سحره وقدسـينه ؟! . . وعند ما انتهت جليـلة من الأغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيـه انتباهه باهتمام لم تحظ الأغنية نفسها بمثـله لأن حنجرة مريم ويديها اشتركت فيـه ، وتمنى لو كان بوسـعه أن يميز صوتها من تلك الأصـوات وان يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولـكن لم يكن ذلك بأسـهل من تمييز صـوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشـاطىء ؛ على أنه وهب حبـه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التى يترامى الى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التى يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن أشبه بفهمى فى عزلته الباطنية — وان اختلفت الأسباب — من أبيه الذى لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الأصدقاء الذين لم يطيقوا التوقر ، والغناء يجلجل فى الخارج ، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معـــه الا النفر الذين مجلسه أحب اليهم من اللهو نفســـه فلبثوا جميعا فى رزانة غير معهـودة كأنما يؤدون واجبا أو يشهدون مأتما ، هـذا ما قدروه من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليـلة الزفاف ، لمـا خبروه من طبيعته المزدوجة التى عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هـذا الذى يحتفلون فيـه « بليلة زفاف » وبين مجالسهم المسائية المعربدة التى لا يحتفلون فيهـا بشىء ! ولما عتموا أن جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادىء فمـا ان علا صوت السـيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفـار واضعا سـبابته على شفتيه كأنمـا يأمره بخفض صوته وهمس فى اذنه محذرا زاجرا نحن فى فرح يا رجـل ! . . ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليا فاذا بالسيد على يقلب عينيه فى وجوههم ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكر « شكر الله سعيكم » وعند ذاك دعاهم السيد الى اللحاق بصحبه فى الخارج ومشاركتهم لهوهم ولـكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شـديد العتاب قائلا : نتركك فى مثل هـذه الليلة ؟! . . وهل يعرف الصديق الا عند الضيق فما تمالك السـيد أن ضحك قائلا : ما هى الا عدة ليالى زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعا . . على أن ليلة الزفاف تضمنت فى نظر السيد أحمد معانى أخرى غير التوقر

الاجبارى فى مجلس انس وطرب ، معانى تخصه وحده .كاب ذى طبيعة خرقت المألوف من الطبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم يقره عقله أو دينه ، لا يعنى هذا انه .ود الا تتزوج كريمتاه ، فالحق انه كسائر الآباء جميعا رجا الستر لفتاتيه ، ولكن لعله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا « الستر » ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى فى الأقل لو لم يكن انجب اناثا قط ، أما وتلك امانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان احيانا — لياسه من دوام العمر — ميتة شريفة .او ميتة مريحة ! طالما افصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور ، فربما حدث بعض خلصائه قائلا : « تسالنى عن انجاب الاناث ؟ . . انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على اى حال ، لا يعنى هذا انى لا احب ابنتى فالحق انى احبهما كما أحب ياسين وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وانا اعلم بأنى ساحملهما يوما الى رجل غريب مهما يبد لى من ظاهره فالله وحده المطلع على باطنه ؟ . . ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية ابيها ؟ . . وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات ابوها فلجأت الى بيت اخيها لتعيش عيشة المنبوذين ؟ ! لست أخاف على أحد من ابنائى لأنه مهما يحدث لأيهم من امر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة اما البنت . . . اللهم احفظنا ! أو يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا . . الا ترى انا لا نالو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟ . . ولكن الا ترى انا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا الى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء . . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . . » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت « العريس » نظرة متعسفة عيابة ابت ان ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها ، كأنه ليس من آل شوكت الذين الفت بينه وبينهم اسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه ان ينكر مزية من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له ان يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليأكل وينام ! » لم يكن اعتوافه بمزاياه

اولا ثم فحصه عن اى عيب ليلصقه به اخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفسه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفور من فكرة الزواج . فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية ، كمدمن الأفيون الذى تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد انه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسماع من بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحنق .

وعند ما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير الى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للعواقب فأعلن قناعته بكاسين وقاوم بشجاعة — أو بجبن — تيار الشراب المتدفق حتى اذا ما لسعته النشوة الأولى فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاستزادة من النشوة الى القدر الذى لا يخرجه عن حدد الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة الا أنه — على سبيل الاحتياط او لانه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار — اخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى . وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود . .

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل :

— من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء امينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجه العالمة بحيرة وانكار ، ولما اعادت العالمة التساؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشارة الى امينة وهى تقول :

— ها هى حرم السيد احمد ففيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثم اطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

— حسنناه وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .

وبدت امينة كالعذراء المتعثرة فى حيائها ، بيد أن الحياء لم يكن كل

ما تعانيه ، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عمـــا يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمــد عبد الجواد » وعن اطرائهـا ذوق السيد بلهجـة لا يدعيها لنفســه الا الخبير به ، وشاركتها شـعورها عائشة ، وخديجة التى رددت عينيها بين العـالمة وبين بعض الفتيـات من صديقاتها كأنما تسائلهن عن رأيهن فى « هذه المراة السكيرة » ، ولـكن جليـلة لم تأبه لمـا أثاره كلامهـا من انزعاج فحولت عينيهـا الى العروس وتفحصتها كما تفحصت امها من قبل ثم ارعشت حاجبيها وهى تقول باعجاب :

ــ قمر ورسول الله ، انت بنت ابيك حقـا ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه .. (ثم مقهقهة) .. اراكن تتساءلن من اين لهـذه المراة معرفة السيد احمـد ؟! .. انى اعرفه من قبـل ان تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينـا وقرين صباى ، وكان والدانا صـديقين ، أم تحسبين العـالمة لا اب لهـا ؟ . . كان ابى شـيخ كتاب من أهل البزكة ، ما رايك يا زينة الستات .. ؟!

وجهت السؤال الأخير الى أمينة فدفعهـا الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى ان تجيبها ــ وهى تقاوم ما ركبها من ارتباك ــ قائلة :

ــ رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم ..

فجعلت جليلة تحرك راسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته ، أو لعـل راسها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التذ بها ، ثم استطردت قائلة :

ــ وكان رجـلا غيورا ، ولـكننى نشأت بفطرتى لعوبا لا ابالى كأنمـا وضعت الغنج فى المهد ، كنت أضحك الضحكة فى الدور الأعلى تضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع ، فما يبلغه صوتى حتى ينهال على ضربا ويرمينى بشر الصفات ، ولـكن ما حيلة التاديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟! .. ضاع التاديب هبـاء ، ومضى الرجل الى الجنـة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخـذ مما رمانى به من شر الصـفات شـعارا لى فى الحياة . . هى الدنيـا .. ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها .. ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء فى الحلال او فى الحرام ..

وعزف الضحك فى جنبـات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهشة التى ندت هنـا وهناك ، ولعل ما استثاره قبـل اى شىء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى ــ فى ظاهرها على الأقل ــ بالجد والتاسى ، أو بين ما تقنعت به المراة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به أخيرا من مزاح مكشوف ، حتى أمينة نفسها

- وعلى رغم ارتباكها - ما تمالكت أن ابتسمت وان نكست وجهها لتوارى ابتســـامتها ، على أن النســـاء كن يستجبن - فى مثل هـــذا المجلس - لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وان خدش الحياء احيـــانا كأنما ينفس به على طول تزمتهن ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

- وكان جعـــل الله الجنة مثواه سليم الطوية ، وآى ذلك انه جاءنى يوما برجل طيب مثـــله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) . . اى زواج يا عمر ؟! . . وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان ! . . وتاب لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل . .

وأمسكت مليـــا لتستزيد من التشـــويق ، أو لتتمتع اكثر بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه ، ثم عادت تقول :

- ولكن الله ســـلم فادركتنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول ، وكان للمرحوم أخ عواد عند العـــالمة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغنـــاء ، واخذ بيـــدى حتى ضمنى الى تخت نيزك التى حللت محلهـــا بعد وفاتها ، ومارست الغنـــاء دهرا عرفت فيـــه من العشاق مائة و . . . (وقطبت وهى تتذكر بقية العـــدد ثم التفتت الى الدفافة وسألتها) : وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدفافة قائلة :

- وخمسة فى عين من لا يصلى على النبى . .

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصـــفو الجو العالمة ولـــكنها نهضت بغتـــة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقيـــة بالا الى اللاتى تســـاءلن عن وجهتها دون ان يحظين بجواب ، ولـــكن أحدا لم يلح عليهـــا فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعـــة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولمـــا جذب ظهورها المفـــاجىء بعض الأنظـــار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميـــع فتستمتع بما يحـــدثه منظرها فيهم من اهتمـــام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها - كالتثاؤب - من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم شعر صابر نفســـه - رغم انهماكه فى الغنـــاء - بالفجوة الفجائيـــة التى فصلت بينه وبين جمهـــوره فمد بصره الى الهـــدف الذى استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر اليه من بعيـــد برأس مائل الى

الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء واشار الى تخته فتوقف عن العزف ، ثم رفع يديه الى رأسه تحية لها ! . .
كان صابر خبيرا بنزوات جليلة - وعلى خلاف الكثيرين - عالما بطيبة قلبها ، ومقدرا فى الوقت نفسه الخطر معاندتها ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت حيلته فانطلقت اسارير المراة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك ياسى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى الذى دعاها الى المجىء وسألته بدورها بصوت ترامى الى الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهمى .
- مالى لا ارى السيد احمد عبد الجواد ؟! . . أين يختبىء الرجل ؟
فاخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنظرة باسما ، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيعاهما بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :
- مساء الأنس يا رجال . .
وركزت عينيها فى السيد فما تمالكت أن اغربت فى الضحك وهى تتساءل ساخرة :
- هل اخافك مجيئى ياسيد أحمد ؟!
فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :
- اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجىء الى هنا تحت انظار الناس جميعا ؟!
فقالت كالمعتذرة وان لم تزايلها بسمة ساخرة :
- عز على الا اهنئك على زواج كريمتك . .
فقال السيد فى ضيق :
- لك الشكر ياستى ، ولكن أما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون ؟
فضربت جليلة كفا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :
- هذا احسن ما عندك لى من استقبال !. . (ثم موجهة الخطاب الى صحبه) . . أشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى

يغرز فردة شاربه فى صرتى ، انظروا اليه كيف لا يطيق الآن رؤيتى ..
فلوح السيد لها بيـــده كأنما يقول لها « لا تزيدى الطين بلة » وقال برجاء :
ـ علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..
هنالك قال السـيد على كأنما ليذكرها بما لاينبغى لها أن تنسـاه :
ـ لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ؛ وليس بينكما ثأر ، ولكن اهله فوق وابناءه فى الخارج ..
فقالت متمادية فى اغاظة السـيد :
ـ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وانت بركة فسق !
فرماها بنظرة احتجاج قائلا :
ـ جليلة .. ! .. لا حول ولا قوة الا بالله .
ـ جليلة ام زبيدة يا ولى الله ؟!
ـ حسبى الله ونعم الوكيل ..
فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الاعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقــاضى ينطق بالحـكم :
ـ سيان عندى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النسـاء ولكن يؤسفنى ورأس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى ذنيك (مشيرة الى نفسها) فى القشدة ..
عند ذاك نهض السيد محمد عفت ـ وكان من أقرب المقربين اليهـا ـ وقد خاف أن يتمـادى بها السكر الى ما لا تحمـد عقباه فتنــاول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا فى اذنها :
ـ حلفتك بالحسين الا مارجعت الى مستمعاتك المنتظرات على نار ..
فطاوعته بعد ممانعة ولـكنها التفتت نحو الســيد وهى تبتعد رويدا وقالت :
ـ لا تنس أن تبلغ تحيــاتى الى القارحة ، ونصيحتى اليـك ـ بحق الأخوة ـ أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء ..
شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن ينكشف امام كثيرين ـ خاصة أهله ـ ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة ، أجل لم يزل ثمة أمل فى الا يبلغ الحادث احدا من آله ولكنه أمل ضعيف ، ولم يزل ثمة رجاء فى الا يفهموه اذا بلغهم ـ بما طبعوا عليه من براءة ـ على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب ، بيـد انه على أسوأ الفروض لا

يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحيـة أخرى أثبت من أن يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها ، وفضلا عن هذا فان احتمال انكشاف امره لدى احد من ابنـائه أو لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالغرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذلك أكثر مما ينبغي ؛ لثقته بقوته ، ولانه لم يعتمد فى تربيتهم على القـدوة والاقناع فيخـاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها ، ولانه استبعد أن يطلعوا على شيء من امره قبل ان يبلغوا اشدهم أى حين لا يهمه كثيرا ان ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع ان يلطف من أسفه على ما وقع ؛ حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى ، اذ ان مجيء امراة كجليلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه أو لتعابثه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد « حادث » له مغزاه الهام فى الأوساط التى تشهد لياليـه ، وظاهرة لهـا دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئا ، ولـكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحـادث الجميل بعيدا عن هـــذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمـد عفت . دهش فهمى دهشـة بكرا دار لها راسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة « انه من حينا ولا بد انك تسمع عنه .. السيد أحمد عبد الجواد .. » على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فادرك ـــ فى سعادة أيقظت فى قلبه نشوة الاعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه فى حجرة زنوبة ـ أن جليلة مغامرة أخرى فى حياة أبيه التى بات يؤمن بانها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وان الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه ، ولبث فهمى يأمل ويرجو أن يعمم بين حين وآخر بأن العـالمة انما ارادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشـة حتى جاء خليـل شوكت وأخبرهما ضاحكا بان جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذاك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على اذن اخيه قائلا وهو يغالب ضحكة « كتمت عنك أشياء تحرجت من البوح بها فى حينها ، أما وقد رايت ما رايت وسمعت ما سمعت فسابوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما راى فى بيت زبيدة العالمة ، وفهمى يقاطعه من آونة لأخرى قائلا فى ذهول « لا تقـل هذا .. » « هل فقـــدت وعيك » ، « كيف تريدنى على ان أصدقك ».

حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها : لم يكن فهمي . بما نبأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم ــ بله هضم ــ السيرة الخفية التى تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من اركان عقيدته ودعائم مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين شعوره وهو يعانى هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين ــ أن صدق الخيال ــ وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة : ولعله لو كان قيل له ان جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة اسفل بنائه والضريح عاليه ، او كان قيل له أن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « ابى يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف ! . . ابى يذعن لمداعبة جليلة وتوددها ! . . ابى السكر الزنا ، كيف اجتمعت الثلاث ! . . اذن هو غير الأب الذى عرفته فى البيت مثالا للورع والقوة ! . . ايهما الصحيح ؟ . . كأنى أسمعه الآن وهو يردد : الله أكبر . . الله اكبر . فكيف ترديده للغناء ! . . حياة تمثيل ورياء ! . . ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للدعاء ، صادق اذا غضب . . أيكون ابى رذيلة ام يكون الفسق فضيلة !. .

ــ ذهلت ؟! . . ذهلت انا أيضا عند ما تعلقت زنوبة باسمه : ولكن سرعان ما استخففت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا ؟! . . كفر ! . . هكذا الرجال جميعا أو هكذا يجب أن يكونوا . .

« هذا القول جدير بياسين حقا . . ياسين شىء وابى شىء آخر . . ياسين ! . . ما ياسين ! ؟ . . ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وابى ، ابى نفسه ، لا يختلف عنه فى شىء ان لم يفقه تدهورا . . كلا ليس تدهورا . . ثمة امر اجهله . . ابى لا يخطىء . . غير قابل للخطأ . . فوق الشبهات . . وعلى أى حال فوق الاحتقار . .

ــ ما زلت ذاهلا ؟ !

ــ لا اتصور شيئا مما قلت . . !

ــ لماذا ؟ . . اضحك وافهم الدنيا ، يغنى وماذا فى الغناء من عيب ؟ ويسكر وصدقنى ان السكر الذ من الأكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه ، ليس على أبينا حرج ، اهتف معى ليحيى السيد احمد عبدالجواد ، ليحيى ابونا ، سأتركك لحظة ريثما أزور ــ لهذه المناسبة ــ الزجاجة التى اخفيتها تحت الكرسى .

بعودة العالمة الى التخت شاع فى الحريم نبأ مقابلتها السيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تناهى الى الأم وخديجة وعائشة ،

(١٦)

ومع انهن كن يسمعن شيئا كهذا لأول مرة الا ان سيدات كثيرات - ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من اسباب المودة - تلقين النبأ فى غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذى يعرف أكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض فى الموضوع اما لأن الخوض فيه جهارا أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن واما لأن دواعى المجاملة املت عليهن بأن يسكن عنه حيال امينة وكريمتيها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا امينة هانم فالظاهر ان عين جليلة زاغت الى السيد احمد ! » فابتسمت امينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك ، ومع انها الفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز فى قلبها فأحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا فى صميم كبريائها ، وارادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن لها وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيغان عين زوجها الى امرأة اخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت - على اى حال - بعض العزاء عما تعانيه من الم صامت ، الا انه لما بدأت جليلة اغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجىء وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب . هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشهما لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بألم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجدا فى قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس ابيهما لتحيته ومحادثته شيئا مثيرا للاعجاب حقا ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية فى استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع انها رأتها تبتسم الا انها فطنت من أول وهلة الى انها تكابد ألما وارتباكا فتنغص عليها صفوها وأحست بضيق ومالبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله ..

ولما ازفت ساعة الزفة نسى كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة فى ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان ..

*

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد أحمد فى المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذى أفرغ ما فى وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم فى مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب . ثم جاءت فى المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وام حنفى ، انضم كمال الى القافلة على رغمه فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة وأخرى صوب بوابة المتولى ليودع أسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك المصباح المضيء الذى رقى عامل فى سلم خشبى اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكربة ، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر الى اسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد امه ، ورفع بصره الى والدته وسألها هامسا :

— متى تعود ابلة عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

— لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا ..

فهمس مرة أخرى محنقا :

— ضحكتم على .. !

فاشارت بيدها الى الأمام ، فى اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة ومطت شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا باستحضار صور مما مر به فى بيت العرس الى مخيلته ، راى أنها متناهية فى غرابتها وفيما بعثته فى نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وام حنفى ثم همس متسائلا وهو يشير الى الوراء :

— أما علمت بما يدور هنالك ؟

— ماذا تقصد ؟

— نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الأم جزعا لأنها حدست أى باب يعنى ولكنها سألته مكذبة نفسها :

— اى باب ؟

— باب غرفة العروس ..!

فقالت المرأة بانزعاج :

— ياله من عيب أن ينظر الانسان من ثقوب الأبواب ..!

فهمس من فوره :

ـ ما رايته اعيب . .
ـ اخرس . .
ـ رايت ابلة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج . . وهو . .
فلكزته فى كتفه بشدة حتى امسك ثم همست فى اذنه :
ـ يجب ان تخجل مما تقول ، لو سمعك ابوك لقتلك . .
ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بانه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن ان تتصور هى وقوعها :
ـ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها . .
ولكزته مرة اخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فادرك انه اخطأ حقا وهو لا يدرى وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة ـ وقد تخلفت عنهما أم حنفى لتسك الباب وتضببه وتترسه ـ الح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة فى الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسالها برجاء :
ـ لماذا يقبلها يا نينة ؟
فقالت له بحزم :
ـ اذا عدت الى هذا أخبرت والدك . . !

ـ ٤١ ـ

آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ، ما كاد يخلو الى فهمى ويأمن الرقباء ـ سرعان ما غط كمال فى نومه عقب وضع راسه على المخدة مباشرة ـ حتى جمحت به رغبة فى العربدة كرد فعل للجهد العصبى الذى بذله طوال السهرة ، خاصة فى طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :
ـ قارن بين خيبتنا وبين براعة ابينا !. . حقا انه لرجل . .
وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من الم فهمى وحيرته الا انه قنع بان يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :
ـ البركة فيك فانت نعم الخلف . .
ـ ايحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟

— وددت لو لم تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة فى نفسى .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه فى سرور :

— الصورة الحقيقية ابهى وامتع ، أعظم من اب هو المثل الأعلى . آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر ! عفارم . . عفارم يا سيد احمد !

فتساءل فهمى فى حيرة :

— وحزمه وتقواه ؟!

فقطب ياسين ليركز فكره فى المسألة ولكنه وجد نفسه فى حال الجمع بين الأضداد اروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :

— ليس ثمة مشكلة على الاطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، ابى حازم ومؤمن ويحب النسوان : شىء بسيط واضح مثل ١ + ١ = ٢ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن واحب النسوان وان قل نصيبى من الحزم ؛ أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق ايمانك وحزمك اذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !

لعله نسى عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذى دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن ابيه فى الظاهر فقط ، اما فى الحقيقة فلم يكن الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أرثها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب جسده فى الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكمها او ملاطفتها ، ولكن اين يجد مطلبه ؟ . . هل يتسع له الوقت ؟ . . زنوبة ؟! . . ماذا يحول بينه وبينها ؟ . . طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث ان قال لأخيه :

— الجو حار ، سأصعد الى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب . .

وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متلمسا طريقه فى ظلمة فاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة فى هذه الساعة من الليل ؟ . . هل يطرق الباب ؟ . . ومن عسى أن يجىء لفتحه ؟ . . وبم يجيبه اذا سأله عن مقصده ؟ . . واذا لم يستيقظ احد لفتح الباب ؟ . . أو اذا جاء الخفير ليراقبه بتطفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة فى تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق

ينبغي تقدير عواقبهـا ولكنه ابتسم لهـا كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاورها خيـاله طائرا الى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادفية فتخيلها فى قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطـاوعا فوق النهـدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية . خرج ـ بخروجه الى الفناء ـ الى ظلمة اخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من اضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور . وعندما خطا خطوتين متجهـا الى البـاب الخارجى فى آخر الفنـاء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فالقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منـه على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استحبت النوم فى الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينهـا من موقفه ، الذى لم يفصله عنها الا بضعة أمتـار ، بوضوح غير منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التى رسمت فى الهواء بحافة الجلباب المتحسرة بالركبة هرما قائما وكشفت فى نفس الوقت عن فخذها اليسرى التى لاحت عارية فيما يلى الركبة ثم غرقت فى ظلمة الفرجة التى انحسر عنهـا الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع ان احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا إنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيـد منه ، أو لعـله لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدرى الى تفرسه بامعـان بدا فى يقظة عينيه المحمرتين وانفراج شفتيه المبتلتين ، فاستحالت يقظـة العين ـ وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة ـ رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والسـاق الممدودة ، ثم تحول التيـار المضطرم فى شرايينه من التطلع صوب باب الخروج الى حجـرة الفرن ، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التى خالطها اعواما طويلة بغير مبالاة . على أن أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن ، وبدا وجهها الجهم اكبر من سنها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان ـ لتنـافره وسوء تنسيقه ـ بالانتفاخ الغليظ أشبه ، والدلك ، وربمـا أيضا العلوا الزوائها فى حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدات مع صباه ، لم

يلتفت اليها قط ، بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها اية قدرة على التمييز فأعمته الشهوة ، وأى شهوة ؟ شهوة موائمة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والسمان عندها فى « الأزمات » سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه فى القمامة ، عند ذاك بدت له مسامرته الأولى ــ زنوبة ــ محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب ، ولم يعد « الوصول اليها فى هذه الساعة من الليل ، وطرق الباب ، وما يقول لفاتحه ، والغفير » دعابات يبسم لها ؛ ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم فى خفة وحذر فاغرا فاه ، ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذى بدا لعينيه النهمتين وكأنه اخذ أهبته لاستقباله ، حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ؛ ثم انحنى عليها قليلا قليلا بلا وعى تقريبا ، وباغراء شديد من الداخل والخارج معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغى أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذى انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية ــ سبقت يده التى رامت كتمها ــ فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فاطبق راحته على فمها وهو يهمس فى اذنها بقلق وخوف بالغين :

ــ انا ياسين ، انا ياسين يا أم حنفى ؛ لا تخافى ..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ؛ ولكن المرأة ــ التى لم تمسك من المقاومة قط ــ تمكنت اخيرا من أن تنحيه عنها ؛ فاستوت جالسة وهى تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت ازعجه ارتفاعه أيما ازعاج :

ــ ماذا تريد ياسي ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

ــ لا ترفعى صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافى ؛ ليس ثمة ما يدعو الى الخوف بتاتا ..

فعادت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :

ــ ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد فى شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما رأى فى خفضها لصوتها امارة مشجعة وقال لها :

ــ ماذا اغضبك ؟ لم أرد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى الى حجرة الفرن ..

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :

- كلا يا سيدى ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال ، لعلها لم تعبر اصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجاة ، مفاجاة لم تسبق يوما بتمهيد من اى نوع كان ، التى انقضت عليها فى نومها كما تنقض الحداة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا ادنى تفكير حقيقى فى الصد او الزجر ، بيد أنه اساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت براسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن أن اراجع بعد ان كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لا بد مما اريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة فى انجع وسيلة للتغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه - قبل ان يتخذ قرارا - سمع حركة غريبة ، لعلها حركة أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع فى نهايته ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق اذا بوغت فى مكمنه واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فراى والده وهو يجتاز العتبة مادا ذراعه بالمصباح . تسمر فى مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائساً . ادرك من نوه ان صرخة ام حنفى لم تضع هباء ، وان النافذة الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ماجدوى الادراك المتاخر ؟ .. لقد وقع فى فخ القضاء والقدر . وجعل السيد يتفرس فى وجهه بقسوة ، صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه القاسيتين اشار بيده الى الباب يأمره بالدخول » ومع أن الاختفاء كان احب اليه فى تلك اللحظة من الحياة نفسها الا انه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا ، فضاق صدر الأب ولاحت فى عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه - اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه - ترسلان شررا ..

- اطلع يا مجرم يابن الكلب .

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يتلفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لا يبالى ظلمة ..

- ٤٢ -

علم بفضيحة ياسين شخصان ـ غير ابيه وام حنفى ـ هما ست امينة وفهمى ، سمعا صرخة أم حنفى ، فشاهدا من نافذتيهما مادار بين النائب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على ان السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسالها مدققا عما تعلم من اخلاق « ام حنفى » فدافعت امينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بانه لولا «صرختها» ما درى احد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لانه « ما كان ينبغى ان ينجب أطفالا ليكدروا صفوه باهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت واهله جميعا ! . . وظلت امينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كانما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق فى النوم حين عاذ أخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشىء ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة اكراما لاحترام يكنه له بصفته اخاه الاكبر ، احترام لم تذهبه كله ماتكشف له من استهتاره ومجونه أو ماتقدم هو به عليه من علم وثقافة، او ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام احد من اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، اجل لم يزل يكن له احتراما لعل حرصه على الابقاء عليه راجع الى ما يأخذ به نفسه من تأدب وجد ورزانة اكسبته مظهرا اكبر من سنه ، بيد أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ ـ غداة الواقعة ـ أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بانه لما يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة ـ بسوء ظنها الطبيعى المرهف بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فسألت أمها ولكنها لم تجد جوابا شافيا ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل ايضا ، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملا أن يجد فى الجواب مايبشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمى والأم بارتباطه بميعاد الا أن خديجة قالت بصراحة « فى الأمر شىء ، لست عبيطة . . اقطع ذراعى ان لم يكن ياسين متغيرا ». وعند ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه . .

وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمى اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه لمائدة أبيه حتى دعى ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه الدعوة ، وان أزعجته رغم ذلك — فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من أن اباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التى كادت تلقيه على وجهه ، وانه لا بد عائد اليها بطريق او بآخر ولعله توقع ايضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا على التفكير فى مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، اجل لا يجمل بأبيه — ابيه كما عرفه فى بيت زبيدة خاصة — أن يلقى زلته بهذا العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى اين؟ . . ليس الا ان يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها الملاذه ، لقهوة سى على وحانة كوستاكى وزنوبة ، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفىء شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا . مهما يقل ابى أو يفعل فهو ابى وهيهات ان تضام حيال تاديبه » ثم قال بصراحته التى يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ؛ دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب اليك كرامة سيادتك ام كونياك كوستاكى وسرة زنوبة » هكذا عدل عن التفكير فى مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجسا ، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير ان يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر والقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

— ما شاء الله ! . . طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائى فى الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجىء الى البيت ليراك على حقيقتك . .

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة :

— قررت أن تتزوج . . !

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها أذنيه ، كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال انه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك ان رفع عينيه الى وجه ابيه حتى اذا ما التقتا بعينيه

الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد الوجه لائذا بالصمت : وفطن السيد الى أن ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الفظة التى كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التى أملت عليه ان يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه فى نبرات صوته . وهو يقول عابسا :

ـ الوقت ضيق وأريد ان اسمع جوابك . .

ما دام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى الا ان يسمع جوابا واحدا . ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذى يريد : لا طاعة لأمر فحسب . ولكن تلبية لرغبته هو أيضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول :

ـ الرأى رأيك يا بابا . .

ـ تريد ان تتزوج أم لا ؟ . . انطق . .

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا :

ـ مادامت هذه هى ارادتك فانى موافق على العين والراس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

ـ سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوى، لقية ظفرها برقبة ثور مثلك .

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا :

ـ ولكنى بفضلك أصير كفئا لها .

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مداهنته وقال :

ـ من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق . . اغرب عن وجهى . .

وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه باشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

ـ اظنك حوشت المهر ؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا . .

ـ ولكنك عشت رغم توظفك فى كفالتى كما كنت تعيش وانت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله أنه منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن أطالبك بمليم واحد كى أهيىء لك فرصة الاقتصاد

مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه ،.ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق انه لم يتصور أن يجنح أحد من ابنائه — بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين — الى هوى من الأهواء الجامحة التى تبدد المال ، لم يتصور ان ينقلب ابنه « الصغير » سكيرا ماجنا » فالخمر والنساء التى يراها فى حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى ايمانا تنقلب اذا « لوثت » أحدا من ابنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلك فان زلة الشاب التى كشفها فى فناء البيت طمأنته بقدر ما اغضبته لأن ام حنفى فى نظره لا يمكن ان تغرى شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة .. اجل لم يشك فى براءة ابنه بيد انه ذكر مالاحظه كثيرا من ولعه بالأناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان واربطة الرقبة وكيف لم يرتح الى ذلك وحذره الاسراف ولكن تحذيرا هينا ، أما لأنه لم ير فى الأناقة جريمة ، واما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى باسا فى أن يكرره ابناؤه — حركا فى صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟.. هى ما وضح له الآن من تبذيره نقوده فى التافه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

— اغرب عن وجهى .

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة تبذيره الذى لم يكربه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكر ولا تدبر ، ينفق ما فى جيبه حتى يفرغ غارقا فى ساعته ، متعاميا عما يسمونه « المستقبل » كانه شيء لا وجود له ، ومع انه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة أبيه الا انه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك ان تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضا ان السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذى يضيق أبوه بالحاحه فى طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة فى فرحة الظفر ولبث الأب ساخطا وراح يردد « ياله من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » أغضبه اسرافه كانه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا له فى الحياة ، ولكنه كان لا يرى باسا فى اسرافه كسائر اهوائه — مادام لا يفقره وينسيه واجباته او يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن ان يصمد امامه ياسين ؟.. فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه عن استبداد وانانية فحسب ولكن شفقا عليه وان دل شفقة هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور وزايله الغضب كعادته — بنفس السرعة التى ركبه بها ، فصفت نفسه وانبسطت اساريره واخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف سماح ..

« تريد أن تتشــبه بأبيك يا نور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى ، كن احمــد عبد الجواد كله ان اســتطعت او .فالزم حدودك . أحسبتني حقــا سخطت على تبــذيرك لانى كنت ارجــو ان ازوجك بنقودك ؟! .. خسئت . . انمــا رجوت ان اجدك مقتصــدا كى ازوجك بنقودى على وفرة النقود لديك ، هــذا هو الرجاء الذى خيبت وهل حسبتنى لم أفكر فى اختيــار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا . واى زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟!.. كلا يا بغــل انى أفكر فى ســعادتك منذ توظفت ، كيف لا وانت أول من جعلنى أبا ... وانت شريكى فى العذاب الذى أصلتنا اياه امك اللعينة ؟! .. ثم اليس من حقى أن أفرح بك خصوصا وانه على أن انتظر طويلا حتى أفرح بالنور الآخر أخيك أســير العشق ويا ترى من يعيش ؟! .. » فى اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفــه الراهن ذكر كيف قص على الســيد محمد عفت « جريمة » ياســين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهــه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب — الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة يا سين — وكيف قال له الرجل « الا ترى أنه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنــك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وصار رجلا مسئولا ؟ .. (ثم ضاحكا) الظاهر انك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر ابنــاؤهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلا : « هيهــات أن تتعرض الرابطــة بينى وبين أبنائى لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقــة لا حد لها ، على أنه اعترف له بعد ذلك أن معاملته تتغير فى الواقع بتغــير الأحوال وان عمل من جانبه على الا يفطن أحد الى نية التغيير الباطنــة ثم قال : « الحق انى لا اقبــل ان أمد يدى الآن على ياســين ولا حتى على فهمى ، والحق انى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن اقدر المدى الذى ذهبت اليــه » ثم اســتطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضى البعيد « كان أبى رحمة الله عليــه يلتزم فى تربيتى شدة تهون الى جانبها شدتى مع ابنــائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ ان دعانى الى معاونته فى الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منــذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت فى زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحيــة أخرى فلم يزد على أن قال لى « أتعــارضنى يا ثور .. وما دخلك فى هــذا الشأن ؟ .. انى أقدر منك على ارضاء أية امرأة » فما تمالكت أن ضحكت.

وطيبت خاطره معتذرا » ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل« اذا كبر ابنك آخه » فشعر — ربما لأول مرة فى حياته — بتعقـد مهمة الأبوة كما لم يشعر به من قبل . فى نفس الأسبوع اذاعت الأم خطبة ياسين فى مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسـه ، اما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنا منها أن الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين فى الزواج قياسـا على ما كان بين الأب وفهمى فلسبب نفسـه فصرحت برايهـا كالمتسـائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك :

— الحق ان ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

— بابا معذور فى غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه امام صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجاراها ياسين فى سخريتها قائلا :

— وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور بأن العريس اخنا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

— هل سيتركنا ياسين كما تركتنا ابله عائشة ؟!

فقالت له امه باسمة :

— كلا ولكن ستنضم الى بيتنا اخت جديدة هى العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى بقاء « راويته » الذى يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة ايضا ؟.. فاجابته امه بأن العادة قضت بان العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسـين ولطائفه بيـد انه لم يستطع أن يجهر برغبته فافصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها الى امه ، فهمى وحده الذى اثار الخبر اشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولـكن لأن سيرة الزواج غدا من شأنها ان توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن ام فقدت ابنها .. فى موقعة ظافرة ..

— ٤٣ —

تحرك الحانطور مقلا الام وخديجـة وكمال فى طريقه الى السـكرية . أيكون زواج عائشـة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ أيقدر لهم أخيرا أن يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسـوا هواءها الطليق ؟! . بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث ، فالذى حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليهـا زيارة ابنتها كذلك ولم تنس انه مضت أيام كثيرة على زواج الفتـاة زارها خلالها الأب وياسـين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن لها هى بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة فى السكرية يجب أن تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على أنه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

— ان شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبـا لنطمئن عليهـا ؟..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لأنه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود — كشأنه فى مثل هذه الحالة — أن يصـدر السماح منه منحة غير مسـبوقة بطلب ان تقوم بنفسها شـبهة بأن طلبها ذو أثر فى استصدار السماح ؛ فـكره أن تسعى الى تذكيره بهذا السؤال المـاكر ، ومن قبـل فكر فى الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا :

— عائشة فى بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على اننى زرتها كما زارها أخواها فماذا يقلقك عليها ؟!

غاص قلبها فى صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا ، اما السيد فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبـة لها على ما عده مكرا منها لا يغتفر ، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشى أساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

— اذهبى غدا الى زيارتها .. !

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذى لا تخفى بصفحته خافية فبـدت فى سرور الطفل فما عتم إن عاوده حنقه فصاح بها :

ــ لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا . . !

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى تشاور خديجة فى مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :

ــ هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة ؟

فهز رأسه كانما يقول « ما شاء الله . . ما شاء الله . . » ثم قال لها محتدا :

ــ طبعا . . طبعا . . ! ما دمت قد قبلت أن ازوج ابنتى فيجب ان تنضم اسرتى الى أبناء الشوارع !. خذيها ، ربنا يأخذكم جميعا . .

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الأخير الذى الفت سماعه . . . واكثر ــ فى أوقات غضبه او تظاهره بالغضب على السواء ، كانت تعلم بانه من طرف لسانه وانه أبعد ما يكون من قلبه ، مثله كمثل القطة تبدو ، حين تحمل صغارها ، وكأنها تلتهمها . تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم فى طريقها الى السكرية . بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمه واخته وركوبه الحانطور ، أوفر الثلاثة سرورا ، وكانه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب فى اعلانه على الملأ او لعله اراد لفت الأنظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه فى الحانطور بين امه واخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا « يا عم حسنين . . أنظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يحد دد وحده غض بصره فى عجلة مبتسما فذابت الأم خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكرية ــ وليس كذلك بدا فى حلة الأنوار ليلة الفرح ــ عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن ضخامة بنيانه ونفاسة اثاثه على السؤدد والجاه ، قال شوكت اسرة « قديمة » وان لم يبق لهم من عزة القدم ــ خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم ــ الا الاسم . وقد أقامت العروس بالدور الثانى على حين نزلت حرم المرحوم شوكت ــ ومعها ابنها الأكبر ابراهيم ــ الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسعهم أن يشغلوه وابوا أن يسكنوه . ولما ادخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته كما لو كان فى بيته ، بأن يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على اخته مستمتعا بلذة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى فى السلم ولكن امه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخادم تقودهم الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بانهم يعاملون معاملة

« الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد فى جزع « اين عائشة ؟ . . لماذا نبقى هنا ؟ » فلا يسمع الا كلمة «هس» وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة أخرى اذا علا صوته ! . . ولكنه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع !.. بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمى ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجرأة على ان ترجوه السماح لهم بزيارتها !.. قالت « لا ادرى كيف طاوعنى لسانى حتى تكلمت !.. لعل مظهره الجديد الذى لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى » بدا لطيفا وديعا باسما ، اى والله باسما ، على اننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت أن ينقلب فجأة فينتهزنى ؛ ثم توكلت على الله ونطقت ! » فسألتها امها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شىء بحساب . فخفق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عند ما قيل لها « السيد الكبير فى حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل أثر للمساحيق حتى تساءل سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : أدركنى ، لا أستطيع ان القاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى ! .. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى ! » ثم قالت « ولما علمت نينة .. (ضاحكة) أعنى نينة الجديدة .. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكت وقالت له : انى أعرف السيد احمد تمام المعرفة .. هو هذا واكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى يا شوشو انك لم تعودى من آل عبد الجواد ، انت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين .. » . أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل فى ليلة الزفاف وتساءل محتجا « لماذا لم تكونى تبدين هكذا وانت فى بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم اكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمقتها بعين الحب ، انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح بزواج الفتاة

قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتـاة ، فلم يعـد ينطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشـد ما تفتقدها كلما آنست من نفسـها حاجة الى انيس تفضي اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجـديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى ، والمآذن التى تنطلق عن قرب ، وتيـار السابلة الذى لا ينقطع ، كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وابنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما اخبرنى سى خليل ! » وواصلت حديثها « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضـارب رمل ، أولئك جيرانى الجدد ، الا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا ، لا تسألوا عن أفواج النسـاء والرجال الذين يجلسون القرفصـاء أمامه مستخبرين عن طوالعهم ، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسـمع ما يقول لهم ، والذ منظر منظر سوارس القـادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضـاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سـائق رأسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الـكلام لينا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الحنـاجر بالسباب والشتـائم ، وتجيء فى اثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بهـا الطريق ولا يدرى احد كيف يعود الحال الى ما كان عليه « هنـاك اقف وراء الخصـاص اكاتم الضحك واتأمل الوجوه والمناظر » وما اشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سـيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا اذكر المطبخ حتى تحمل الى صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسـها من أن تضـحك قائلة « نلت ما طالمـا تمنيته ! » لم يجـد كمال فى الحديث شيئا ذا بال الا انه أحس فى نغمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها :

— الن تعودى الينا ؟ . .

فملأ الحجرة صوت يقول :

— لن تعود اليكم ياسى كمال . .

واذا بخليـل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسـمه الربعة فى جلباب حرير أبيض . كان ذا وجـه بيضاوى ممتلىء ، ابيض البشرة ، فى عينيه جحوظ خفيف وفى شـفتيه غلظة ، اما راسه الـكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه فى لونه وتسريحته

شعر السيد ، تلوح فى عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها اثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم ليقبلها فجذبتها بسرعة فى خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه — على حد تعبير كمال فيما بعد — واحد منهم . وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرس فى وجهه طويلا ذاك الوجه الغريب اصلا الذى برز فى محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لأن يكون اقرب الأقرباء أو بالأحرى ان يكون قرينا لوجه عائشة . كلما خطر هذا على باله جر وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه طويلا وهو يردد فى نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود اليكم يا سى كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه لولا ان قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسما — وان كشف افترار ثغره عن سنتين ركبت احداهما الأخرى — نخبة من اشهى الأصناف . وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة عى ذراع رجل استدلوا بمشابهته بخليل على انه اخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. الم تعرفوه بعد ؟ ! » وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة « نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة ... لا بأس .. ! » فطنت أمينة الى أن المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شىء من القلق وتساءلت ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل — وان عد عضوا جديدا فى الأسرة كخليل سواء بسواء — بغير نقاب ؟ .. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا للسلامة ؟..

كان ابراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على ان اختلافهما بدا أقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمريهما ، والحق انه لولا قصر شعر رأس ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه ومظهره لا يتأثران بكرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو أقل من عمره الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه ! » ، أليس عجيبا أن يبدو ابراهيم فى الثلاثين مع أنه تزوج فى صدر شبابه وأنجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه ؟! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع امه فى خمول ودعة

وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق النظر — كلما أمنت أعين الرقباء — الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه العجيبة بينهما ، بيضاوية الوجه وامتلائه ، جحوظ العينين الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة فى نفسها حتى ضحكت افكارها ومضت تدخر فى ذاكرتها من الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على سنتها فى التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام فى اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الأسماء الوصفية التى تطلقها على ضحاياها من الناس او بالأحرى أسوة بأمهما التى تطلق عليها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها عند الحديث . واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا أن تلتقى عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرسان فى وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها فى حياء وارتباك ، وتساءلت فى خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق فى منظرها وما يمكن أن يتركه فى نفسه من اثر . ترى ايسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخموله ؟ ! . . . واستغرقها التامل والقلق . . .

سئم كمال الجلسة التى وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق — عدا ما منحت من حلوى — شيئا من رغابه ، فانتقل الى جوار العروس وابدى لها اشارة فهمت منها انه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها فى الصالة ولكنه جذبها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج . انطلقت أساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكى لعله بقية مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش الوثير ، الى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها « ماهما ؟ » فاجابته « وسادتان صغيرتان » فسألها « أتتوسدينهما ؟ » فقالت باسمة « كلا همـا للزينة فقط » فاشار الى الفراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسمة ايضا « فى الداخل » فسألها كانه متوكد من انه ينام معها « وسى خليل؟ » فأجابت وهى تقرس خده برقة « فى الخارج . . » عند ذاك التفت صوب « الشيزلنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث ان غاب فى الذكريات غاضا بصره ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد امه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما راى من ثقب الباب .

راودته نفسه على أن يبوح لها بسره ، أن يسالها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم رغبته على رغمه ، ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :

ـ لأملأن جيوبك بالشيكولاتة ...

- ٤٤ -

تصايح الغلمان المتجمهرون امام باب البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، وتميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين - وهو فى كامل زينته وابهته - من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف أمام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . فى تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما أيده فى ثباته احساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين فى حال تخجل منها الرجولة ، ولعله ايضا علمه بأن أباه منكمش فى مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التى تضم آل العروسين من الذكور - بحيث لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التى تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، أو الأمل الذى صاقه بأحلامه الظامئة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام . وتوقفت السيارة أمام باب البيت على راس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبته للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة فى أن يستشف النقاب الحرير ليرى وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء فى الأربعين قوية البنية لامعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التى تقرر الحاقها بخدمة العروس فى بيتها الجديد ، تنحت جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهى تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :

ـ تفضل خذ عروسك ...

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا ، ومد لهـا ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التى الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

ـ تشجعي يا زينب ...

دخلا جنبا لجنب وهى من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلها اللواتي تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلعت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار ، فلعلهـا وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بالا يكون زغاريد ولا غناء ولا لهو وبأن تمضى ليلة زفاف الابن البكر كما تمضى غيرها من الليالي وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكاكأن على خصـاص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتمت أمينـة قائلة : « لن يسعه الليلة الا أن يضحك مهما يبد مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفى الفرصة السـانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت ـ في ظل الارهاب ـ من فرص المرح والمسرة على عهـد خطبتى عائشة وياسين ، واقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استغرقن في الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة فى العمر .. انه لن يدرى الليـلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد ايصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والاشفاق لعلها أثر مما خلفته فى نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة ، فما كان من ياسين الا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء :

ـ أى استنكار فى أن نحيى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟! .. وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغن ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد الى الافصـاح عنها من سبيل الا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيـه ، ولـكن

السيد اعتذر وأبى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة وان تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفا :

ــ لن أجد من تزفنى فى هذه الليلة التى لن تتكرر ابد الدهر ! ... سأدخل حجرة العرس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون إيقاع ..

ثم لاحت فى عينه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

ــ الذى لا شك فيه أن أبانا لا يطيق « العوالم » الا فى بيوتهن !

مكث كمال فى الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة ثم نزل باحثا عن ياسين فى الدور الأول الذى هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده فى فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى أقامه الطاهى فأقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التى عهد بها اليه وقال له :

ــ فعلت كما امرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد ان حسرت النقاب عن وجهها ..

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :

ــ هه ؟ .. كيف عودها ؟

ــ فى عود ابله خديجة ..

ضاحكا ..

ــ فى هذه الناحية لا بأس ؟.. أتعجبك كعائشة ؟

ــ كلا .. ابلة عائشة اجمل كثيرا ..!

ــ يخرب بيتك أتريد أن تقول انها كخديجة ؟

ــ كلا انها اجمل من أبلة خديجة ..

ــ كثيرا ؟!

فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

ــ حدثنى عما أعجبك فيها ؟ ..

ــ انفها صغير كأنف نينة .. وعيناها كعينى نينة ايضا .!

ــ ثم ؟ ..

ــ لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا ..

ــ نحمده .. ربنا يبشرك بخير ..

وخيل اليه ان الغلام يغالب رغبة فى معاودة الكلام فسأله فى شىء من القلق :

ــ هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يغض بصره :

— رأيتها تخرج منديلا ثم .. تتمخط !

والتوت شفتاه تقززا كأنما كبر عليه أن تند تلك الفعلة عن عروس فى ريق فتنتها فما تمالك ياسين ان ضحك قائلا :

— لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالى الا من الطاهى وصبيانه ؟ وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغى أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهذا ؟ .. ابوه ! .. الرجل الذى يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب .. اعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه فى حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدرى الا وقد وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى، تلك هى التشابه بين طبيعتى أبيه وامه ! طبيعة واحدة فى شهوانيتها وجريها وراء اللذة فى استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد، ولعل امه لو كانت رجلا لما قصرت عن أبيه فى اللهج بالشراب والطرب ايضا ! لذلك انقطع ما بينهما — أبيه وامه — سريعا ، فما كان لمثله ان يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله ، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة ! . ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعه من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الآن من أكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لى أن اكون غير ما كنت ! » . فى اللحظة التالية تساءل ترى الم يخطئه الصواب عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟! تساءل رغم اصراره على الاعتقاد بانه لم يتنكب عن الصواب ، لعل اباه رام اراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال « أرى أن تبلغ أمك ، ولك ان شئت أن تدعوها الى شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور ان يرضى أبوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذى اتخذته أمه زوجا لها من بعد أزواج كثيرين ، وأن يتودد اليها على مرأى منه بان يدعوها الى شهود زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت اى سعادة فى هذه الدنيا ان حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة .. تلك الفضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب اباه وقتذاك قائلا : « لو كان لى ام حقا لكانت أول من ادعو الى زفافى ! » . انتبه فجأة الى الأولاد والبنات وهم يرنون اليه ويتهامسون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهورى ضاحك « هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟ » واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك

وان تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقة المرة وهى أن اباك الذى زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ؛ تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك حقا رجل الليلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفى نيته أن يمتثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم فى أناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيد أن الحركة نفضت عن نفسه طوارىء الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة . لما خطرت العروس على قلبه سرت فى بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاها عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يابن الكلب ! .. كتمت الخبر حتى نلت وطرك ! .. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب ! .. مع ألف شبشب يابن المركوب » ، لم تعد لزنوبة من اثر فى نفسه ، ولا لغيرها ، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته الى الأبد ، ربما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النساء فلم يتصور أن تزيغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، رى للظمأ الوحشى الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع ببهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى فى أى مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق فى وجهه قائلا :

ـ الطاهى قال لى أن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وانه سيتبقى منها مقدار وفير ...

— ٤٥ —

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجهـا زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هـذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين فى الدور الأعلى بجهـاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييرا يذكر فى النظام العـام للبيت سواء من الناحية السياسية التى ظلت خاضعة بكل معانى الـكلمة لسلطان السيد واراداته أو من الناحية الادارية الداخليـة التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسـير ان تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البـكر وان يجمعهما وبقية أفراد الأسره بيت واحد من دون أن يطرأ على العواطف والمشـاعر تطور ذو شأن . رمقتها الأم بنظرة امتزج فيهـا الرجاء بالحذر ، هـذه الفتاة التى قضى عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، اى انسـان تكون ؟ .. ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟.. بالجملة اسـتقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحـاذره ، أما خديجـة فعلى رغم المجـاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسـدد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السـخرية وسوء الظن ، منقبـة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت وفوزها بالزواج من اخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتـاة فى حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهمـا فى حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق « بها » ؟ » ومع أن الأم وجدت فى تهجمها ترويحـا عن حيرة ظنونها الا أنها اتخذت موقف الدفاع عن الفتـاة واجابتها قائلة « صبرك ، لم تزل عروسـا فى بدء عهدها الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشى بالاستنكار « ومن ذا الذى قضى بأن تكون خدما للعرائس ؟! » فسألتها أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هى « أتفضلين ان تستقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المـال مال ابيها لا مال أبى لجاز هذا ! .. ولكنى اعنى أنها يجب أن تعمل معنا » على أنه لمـا قررت زينب ، بعـد انقضاء أسبوع على الزواج ، أن تحمـل بعض الأعبـاء فى حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجـة بهذه الخطوة التعـاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها : « لم تجىء لتعـاونك

ولـكن لتمارس ما لعلها تدعيــه لنفسها من حق . » أو تقول ســاخرة « طالمــا سمعنا عن آل عفت أنهم من الصــفوة وانهم يأكلون ما لا يأكل النــاس . . فهل وجدت فى طهيها شيئا عجيبــا لم نسمع به ؟! » بيد أن زينب اقترحت يوما أن تصــــنع « الشركسية » باعتبـــارها الصنف الأثير على مائدة أبيهـــا ـ وهى المرة الأولى لدخول الشركسية فى بيت السـيد ـ فحازت لدى تنــاولها اعجابا شــاملا بلغ أقصاه عنــد ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسـعبة غيرة اما خديجـة فجن جنونهــا وجعلت تهزأ بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنــا يعيش المعــلم يتعلم ولكن رماذا رأينــا ؟ . . أرزا وصلصة فى هيئــة بوليتيكا ، طعمها لا هنــا ولا هناك . . كالعروس تزف الى عريسها فى حلة خلابة وحلى لألاء حتى اذا ما نزعت عنها ثياب العرس بدت فتــاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج اسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال أن العــروس وان كانت بيضــاء البشرة وذات حظ « معتدل » من الجمــال الا أن دمها ثقيــل كالشركسية سواء بسواء قالت هــذا فى نفس الوقت الذى أكبت فيــه على استظهار دقائق صــنع الشركسية بحذقها المعترف به ! على أن ثمة احاديث صــدرت عن زينب بحسن نيــة ـ فى الأقل لأن وقت سوء النية لم يئن بعد ـ فأثارت الخواطر والقت عليها ظلا من الشك اذ طاب لهـــا كلما تهيأت مناسبة أن تنوه بأصلها التركى وان التزمت الأدب واللطف كما لذ لها أن تروى لهم بعض ما شاهدت من رحلات فى حانطور والدها وبصحبته الى الملاهى البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعا أدهشها الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحيــاة التى تسمع عنها لأول مرة ، وأنكرتها ، واســتنكرت فيما بينها وبين نفسها هــذه الحرية الغريبة اســتنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المبــاهاة بالأصل التركى ـ وان لطفت بالأدب والبراءة ـ ســاءتها كثيرا لأنهـــا كانت ـ على تخشعها وانطوائها ـ شــديدة الاعتزاز بأبيها وبعلهـــا فترى أنها بهما فى مكانة لا تدانى ، الا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منهـــا الا اهتمام الاصغاء وابتســامة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشــديد على الســلام لانفجرت خديجــة حنقا ولساءت العاقبــة ، على أنهـــا نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنبــاء الرحلات مثلا ـ وهى التى لم يسعها أن تجهر فيهــا برأيها ـ بالمبــالغة فى اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملق فى وجه محدثتها « يا خبر ! » ؛

أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهى تقول : « ويراك السـابلة وأنت تمشين فى الحديقة ! » ، أو بقولها : « ما كنت أتصور امكان هذا يا ربى ! » وغير ذلك من العبارات التى وان لم تفصح الفاظهـا عن اساءة الا أن لهجتها المطوطة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجـة الزجر التى يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن مصليا اذا ما آنس من ابنه غير البعيـد عنـه اخلالا بالنظام او الأدب وعز عليـه زجره صراحة أن يخـرج من الصلاة ، لذلك لم تكن تخلو الى ياسـين حتى تبادره مروحة عن غيظهـا الذى عز عليه المتنفس « يا سلام يا سـلام على عروسك النزهيـة ! » فيقول لها ضاحكا « هذه هى الموضة التركية التى تسمو على ادراكك ! » فتذكرها صـفة « التركية » بالمباهاة الثقيـلة على قلبها فتقول « على فكرة ، ست الدار تبـاهى كثيرا بأصلها التركى ، لـماذا ؟ . . لأن جد جد جد جد جـدها تركى !. حذار يا أخى فان خاتمة التركيات الجنـون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون أحب الى من وجه انفه يجنن ذا الذوق السليم ! » . تراءى لأعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجـة وزينب فى أفق الأسرة فنبهها فهمى الى ضبط لسـانها أن يبلغ الفتـاة شىء من هذرها ، واشار مخلدا اشارة خفية الى كمال الذى داب على التنقـل بينهم وبين العروس تنقل الفراشـة — حاملة اللقـاح — بين الأزهار !. . ولـكن غاب عنه — كما غاب من الأسرة جميعا — أن القـدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتـاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبـل بأن تتوج بالنهاية التى توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :

— يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى ابراهيم . .

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صـوت المرأة فى أذنى الأم سجعا جميلا حتى أنها لم تذكر أن قولا — قبـله — بل صـدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بله فكاد ينتخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج :

— ليس لى فى خديجة أكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجـدن فى حمـاك اضعاف ما تجد فى بيت أبيها من السعادة . .

استرسل الحديث السعيد الا أن خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول ، خفضت عينيها فى حياء وارتبـاك وقد زايلتهـا روح السخرية التى طالما توهجت فى حدقتيها ، فشـملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها . جاء الطلب مفاجاة ، وأى مفاجاة ، فـكما بدا عسيرا

فى غيابه بدا غير مصدق فى حدوثه حتى لقــد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول .. « لأخطب خديجــة لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟ .. انه على خموله الذى اثار هزءها حسن المحيا وجيــــه فى الرجال . فماذا دهاه ؟ !..

ــ ومن حسن الطالع ان يجمع بين الأختين فى بيت واحد .

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوهها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فاى حظ ادخرته لها الأقدار . لشد ما أسفت على أن عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تــكن تدرى ان زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها أبواب الحظ المغلقة ..

ــ ما أجمل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب جوهرى من اسباب وجع الدماغ فى الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حماتهــا واظن امرها هينا .. !

ــ ان تكن سلفتها هى شقيقتها فحماتها هى امها بلا نقصان ...

لم تزل الأمان تتجاملان ، لقد أحبت العجوز وهى تزف اليها البشرى بقدر ما ابغضتها يوم خطبت عائشة !. يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق أن تؤجله الى الغد ، لا تدرى ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ؛ لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة « ماذا كان عليهم لو انهم انتظروا حتى تتم خطبتك انت ! » فاغراها وقتــذاك سوء ظنهــا المطبوع باتهــام براءته الظاهرة . ولما انصرفت اسرة شوكت قال ياسين بقصــد التحرش والدعابة :

ــ الحق انى مذ رأيت ابراهيم شــوكت قلت لنفسى ما أجدر هــــذا الرجل الثور الذى لا يبدو أنه يفرق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشــة :

ــ هل عرفت الأدب والحياء اخيراً !

بيد ان وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعــكر صفوهم الا حين تساءل كمال فى قلق :

ــ اتتركنا خديجة ايضا ؟

فقالت الأم تعزيه وتعزى نفسها :

ــ ليست السكرية بعيدة ..

على أن كمال لم يســـتطع ان يدلى بما عنــده فى حرية كاملة الا حين

انفرد بأمه ليلا فتربع قبالتهـا على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم :

ـ ماذا جرى لعقلك يا نينة ؟ .. اتفرطين فى خديجة كما فرطت فى عائشة ؟

فأفهمته انها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما . فقال محذرا كأنما ينبهها الى شىء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى :

ـ ستذهب هى الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة ، ولكنها لن تعـود ، وستزورك اذا زارتك كالضيفة فما ان تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، انى اقولها فى صراحة انها لن تعود ..

ثم محذرا وواعظا فى آن :

ـ ستجدين نفسك وحـدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟... من يعينك فى حجرة الفرن ؟ من يجالسنا فى جلسـة المسـاء ؟.. من يضحكنا ؟ .. لن تجـدى الا أم حنفى التى سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة اخرى أن السعادة لن تكون بلا ثمن فقال محتجا :

ـ ومن ادراك أن فى الزواج سعادة ؟!.. اؤكد لك انه لا سعادة مطلقا فى الزواج ، كيف يحظى احد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟!

ومردفا بحماس :

ـ ثم انها لا ترغب فى الزواج كما لم ترغب فيه عائشـة من قبل .. لقد صارحتانى بذلك ذات ليلة فى فراشهما .. !

ولكنها قالت له انه لابد للفتـاة من أن تتزوج ، فلم يتمـالك من أن يقول :

ـ من قال بأنه لا بد للفتـاة من أن تذهب الى بيـوت الغرباء ! . ثم ماذا تفعلين لو اجلسها الآخـر على الشيزلنج وتنـاول ذقنها هى الأخرى و ...

عند ذاك زجـرته وامرته بالا يتكلم فيما لا يعنيـه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :

ـ انت حرة .. وسترين ! .

فى تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفـرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تغشـاها الظلماء ، فظلت مسـتيقظة حتى جاء السـيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة اطارت من رأسه

الحمار بالرغم مما فى هذا الراس من نظريات غريبة عن زواج البنات ، الا أنه تجهم بغتة متسائلا :

ــ هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!

ساءلت المراة نفسها الا يمكن أن يدوم ابتهاجه ــ ونادرا ما يعلنه ــ اكثر من نصف دقيقة ؟.. وتمتمت فى قلق :

ــ أمه ..

فقاطعها محتدا :

ــ لا أسال عن أمه ، هل أتيح له أن يراها ؟

فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة فى تلك الليلة :

ــ دخل علينا مرة فى شقة عائشة باعتباره فردا من الأسرة فلم أر فى ذلك من بأس ..

فتساءل مزمجرا

ــ ولكننى لم أعلم بذلك ..

كل شيء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة قاضية ؟.. على رغمها أغرورقت عيناها بالدمع وما تدرى الا وهى تقول مستهينة بغضبته المكفهرة :

ــ سيدى ، حياة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين ..

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدما مهينما مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها أسلافه الأولون ، ولكنه لم يزد على ذاك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم خصمه ــ وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها ــ ذودا عن مبادئه ..

- ٤٦ -

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل فى النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا ، وفيما عدا هذا فلم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن انه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه أدرك فى الثلث الأخير من الشهر ان تفاؤله لا بد وأن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدرى كنهه قد طرأ على حياته ، كان يعانى فى حيرة بالغة ولأول مرة فى حياته ذاك المرض المتوطن فى نفس الانسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحرزها تحت سقف بيته ، فأى فتور يبخر من هذه « الملكية » الآمنة المطمئنة .. الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاته المزيفة التى تهدى فى أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وأى مأساة فى أن تندمج نشوة القلب والجسد فى آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت فى صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى !.. وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع وأين جاء ، عن تلك الفتنة أين ذهبت ، أين ياسين وأين زينب ، أين الأحلام ، أهذا شأن الزواج ألم شأنه هو ، وكيف اذا تتابعت الشهور فى أعقاب الشهور !.. ليس أنه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم فى المديد الماكل ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته انه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدرى الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجبا .. أحلامى عن الزواج تحققت عندها هى ! » . الى هذا كله وجد فى عناقها نوعا من الاحتشام وان طاب له أول الأمر انه جعله

يهيم آخرا فى وديان الذكريات التى ظن انه ودعها الى الأبد . طفت على رأسه من الأعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر ببيت فالحق انه مرق الى عش الزوجيــة عامر القلب بالنية الحسنة ، ولــكن للموازنة والمقارنة والتامل . وليقتنع اخيرا بان « العروس » ليست المفتــاح السحرى لدنيا المراة ، ليس يدرى كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التى فرش بها طريق الزواج . يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الســاذجة عسير التحقيق وهو ظنــه بانه سيستغنى بأحضــان زوجه عن العــالم الخارجى ، وانه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة فى سذاجتها ، وسيجد من الآن فصاعدا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وانه ينبغى أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليجمن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المغنى المجيــد اذا اطــال فى تقاسيم الليالىْ انبعث فى نفس السامع الشوق الى الدخــول فى الدور ، ثم أنه فى الانطلاق من محبســه فرصة للاختــلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عنــدهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافى لكل داء .. وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شــاف لكل داء ؟!.. يحسن به من الآن الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا يلبث ان تنهار ساخرة من قــدرته على التخييل . ليقنع من تنسيق حيــاته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى اين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ أقتراح اقترحته هى - زوجه - عليه بان يخرجا معا .

ما تدرى الأسرة ذات مساء الا وياسين وزوجــه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدا على مقصدهما بالرغم من أنهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتاخر من ناحية والى وقوعه فى بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان فى بساطة متناهية :

- ذهبا يا ستى الى كشكش بك ..

فهتفت خديجة وأمها فى نفس واحد :

- كشكش بك !

ليس الاسم غريبا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليس السماء . أن يذهب ياسين بزوجه اليه امر مختلف جدا ليس دونه ان يقال

ذهبا الى محكمة الجنايات . رددت الأم عينيها بين خديجة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف :

ـ متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه :

ـ بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ...

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت فى لهوجة وانفعال :

ـ ماذا دهى ياسين ؟!.. كان جالسا بيننا فى كامل عقله .. الم يعد يعمل حسابا لأبيه ؟

فقالت خديجة فى حنق :

ـ ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال ، اقطع ذراعي ان لم تكن هي التى حرضته ...

فقال فهمى مدفوعا برغبة فى تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه الموروث من جراة اخيه :

ـ ياسين ذو ميل قديم الى الملاهى ...

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاهى كما يحلو له ، أو أن يواصل السهر فى الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن ايحاء عجز عن مقاومته خصوصا وانه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة ، ثم انها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه انم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدتها بصحبة والدها ؟!. لولا ايحاؤها ما أخذها معه الى كشكش بك ـ ياللفضيحة ! ـ فى هذه الأيام السود التى ينجحر فيها الرجال فى البيوت كالفيران رعبا من الاستراليين ...

لم يقف التعليق على الحادث عند حد لما أثاره فى النفوس ـ سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة ـ من امتعاض ، كمال وحده تابع النقاش المحتدم فى صمت يقظ من دون ان يفطن الى السر الذى جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذاك النقاش كله وذاك الشرب كله ، اليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع فى الأسواق بجسم متوثب فى دمامة ووجه ضاحك ذى لحية عريضة وجبة فضفاضة

وعمامة مقلوظة ؟. أليس هو من تنسب اليه الأغانى المرحة التى استظهر بعضا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوى وكيل ابيه ؟.. فبأى شر يتهمون هـذه الشخصية اللطيفة التى ارتبطت فى خيـاله بالفكاهة والمرح ؟ .. لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم فى الانزعاج من جراة ياسين خصوصا وان زيارة امه للحسين وما اعقبها من أحداث لا يمكن أن تسرح مخيلته ، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه « هو » ان كان يريد رفيقا لا سيما وانه فى عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق فى المدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

ـ ألم يكن الأفضل أن يأخذنى انا ...؟!

اندس تساؤله فى الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة فى لحن شرقى صميم ، فقالت خديجة :

ـ من الآن فصاعدا يحق علينا ان نعذرك على قلة عقلك ...!

فندت عن فهمى ضحكة قائلا :

ـ ابن الوز عوام ...

بيد أن المثل رن فى اذنيه رنينا جافيا وكد أثره السيىء تحديق امه وخديجة فى عينيه باستغراب فانتبـه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

ـ اخو الوز عوام !.. هذا ما قصدت اقوله ..

دل الحديث فى جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية . وخوف الأم من العواقب من ناحية اخرى ، بيد أن أمينة لم تعلن ما فى نفسها كله . فى تلك الليلة عرفت فى نفسها أمورا لم تكن تعرفها من قبل . اجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا او كراهية فعزته الى خيلاء الفتاة بداع وبغير داع ، ولكن هالها اليوم ان تخرق الآداب والتقاليد ، وأن تحل لنفسها مالا يحل ـ فى نظرها هى ـ الا للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكان منطقها هذا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما أن تنال الأخرى الجزاء او فلتذهب الحياة هباء » . هكذا تلوث بالحنق والموجدة ـ فى الشهر الأول من معاشرته لامرأة جديدة ـ القلب الطاهر الورع الذى لم يعرف

طوال حياته المحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء . ولما آوت الى حجرتها لم تذر ان كانت تود - كما دعت بلسانها أمام أبنائها - أن يستر الله على « جناية » ياسين أم انها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب ؟ ، بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا أن تصان تقاليد الأسرة من كل عبث وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان ، بدت غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة فى الأعماق باسم الاخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادىء السامية . جاء السيد وهى على تلك الحال من التصميم الا أن منظره بث الخوف فى حناياها فانعقد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجيب على اسئلته بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ، وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم الحت عليها رغبة عصبية فى الكلام ، كم ودت لو تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجىء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاد أبيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه فى سلوكها بغير تدخل منها هى - الأم - لاشك انه يحزنها بقدر ما يريحها . . انتظرت طويلا فى لهفة وقلق ان يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تثاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :

- أطفئى المصباح ...

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجى نفسها :

- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد فى وجهها وتساءل فى عجب :

- وزوجه ؟ .. أين ذهبا ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من ان تقول :

- سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !

- كشكش !

عزف الصوت عاليا فى شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين ألهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود « الضالان » فانتظر وهو يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما

لو كانت هى المذنبة ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح الا كى تندم ، فلم تكن لتبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع ان تصلح خطاها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، الم يكن الأجدر بها ان تتستر عليهما على ان تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الاصلاح حقا لا الانتقام ؟ .. ولكنها اذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله ـ خجلى من ذكره ـ ان يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :

ـ جاء سى كشكش ...

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها الى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت فى مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعانى الى حجرتى » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة . عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

ـ اصغ الى يا بنية جيدا ، ابوك اخى او اوثق صلة ومودة ، فانت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت ابدا ان اكدر صفوك ولكن ثمة امور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن فى وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فان الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقبل من العثرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنه لا ذنب لك الا انك جاريته على هواه فرجائى اليك ان تعاونينى على اصلاح امره بالا تستسلمى الى غواياته مرة أخرى ...

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تحظى فى كنف أبيها بقسط من الحرية الا أنها لم تجد من نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته ، كان اقامتها فى بيئته شهرا أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التى يفرق حيالها كل حى فى البيت ، احتج باطنها بان

اباها نفسه استساغ اكثر من مرة ان يصطحبها الى السينما ، وانه لا يحق له منعها من شيء سمح به زوجها ، الى اقتناعها بانها لم تخرق ادبا او تهتك حرمة ، قال باطنها هذا واكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وانفه الكبير الذى بدا - وهو يرفع رأسه - كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتية فى جهاز الإستقبال بالمذياع بانغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى الا وهو يسألها وكأنه يتمادى فى تحديه لها :

- الك اعتراض على قولى ؟

فهزت رأسها بالنفى ورسمت شفتاها حرف « لا » دون أن تنطق به فقال لها :

- اتفقنا ، تفضلى الى حجرتك بسلام ..

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الذى اخفى عينيه فى الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه فى أسف شديد :

- الأمر جد خطير ولكن ماحيلتى ؟! .. لم تعد طفلا والا لكسرت راسك ، ولكنك واأسفاه رجل وموظف وزوج ايضا وان كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن اصنع بك ؟.. أهذه نهاية تربيتى لك ؟... (ثم بصوت اذهب فى التأسف) .. ماذا دهاك ؟ ... أين الرجولة ؟ .. أين الكرامة ؟ .. يعز على والله أن أصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ - اذ لم يتصور أن يكون مابه سكر - ولكنه لم يجد فى ذاك عزاء ، بدا الخطأ افظع من أن يترك بلا علاج حاسم ، فاذا لم يكن من سبيل الى العلاج القديم - العصا - فلا اقل من الحزم والا انتثر سلك الأسرة جميعا ، قال :

- الم تعلم بانى أحرم على زوجى الخروج ولو لزيارة الحسين ؟ .. كيف اذن سولت لك نفسك أن تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟.. يا احمق انت تدفع بنفسك وبزوجك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟

وجد ياسين فى الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل فى الحديث بطلاقة مريبة تنم فى النهاية على سكره ، لا سيما وان خياله اصر على التسلل - هازئا بالموقف الخطير - من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنحة اخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث فى نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التى

غناها المهرجون فى المسرح فكانت تثب الى ذهنه ـ على رغمه ... بين لحظة واخرى كالاشباح فى ليل المرعوب هامسة :

أبيع هدومى عشان بوسة   من خدك القشدة ياملبن
يا حلوة زى البسبوسة   يا مهلبية كمان واحسن

تغيب تحت تاثير الخوف ثم تطفر راجعة ، ولكن اباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبا :

ـ انطق حدثنى عن رأيك فانى مصمم على الا يمر الحادث بسلام !..

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبذل سارى جهده ليتمالك نفسه :

ـ كان والدها يعاملها بشىء من التسامح ... (ثم متعجلا) ولكنى اقر بانى اخطات ...

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الاخيرة :

ـ لم تعد فى بيت ابيها ، عليها أن تحترم آداب الأسرة التى صارت عضوا فيها ، انت زوجها وسيدها وبيدك وحدك أن تصورها فى اى صورة تشاء ، خبرنى عن المسئول عن ذهابها معك انت ام هى ؟ ..

شعر على سكره بالفخ المنصوب له ولكن الخوف دفعه الى التوارى فغمغم :

ـ لما علمت بنيتى فى الخروج توسلت الى ان اصطحبها ...

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

ـ اى رجل فى الرجال انت ؟.. كان الجواب الخليق بها لطمة !... انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء ...

ثم محتدا :

ـ وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا ..؟

تخايلت لعينيه الصور التى افسدها تعرض أبيه له على راس السلم وعادت الانغام تتجاوب فى راسه « أبيع هدومى .. » ولكن ما يدرى الا والرجل يقول متوعدا :

ـ لهذا البيت قانون انت تعرفه فوطن نفسك على احترامه مارغبت فى البقاء فيه ...

- ٤٧ -

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها فى الحياة على اكمل الوجوه، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس وان ادمت ـ جريا على عادتها فى التقليل من شأن الخدمات التى يؤديها لها الغير ـ ان اكبر الفضل فى اظهارها بالظهر اللائق انما يعود الى سمانتها هى قبل كل شىء ! على أن « جمالها » لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه ، بيد أن جميع مظاهر السعادة التى أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذى دب فى أعماقها لوشك البين ، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شىء فى الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج واللبلاب والياسمين ، حتى الزواج نفسه الذى طالما تحرقت فى انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر فى مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة ، يهون فى الوصال ويعز عند الفراق ، فلما أن اطمأنت على مستقبلها ابى قلبها أن ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ،لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد أن عرف أن التى تتزوج لاتعود الا انه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة » فرحبتا به معا بيد أنه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا مازار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة . يجد مكانها اخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها الذى لا يغادر البيت قانعا من الوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس له من رفيق فى البيت الا زينب ، وهى لاتتودد اليه كما يجب الا بمشهد من امه كأنما تتودد اليها هى فاذا غابت الأم تجاهلته كأنه لايكون ! ومع أن زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا انها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد السيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة « ما رأيت بيتا

بحرم فيه الحلال كبيتكم هذا .. حكم ! » غير انها لم تشـا ان تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وأنها « ست بيت » خليقة بأن يهنأ عليها بعلها ، فآمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة :

ـ لا عيب فيها الا لسانها !.. الم تجربيه يازينب ؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة :

ـ لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجربه .

وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة « هس » فأمسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة :

ـ مات السيد رضوان !

كانت مريم وأمها قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتـداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا أن تستـدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف سديد :

ـ مات الشيخ محمد رضوان حقا .. ياله من موقف حرج !

فقـالت زينب :

ـ عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد فى وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العـريس من الاحتفال بليلته فى بيته وهو بحمد الله بعيد ، أما أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!

لكن خديجة شردت فى خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ يا لطيف يارب ..

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارىء أو أن تترك ابنتها تستـكين له فقالت باستهـانة متصنعة :

ـ لا شـأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيـده ، والتشاؤم من عند الشيطان ...

انضم ياسين وفهمى الى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهمـا فاخبر الام بان السيد ناب عن الاسرة ـ بالنظـر الى ضيق الوقت ـ فى تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حـدج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

ـ أبى السيد رضوان إن يبقى فى الدنيا بعد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز راسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ـ صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ...

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ـ اسكت ، انى متطيرة من موت السيد رضوان فى يوم زفافى ..

فقال ضاحكا :

ـ لا ادرى أيكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ـ لا خوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى أخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيرى منه ، ونصيحتى التى لا امل ترديدها أن تنقعيه فى شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ...

عند ذلك قال فهمى متلطفا :

ـ مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها، الم تعلمى بأن الهدنة قد أعلنت ؟..

فهتف ياسين :

ـ كدت انسى هذا !.. ليس زفافك المعجزة الوحيدة فى يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ اعوام فانتهت الحرب وسلم غليوم ..

فتساءلت الأم :

ـ هل يذهب الغلاء والاستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـ طبعا .. طبعا .. الغلاء والاستراليون ولسان خديجة هانم

لاح التفكير فى عينى فهمى ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ غلب الالمان !.. من كان يتصور هذا ؟!.. لا أمل بعد اليوم فى ان يعود عباس او محمد فريد كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لايزال نجم الانجليز فى صعود ونجمنا فى افول فله الامر ..

فقال ياسين :

ـ اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ...

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :

ـ وثالث لا يقل حظه عن السابقين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعريس ...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :
ــ تأبى أن أغادر البيت من غير أن الدغك
فتراجع وهو يقول :
ــ من الخير ان اطلب الهدنة فلست اعظم شأنا من غليوم اوهندنبرج .
ثم نظر الى فهمى الذى لاح فى وجهه التفكير بحال لايتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :
ــ اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب ..
ومع أن خديجة تناوبتها افكار كثيرة وخطرت على قلبها احلام واحلام الا أن ذكرى قريبة ــ من ذكريات الصباح فحسب ــ الحت عليها من شدة تاثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدأ حياة جديدة فى حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كأنا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التى اعترتها حتى تعثرت فى مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لاعهد لها به ــ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :
اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة ..
واعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لاتكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدى بامك فى كل كبيرة وصغيرة » وتقول لأمها التى اصغت اليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « الا يعنى هذا أنه براك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟... (ثم ضاحكة) ياللك من امراة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله ؟ كأنى كنت فى حلم سعيد ! أين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟! »
ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عيناها بالدموع ..
وجاءت أم حنفى تعلنهم بوصول السيارات ..

— ٤٨ —

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلت روح وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، او كما قال ياسين لنفسه « كانت فى مجلسنا كالملح فى الطعام ، ليس الملح فى ذاته لذيذا ولكن مالذة الطعام من دونه ؟ » .. بيد أنه لم يجهر برايه مجاملة لزوجه اذ أنه لم يزل — على خيبة أمله فى الزواج التى لم يعد لها من دواء فى البيت — يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد اخرى فى « القهوة » كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق جده ، ان كان ثمة جد ، الا انه فقد النديم الذى طالما طارحه الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له الا ان يقنع بالقليل فى هذه الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبة ، يحسو القهوة ، ويمد بصره الى الكنبة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين فى أحاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر مارمتها به خديجة من « ثقل الدم » ويسلم بوجهة نظرها !.. ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة كربلاء ويقرأ ، او يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى يمينه فيرى فهمى متوثبا للحديث ، عن اى شيء يا ترى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ؟.. لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر . هل ينكشه ..؟ كلا ، لاحاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام شديد ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

— ألم تبلغك انباء جديدة ..؟

يسأله هو عن انباء جديدة ! عندى أنباء لا حد لها .. الزواج اكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد اشهر شربة زيت خروع ، لا تحزن على مافاتك من مريم ايها السياسى الغر ، اتريدانباءاخرى ؟!.. لدى منهاالكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك البتة ، ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سولت لى نفسى اذاعتها على مسمع من زوجى ، وما يدرى الا وهو يستشهد — فى سره طبعا — بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست أذكرها   لولا « الرقيب » لقد بلغتها فاك

ثم تساءل بدوره :

ـ أى انباء جديدة تعنى ؟..

فقال فهمى باهتمام شديد :

ـ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو ان وفدا مصريا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا توجه أمس الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال ..

رفع ياسين حاجبه فى اهتمام ولاحت فى عينيه نظرة شك مقرونة بالدهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وان لم يجد وراء الاسم فى نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث اتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك فى قلبه ـ الذى لا يكاد يعبأ بالأمور العامة ـ أثرا عاطفيا يدل عليها ولو من بعيد ، الا ان الاسمين الآخرين كانا يقعان فى اذنه لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر الى جانب الحركة التى قام بها أصحابها ان صح ما يقول فهمى ، اذ كيف يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر ؟!.. وسأله :

ـ ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

ـ سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوان بها ، الحق انى لا اعرف شيئا عن الأخيرين ، أما سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترامى الى عن كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذى يختلفون فيه كثيرا ، منهم من يعده ذنبا من اذناب الانجليز ولا شىء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطنى أنفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم عليها مع زميليه ـ ويقال انه كان الداعى اليها كذلك ـ عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفى المبرزين من الوطنيين وعلى راسهم زعيمهم محمد فريد ...

بدا ياسين جادا ان نظن به الآخر استهانة بحماسه وردد قائلا وكأنه يسائل نفسه :

ـ المطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال !..

ـ وسمعنا أيضا أنهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعى الى الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت نائب الملك !..

لم يستطع ياسين ان يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

ــ الاستقلال !.. اتعنى هذا حقا ؟.. ماذا تعنى ؟

فقال فهمى بلهجه عصبية :

ــ اعنى اخراج الانجليز من مصر ، او الجلاء كما عبر عنه مصطفى كامل ودعا اليه ..

يا له من أمل !.. لم يكن السعى الى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ درجة الحماس ، بل ربما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه اثبت طوال حياته بأنه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التنعم بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد فى نفسه استعدادا للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

ــ هل يقع هذا فى حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمى بحماس لا يخلو من لوم :

ــ لا يأس مع الحياة يا أخى !..

فأثارت هذه الجملة ، فى نفسه ما تثيره أمثالها من ميل الى السخرية بيد انه تساءل متظاهرا بالجد :

ــ وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمى قليلا ثم قال عابسا :

ــ لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كى تفهم اقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث فى الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلى ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعى القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها فى احايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف ، ولكن لم يكن شىء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون « الكبيرة » التى يبدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التى تدفعها الى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة مايلقى عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد اكسبها هذا الجد شيئا من الالمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد ، اولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم اخلاصهم

للخلافة الأمر الذى قربهم فى نظرها - كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية - من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم ، ولما أن ذكر فهمى ان سعدا وزميليه يطلبان السفر الى « لندن » خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

- اى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التلاميذ دروسهم :

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب ..

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

- يذهبون الى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟!.. ليس هذا من الذوق فى شىء !.. كيف تزورنى فى بيتى وانت تضمر طردى من بيتك ؟!

إضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسما معاتبا فى آن ولكنها ظنت انها بسبيل اقناعه فاردفت قائلة :

- وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله؟! لقد ولدنا وولدتم وهم فى بلادنا فهل من « الانسانية » ان نتصدى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة - وفى بلادهم أيضا - اخرجوا ؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين اما زينب فقالت جادة :

- كيف تواتيهم الجرأة على أن يقولوا لهم هذا فى بلادهم !.. هب الانجليز قتلوهم هناك فمنذا يدرى بهم ؟.. الم يجعل جنودهم المشى فى الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟.. فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم ! ؟

ود ياسين لو يسترسل مع المرأتين فى حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظامئة الى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمى فاشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

- فى كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرنى يا اخى ماعسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلا منازع ؟

فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

- كان عرابى باشا اعظم الرجال واشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز ياولداه ؟.. اسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس ...

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق:

- نينة !.. هل تركتنا نتحدث ؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه فغيرت لهجتها الحماسية كأنما تغيير لهجتها تعلن عن تغييررايها كله ثم قالتبرقة عتذار :

- يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا فى رعاية الله ، وعسى أن حظوا بعطف الملكة الكبيرة ..

فما يدرى الشاب الا وهو يسألها فى غرابة :

- اى ملكة تقصدين ؟

- الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟.. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها اعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..

فقال ياسين ساخرا :

- اذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى اجدر بان تنفى سعدا العجوز!

فقالت الأم :

- مهما يكن من امرها فهى لم تزل امراة يحمل صدرها ولاشك قلبا رقيقا فاذا احسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم .

وجد ياسين سرورا كبيرا فى منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن ام مريم او غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب فى مجاراة فهمى ، فسألها باغراء :

- خبرينا عما يحسن ان يقولوه لها ؟

فاعتدلت المرأة فى جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى اقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح فى تقارب حاجبيها فى صيغة مناسبة لأول «مفاوضة» بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل !..

انتبه ياسين عند ذاك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصاص النوافذ فادرك انه آن له ان يودع المجلس ليمضى الى سهرته . ولما كان

يعلم حق العلم بأن ظما فهمى الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب فى ان يقدم له اعتذارا عن ذهابه فى صورة تأييد من نوع ما للنبأ لذى اخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

ـ انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلعلهم اعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فتجهز له ملابسه . فشيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمتاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ما تثير أحاديث الوطنية اكبر الأحلام فى نفسه ، فى دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد . وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا ولكن ما ان يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين اضلعه نار الحسرة والألم فتروم فى قهرها متنفسا ـ ايا ما كان ـ تنطلق منه الى السماء ، ود فى تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوى الليل فى غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى فى مجمع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو فى وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد . لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لايدرى على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولايدرى ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر بكل مافى قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا فى عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا فى قلبه ودمه ، فما اجدره ان يبرز الى ضوء الحياة والواقع او فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل . .

- ٤٩ -

بدأ الطريق اما مدكان السيد أحمد ـ كعادته ـ مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين الا أن هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذى حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كانها بحيرات من نور ، لم يكن شىء فى السماء ولا فى الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والأنفس

الموصولة بنفسنه وربما انفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتيـة من الانفعال والشعور حرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم يمر به ايام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبـداه هو بالحديث نقل اليه فى اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد انائب الملك ، وفى مسـاء اليوم نفسـه ، وفى مجلس الطرب ، اكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى اليها الشك ، وفى دكانه حدث اكثر من مرة ان خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق فى حديث المقابلة ، بل مايدرى هذا الصباح الا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات واخذ نصيبه من السكر والصابون وابى الا ان يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد — مداعبا — عما يظن ان تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ « محال !... محال ان يخرج الانجليز من مصر ، اتحسبهم مجانين كى يجلوا عن البلد بلا قتال !.. لابد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم . فلعـل رجالنا يوفقون ولو الى ابعاد الاستراليين حتى يعود الأمن الى سـابق عهده ، والسلام ! » ، أيام انباء ومشاعر فياضة صادفت فى السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حـال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التى بدت فى الأغلب وكانها تصدر فى بلد غريب لا انفعال فيـه ولا توثب ، واستقبـال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشـطة مما يوحى بانه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتسـاء قهوة أو رواية ملحة ، فوجد السيد فى مظهره ما تجاوب مـع نفسـه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

— صباحنا ناد ، ماذا وراءك ياسبع ؟

اتخذ السيـد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كان قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى احدا من صحبه — اقرار باهميته فى هـذه الايام البـالغة فى اهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعتـه الأصليـة المكونة من تجـار وبين من انضم اليهـا بمضى الزمن من موظفين ممتـازين

ومحامين وان تفرد السيد احمد بمنزلة الاعزاز الأولى بفضل شخصه وسجاياه ، غير ان صلة القربى هذه التى لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة فى هذه الايام التى بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال ـ خطوة جديدة . لم اعد ناقل انباء فحسب ولكنى بت رسولا احمل اليك والى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد ..

واعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرا » فتناولها السيد وقرأ :

« نحن الموقعين على هذا قد انبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود باشا واحمد لطفى السيد بك . ولهم ان يضموا اليهم من يختارون ، فى ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما ».

فتهلل وجه السيد وهو يتلو اسماء اعضاء الوفد المصرى الذى سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن . وتساءل :

ـ ماذا تعنى هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

ـ الا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه ايضا هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. امسك السيد بالقلم ووقع بامضائه فى سرور تجلى فى تألق عينيه الزرقاوين وهو يتبسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حرثوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة . ودعا الحمزاوى فوقع بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

ـ المسألة جد فيما يبدو ..!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

ـ غاية الجد ، كل شىء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟.. قيل ان « الرجل » الانجليزى تساءل عن الصفة التى

كلمه بها سعد باشا وزميلاه فى صباح ١٣ نوفمبر الماضى فما كان من الوفد الا ان عمد الى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة ..

فقال السيـد بتـأثر :

ـ لو كان محمد فريد بيننا ماعدا هذا

ـ لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ...

ثم هز منكبيه كأنما لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :

ـ كلنا نذكر سعد بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، مازلت أذكر ترحيب اللواء به من حين ترشيحـه للوزارة وان لم انس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لا أنكر اننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد اثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين ، أما حركته الأخيرة فهى خليقة بأن تحمله من القلوب فى أعز مكان ...

ـ صدقت ، حركة مباركة ، لندع الله أن يتولاها بتوفيقه

ثم باهتمام :

ـ ترى أيؤذن لهم فى السفر ؟.. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ..؟

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

ـ ما الغد ببعيد ...

فى طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس فى اذن صاحبة :

ـ كأنى لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعل الكاس الثامنة بين فخذى زبيدة ..!

فحرك محمد عفت راسه فى تاثر كأن الصورة التى جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته ، وغمغم :

ـ ياما بكره نسمع ...

ثم غادر الدكان والسيد يترنم فى اعقابه مبتسما :

ـ وبعده نشوف ..!

ثم عاد الى مكتبه واثر المزاح منبسط فى اساريره وانفعال الحماس فى قلبه لا يخمد ، شأنه فى كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى الى الجد ولـكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاح والدعابة كلما لاحتا له صادرا فى ذاك عن طبع لا يملك معهما حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بقاهر مزاحه

ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش حياته ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء . فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه ، وبالتالى قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذى آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا . لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه . ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته . اليس فى ذلك اهدار لوقته « الثمين » ليس الوطن فى حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها فى أسرته او تجارته أو على الخصوص لهوه بين الأحباب والخلان ؟!.. ليكن اذن وقته خالصا لحياته . وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه بل وماله كلما تيسر اذ لم يكن يضن به اذا وجب التبرع لغرض من الأغراض ، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر فى واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، اما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه ، واما لأن الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ، وعرف هو ذلك فاضافه الى بقية مزاياه التى يباهى بها سرا فى أعماق قلبه ، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به ، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق — على ازدحامه — بالعاطفة القومية ، وهى وان قنعت بالقلب مجالا لحيويتها الا انها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمها ، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابى ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه . وكم كان منظرا فريدا — أهاج التأثر والضحك معا — يوم رؤى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن أحدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا فى الضحك فى مجلس الطرب الليلى حين تذاكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يرى «رب الضحك» وهو يجهش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنى الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ، بعد هذا كله ، أو بالرغم من هذا كله ، تسرى أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير .. مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار ، انفس تشرق بالآمال ، ماذا وراء هذا كله ؟!.. ان خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى ، وانه يتعجل الليل ليهرع

الى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التى تجذب حنانه الى سهراته كزبيدة وحب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو فى ذاك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون ان تستأديه مالا طاقة له به ! . . وانه ليفكر فى هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

— أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا .؟. انهم يدعونه « بيت الأمة » ..

ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نما اليه الخبر

— ٥٠ —

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية — بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما اعقب الزواج من اسابيع — لم يفز به بلا نضال . ثمة حقيقة كثيرا ماردده النفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد ، هى أنه لم يكن يتصور — وهو فى سكرة حلم الزواج — انه سيرتد الى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى ، اعتقد مخلصا انه ودع ذاك الى الأبد مضمرا لحياته الزوجية احسن النوايا ، حتى دهمته الخيبة المستعصية فى الزواج كله فجزعت اعصابه عن تحمل الملل او الحياة الفارغة كما دعاها ؛ وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها فى الماضى والزواج امل مدخر ، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد ان غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائبا ، بيد أن زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز الذى بلغ به يوما ان ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهينا بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذى يضربه ابوه حول الأسرة . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملا يترنح صدمة عز عليها احتمالها فما تمالكت ان كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة ان طفرة مفاجئة فى حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من بادىء الأمر المعارضة على اى لون جاءت ،

عتابا أم خصاما واعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول ابيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لايفسد النساء الا الرجال . وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعى للحزن ياعزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال . هكذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على امانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى اتزود من السهرة ترويحا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى او اباك ! » الا انها همت بالاسترسال فى مناقشته جريا وراء امل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بمثله الذى هون عليه مالم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بماللرجال من حق مطلق فى ان يفعلوا ما يشاءون ، وماعلى النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود « انظرى الى امرأة أبى هل رايتها اعترضت يوما على تصرف لأبى ؟ .. على ذاك فهما زوجان سعيدان واسرة مطمئنة . ينبغى الا نعود الى هذا الموضوع » .. لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع فى خطابها ما اصطنع من سياسة فان خيبته فى الزواج جعلته يجد نحوها أحيانا ما يشبه الرغبة فى الانتقام ، وأحيانا اخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك . ولكنه راعى عواطفها اكراما — او خوفا — من ابيه الذى علم بعظيم تعلقه بابيها السيد محمد عفت ، والحق لم يكن يكربه شىء كاشفاقه من أن تشكوه الى ابيها فيشكوه هذا بدوره الى ابيه حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شىء مما يحاذر ، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق : اثبتت الفتاة رغم عرتها انها امرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة ابيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة — لبعلها — بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن ببيتهما فى دائرة الأسرة الضيقة — مجلس القهوة — من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذاك فى بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست امينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعلها ، لأنها لم يكن يسعها ان تتصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر فى استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهى وحده قدر

احزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو انه ايقن من بادىء الأمر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذاك كان كثرة تلاقيهما فى قهوة احمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الارض كانها كهف منحوت فى جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار ، وجوهاالهادىء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطراره الى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية اخرى ؛ ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع اثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرا على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الايام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختار ونفر من زملائه قهوة احمد عبده — لنفس ميزاتها الأثرية التى جعلتها بمأمن من العيون — للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث ، كثيرا ما التقى الأخوان فى حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل اى حتى يصل زملاء فهمى او يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانةكوستاكى ، وفى مرة من هذه المرات اشار فهمى الى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك اخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحك رجل يرى لنفسه الحق كل الحق فى أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد أنه لم يشأ ان يبرر سلوكه مباشرة ، مؤثرا ان ينفس عن صدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبا الشاب :

— رغبت يوما فى الزواج من مريم ، ولست اشك فى انك حزنت جد الحزن لموقف ابيك الذى منع تلك الرغبة من ان تتحقق . . اقول لك ، وانا ادرى بما اقول ، انك لو علمت وقتذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل . .

دهش فهمى لحد الانزعاج لأنه لم يتوقع ان يباغت فى أول جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج » و « الرغبة » ، أفكار لعبت على مسرح صدره أدوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ فى اظهار دهشته ليخفى ما اثارت الذكريات فى نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله

لذاك لم يستطع أن ينبس بكلمة . فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيـده سأما ومللا قائلا :

ـ ما كنت أتصور أن ينجلي الزواج عن هذا الخواء . انه في الحق لا يعدو ان يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا في صورة « زوجـة » وتحت مقولة « الزواج » فعز عليـه ان يتنـاول اخوه المسـتهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم في دهشة بالغة :

ـ ولكن زوجك سيدة .. كاملة ..!

فهتف ياسين ساخرا :

ـ سيدة كاملة ! هو ذاك ، اليست كريمة رجل فاضل ؟.. وربيبـة اسرة كريمة ؟.. جميلة ؟.. مهـذبة ؟.. ولكنى لا ادرى اى شـيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السـالفة اعراضا تافهة لا يلقى اليها ببال تحت ضغط الملل المسقم كانها بعض ما نغـدق على الفقر من صفات النبل والسـعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقـره .!

فقال فهمى ببساطة وصدق :

ـ لا أفهم حرفا مما تقول ..

ـ انتظر حتى تعرف بنفسك ..

ـ لماذا اذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة ..؟

ـ لأن الزواج ـ كالموت ـ لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لشد ما عبث بي الخيال فسما بي الى عوالم تفوق مباهجها الأحلام ، وطالما ساءلت نفسى هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الأبد ؟! ياله من حلم !.. ولكنى أؤكد لك بانه ليسـت ثمة مصـيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء الى الأبد ..

غمغم فهمى في حيرة رجل يعز عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصور الملل :

ـ لعله بدت لعينيك اشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

ـ لا أشكو الا الظاهر الذى لا يعاب !... شكواى في الحق منصبة على الجمال نفسـه !.. هو .. هو الذى مللت لحد السقم ، كاللفظ الجـديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده وتستعمله حتى يستوى عنـدك

والفاظ مثل « الكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الأشياء المبتذلة ، يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير فى انشائك اخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم ، ولا تسل عما فى ملل « الجمال » من فجيعة ، اذ انه يبدو مللا بلا عذر مقبول ، وبالتالى قضـاء محتوما .. فيتعذر التفادى من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولى ، انى عاذرك لأنك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد ..

على مرارة اللهجـة شك فهمى فى حقيقـة بواعثها اذ انه مال من بادىء الأمر الى اتهام اخيه — لا الطبيعة البشرية — لما عرفه عنه من انحراف السلوك ، الا يجوز أن ترد شكواه فى الحق الى ما لهج به من مجون فى حياته السابقة على الزواج ؟!.. اصر على هذا الظن اصرار رجل يأبى أن يفجع فى اعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء اخيه بقدر ما يهتم بالافصـاح عما فى صدره هو ، فقد واصل حديثـه وهو يبتسم لأول مرة ابتسـامة وضيئة :

— اصبحت ادرك موقف ابى حق الادراك !... وافهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيـد الراكض وراء العشـق ابدا !.. كيف كان يتأتى له ان يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى الملل بعد خمسـة اشهر ؟!

فقال فهمى وقد قلق لاقحام ابيه فى الحديث :

— حتى على افتراض ان شكواك صادرة عن تعاسة مركبة فى الطبيعـة البشرية ، فالحل الذى تبشر به .. (هم بأن يقول : بعيـد عن الطبيعـة السوية ثم عدل عنه ليكون اكثر منطقية فقال) .. بعيد عن الدين ..

فقال ياسـين الذى كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جـدى لأوامره ونواهيه :

— الدين يؤيد رايى ، وآى ذلك أنه سمح بالزواج من اربع غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنيـاء ، فقد فطن اذن الى ان الجمال نفسه — اذا ابتذلته العادة والألفة — مل واسقم وقتل ..

فقال فهمى باسما :

— كان لنا جـد يمسى مع زوجـة ويصبح مع اخـرى فلعلك ان تكون وريثـه ...

فتمتم ياسين متنهدا :

— لعلى ...

على ان ياسين — حتى ذاك الوقت — لم يكن اقدم على تحقيق حلم من احلامه المتمردة ، حق أنه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل ان يخطو الخطوة الاخيرة ، قبل ان ينزلق الى زنوبة او الى غيرها . وما الذى جعله يفكر ويتردد ؟.. ربما لم يخل من احساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لرأى الدين فى « الزوج الفاسق » الذى توكد لديه انه غير رأيه فى « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا ان خيبة افوى امل تردد فى جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق . على ان واحدة من أولاء لم تكن لتقيم فى سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا أنه وجد اغراء لا يصمت فى سيرة ابيه التى استحوذت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها فى ذهنه بامراة ابيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست أمينة مع ابيه ، أجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امراة ابيه الى حياتها ، فيثب هو مثل وثبات ابيه الموفقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة ، بذاك — وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل انيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمح اية امراة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنسى ؟!.. لا شىء ! .. انهن حيوانات اليفة كالحيوانات الاليفة ينبغى ان يعاملن ، اجل لايجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر فى البيت حتى نفرغ لمداعبتها ، أن اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها فى النهاية عدد محدود من الحركات والأصوات لاتزال تتكرر وتتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، الست ذا مآرب فى السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائى عن النحيلة والجسيمة ، او انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟ ! .. الى الأمام .. الى الأمام .. »

— ٥١ —

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غرزى ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منهـا على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود عن جبين ناصع وعينـين مكحولتين ، فابتسمت أساريره فى ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من توه الست أم مريم او حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولاً ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذى فاضت عنه أعطافها وهى تلقى اليه بتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتهـا والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلمـا جاءته « زبونة » تستحق التكريم ، فان الجو الذى غشى ركن الدكان من حـــول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت أمارات لها فى الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصـــة فوق سفحى الأنف العظيم من ناحية أخرى ، كهرباء خفية صامتة الا ان نورها الكامن كان متحفزا فى انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا . . كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة واحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب فى الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض احساسه بالمروءة فامكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جارا — لا صديقا — ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذى اعرض عنه قديما حفاظا على كرامته ان يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الى ان عاطفته نحو زبيدة كان ادركها العطب كالفاكهة فى نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه — على خلاف الزيارة السابقة — ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا . . على أن خاطرة ثقيلة — أن تكون الزيارة بريئة — مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند عنها فى الزيارة القديمة من رقيق الاشـارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم اخيرا على أن يتلمس سبيله كخبير قديم . . فقال لها برقة باسما :

— خطوة عزيزة . . !

فقالت فى شىء من الارتباك :

ــ الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالدكان فتراءى لى ان آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجىء ولكنه ابى ان يصدقه . فان يتراءى لها ان تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئــــا ان لم يكن وراءه دافع . لا سيما وأنها تدرى بالبداهة والغريزة ان مجيئها بعد « مقدمات » الزيارة القديمة خليق بأن يثير فى نفسه الريب ، وان يبدو لعينية « تمحكا » غير خافى الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

ــ فرصة طيبة لأحييك ولأكون فى خدمتك ..

فشكرته فى اقتضاب اصغى اليه بنصف انتبـــاه اذ شغل بالتفكير فى الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى ان يعرج على ذكر الزوج الراحــــل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر ان يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل هل يهاجم او يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟ .. لــكل طريقــة لذتها .. بيد انه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الأول :

ــ بل فرصة طيبة كى أراك .. !

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شىء فطنتها الى ما وراء مجاملتــــه الظاهرة من معان خفية ، على أنه رأى فى حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعها الى زيارته أكثر منه استجـــابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه فى نغمة رقيقة قائلا :

ــ أجل فرصة طيبة كى أراك ..

عند ذلك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ــ لا اظن انك تعد رؤيتى فرصة طيبة .. !

فوقعت لهجة العتـــاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ــ صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له « هيهات أن يؤثر فى مثل هذا الكلام » وقالت :

ــ ليس ظنا فحسب ، انى أعنى ما أقول ، انك رجل لا يعوزك الفهم .

وانا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا ان يحاول خدع صاحبه .

ومع ان صدور هذا الكلام عن امراة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار فى نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الأعذار لها - الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه فى ظروف اخرى - قائلا لنفسه : ما احرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الأسى :

- غاضبة على ؟ ! .. ياله من حظ سيىء لا استحقه .

فقالت فى شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد :

- قلت لنفسى وانا فى الطريق اليك « ماينبغى أن تذهبى » .. فلا يحق لى الآن أن الوم الا نفسى !

- بعض هذا الغضب يا ست ! .. انى اسائل نفسى عما جنيت .. ؟!

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

- ما عسى ان تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى باسوأ منها ؟ !

فادرك من توه انها تشير الى مابدا منها فى الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة .. وقال مجاراة لأسلوبها الرمزى :

- لعلها لم تبلغ سمعه لسبب او لآخر ..

- انه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجة المذنب اذا انشأ يعترف :

- لعله لم يردها حياء او تقوى ..

فقالت بصراحة اعجبته وهزت فؤاده :

- أما الحياء فلا حياء له ، وأما سائر الاعذار فمن اين للقلوب الصادقة ان تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث ان اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا فى العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

- لا احب ان اعود الى الملابسات التى قست على وقتذاك ، على انه لا يجوز لى أن اياس مادام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت فى انكار :

- من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع فى تجويدها عاما بعد عام :
- تجرعته طويلا والله شهيد ..
- والتوبة ؟
فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة :
- ان ترد التحية بعشر امثالها !
فتساءلت فى دلال :
- ومن اراك بأن ثمة عفوا ؟
فقال بلباقة :
- اليس العفو من شيم الكرام !
ثم فى نشوة مسكرة :
- العفو كثيرا مايكون كلمة السر لولوج الجنة ..
ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت فى عينيها :
- الجنة التى اعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين ، ومن جميل التوفيق ان بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن اعين ارقباء . والا حارس لها .. !

وفطن الى أن حارس الجنة السماوية سمى « المرحوم » الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق وخاف ان تكون المراة قد فطنت الى نفس الحقيقة الساخرة ولكنهوجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله فى سره . وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه ، فاقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما فى خطبة مريم ابنة هذه المراة ، ثم كيف الهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد أنه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فتاة الا على مثال امها ؟.. وأى أم ؟.. امراة خطيرة ..! قد تكون جوهرة ثمينة عند امثاله من الصيادين ، ولكنها فى البيوت مأساة دامية ، ترى أى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا ؟ .. كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان فى بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما خفى عليه شىء ، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبة - استحوذت عليه أول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب - وهى أن يحول بين المراة المستهترة وبين

ببته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيأ — لاتصـاله المنتظر بها — لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له مـن اعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هـذه المرأة التى باتت أقرب ماتكون الى فؤاده وأبعد ماتكون عن احترامه فى لحظـة واحدة ! .. ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

— الى اللقاء ...

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

— نحن فى الانتظار ..

غادرته اوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت له أيضا هما لم يكن ، هما جديرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ، سوف يتساءل من الآن فصاعدا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيـدة بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوى سعد ، أجل جد جديد من السعـادة يجر وراءه — كالعادة — ذيلا من الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذى يحظى منه بأسعد سعاداته ، لهان عليه هجر العالمة بعد ان بلى حبه وذوت أزاهره واغرقه الشبع فى مستنقع آسن ، ولكنه يشفق دائما من ان يترك وراءه قلبا حانقا أو نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق الملل أنفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا ، وكم يود أن تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل ، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صـداقة وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة — التى يظن انها ليست دونه شبعا — اعتذاره بقبول حسن ؟ .. وهل يطمع فى ان تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر ؟. هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا ؟ . هذا ماينبغى أن يفكر فيه طويلا وان يهيىء له انجع الذرائع . وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيا لايدوم ليكفى القلب متاعب الاهواء ثم شرد به الخيال طاويا النهار فتراءى له وهو يدب فى الظلماء متلمسـا سبيله الى البيت الموعود ، والمرأة تنتظر بيدها سراج ...

- ٥٢ -

أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية . فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها

كان فهمى يملى الكلمات ، كلمة كلمة . فى اناة وبصوت واضح النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء الجديد الذى اكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه فى الفاظه من دون ان يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا أو خطأ . لم يكن غريبا ان يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا فى الاملاء أو غيرها فى جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جديدا حتى للأم وزينب ، أما ياسين فنظر الى أخيه مبتسما وقال :

ــ أرى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية ينفتح لها المغلق من ابواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح راى اخيه قائلا :

ــ هى من خطبة سعد أمام أساطين الاحتلال فى جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

ــ وكيف كان ردهم عليه ... ؟

فقال فهمى بانفعال :

ــ لم يجىء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه فى حيرة وقلق ، انها غضبة مزمجرة فى وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل ..

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

ــ كان لابد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ، وبعد أن استقال رشدى باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته ..

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى أخيه وهو يقول :

ــ ليست الخطبة كل ما عندى ، اقرأ هذا المنشور الذى يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان .

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

ــ يا صاحب العظمة ...

يتشرف الموقعون على هذا اعضاء الوفد المصرى ان يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحرية والعدل اساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التي غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها اخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها امام مؤتمر السلام مادام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد اصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ماقدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحماية حرية الامم الصغرى ، لايكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها .

عرضنا رغبتنا فى السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وتوقا منه باننا انما نعبر عن رأى الامة كافة .. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الامة الاسيفة ، ولما لم يستطع دولته ان يحتمل مسئولية البقاء فى منصبه فى حين ان الشعب يصادر فى مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب العالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع احد فى مصر ان يكون اخر حل لمسالة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين ، لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا وتمكينا للعقبة التى القيت فى سبيل الادلاء بحجة الامة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضى بحكم الاجنبى علينا الى الابد .

قد نعلم ان عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية ان تقبلوا عرش ابيكم العظيم الذى خلا بانتقال اخيكم المغفور له السلطان حسين ، ولكن الامة من جهة اخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شانه ان يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير ان حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين اظهرا احترامهما لارادة الامة لايمكن ان يتفق مع ماجبلتم

عليه من حب الخير لبـــلادكم . والاعتداد بمنسيئة شعبكم . لذلك عجب الــاس مـــن مستشـــاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الامـــة فى هـــذا الظرف العصيب انما تطلب منــكم ــ يا ارشـــد ابناء محررها الكبير محمد على ــ ان تكونوا لها العون الاول على نيل استقلالها . مهما كلفكم ذلك . فان همتكم ارفع من ان تحددها الظروف . كيف فات مستشـاريكم ان عبارة استقالة رشـــدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنيـــة ان يخلفه فى مركزه ؟!.. كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضـــاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا فى هذا الامر وفى غير هذا الظرف غـــير لائقة .. ولكن الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الامين . ان لمولانا أكبر مقام فى البـــلاد فعليه اكبر مسئولية عنها ، وفيه اكبر رجاء لها ، وانـــنا لانكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه ان يتعرف راى امنه قبل ان يتخذ قرارا نهائيـــا فى امرالازمة الحالية ، فاننـــا نؤكد لســـدته العليـــة انه لم يبق احـــد فى رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الامـــة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا ان نرفع لسدته شـــعور امته التى هى الآن اشد ماتكون رجاء فى استقلالها واخوف ماتكون من ان تلعب به ايدى حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليـــه ان يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها .. وانه على ذلك لجدير .. »

رفع ياسين راسه عن المنشور وفى عينيه ذهول وفى قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد انه هز راسـه قائلا :

ــ يا له من خطاب !.. لا احسبنى استطيع ان أوجه مثله الى ناظـــر مدرستى دون ان ينالنى العقاب الرادع !

فرفع فهمى منكبيه استهانة وقال :

ــ الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن !

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت فى المنشور . فلم يتمالك ياسين ان يقول ضاحكا :

ــ احفظت المنشور !.. ولكنى لا اعجب لهذا ، كانك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى اليها بــكل قلبـــك ، ولعـلى لا اخلو

من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور .. خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الاحكام العرفية ..

فقال فهمى فى فخـار :

ـ انى لا احتفظ بها فحسب ، ولكنى اقوم بتوزيعهـا ما سمح الجهد !

فاتسعت عينا ياسين فى قلق وهم بالكلام .. ولكن الام كانت اسبق اليه منه فقالت بانزعاج

ـ لا اكاد اصدق اذنى ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء؟!

لم يدر فهمى كيف يجيبها ، ولكنه شـعر بمـا جره عليـه تهوره من حرج ، لم يكن اشق عليه من محادثتها فى هذا الامر ، كانت السماء اقرب اليه من اقناعها بان تعريض نفسه للخطر فى سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يسـاوى فى نظرها قلامة ظفره ، بل قد بدا له أن اخـراج الانجليز من مصر ايسر من حملهـا على الاقتنـاع بوجوب اخراجهم او اغرائها ببغضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة: « لماذا تكرههم يابنى ؟ .. اليسوا اناسا مثلنا لهم ابنـاء وأمهات ؟ ! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب فى نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له « لاعليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : « لاحياة لقوم اذا حكمهم اجنبى » فقالت له فى استغراب « ولكننا لانزل احيـاء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا فى ظل حكمهم !.. انهم يابنى لايقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال امة محمد بخير ! » فقال الشاب يائسا «لو كان سيدنا محمد حيا مارضى ان يحكمه الانجليز» فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن اين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ .. كان الله يعينه بملائكته .. » فهتف بها حانقا « سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كانما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يابنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ،فكيف يجيبها الآن ،وقد استشعرت فى توزيع المنشور خطرا يتهدده ؟ .. لم يسعه الا ان يركن الى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :

ـ ما اردت الا المزاح فلا تنزعجى للا شىء ..

فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

ـ هذا ما اومن به يابنى ، هيهات ان يخيب ظنى فى أرشد الراشدين،

مالنا نحن وهذه الامور ! اذا رأى باشواتنا أن يخرج الانجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .

بدأ كمال طوال الحديث وكأنه يحاول أن يتذكر أمرا ذا بال . فما أن بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

ــ مدرس العربى قال لنا بالأمس أن الأمم تستقل بعزائم أبنائها ..!

فهتفت الأم ساخطة :

ــ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، ألم تحدثنى يوما بان عندكم تلاميذ قد طرت شواربهم ؟

فتساءل كمال بسذاجة :

ــ وأخى فهمى أليس تلميذا كبيرا ؟

فقالت الأم بحدة على غير مألوفها :

ــ كلا ، ليس أخوك كبيرا ، انى أعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه أن يتحدث اليكم فى غير الدرس ! .. اذا شاء أن يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى أبنائه فى البيت لا الى أبناء الناس !..

كاد الحديث يحمس ويستمر لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيرت مجراه ، أرادت زينب أن تتودد الى الأم بتأييدها فى دفاعها فحملت على مدرس العربى ونعتته بأنه « مجاور حقير جعلت الحكومة منه رجلا ذا شأن فى غفلة من الزمان » .. ولكن ما أن سمعت الأم هذه الاهانة توجه الى « المجاور » حتى أفاقت من انفعالها وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قبلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى عليه نفسها من اجلال لذكرى أبيها فتحولت الى زينب وقالت بهدوء :

ــ أنت يا ابنتى تحقرين أشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء الرسل ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الا ليته قنع بان يكون مجاورا وشيخا !..

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجىء ، فبادر بالتدخل ليمحو الأثر الذى تركه دفاع زوجته البرىء ..

— ٥٣ —

— انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا أن الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد احمد لم يكن فى حاجة الى مزيد من النظر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، وأصحابه يخوضون فى الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الاصدقاء والزبائن ، أجمع الكل على أن سعد زغلول وصفوة اصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول فى القاهرة او خارجها ، قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

— لا تشكوا فى صحة الخبر فان لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف .. الم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟.. أو بعد رده على الانذار البريطانى بذلك الخطاب الجبار الى الوزارة الانجليزية ..؟!

فقال السيد بوجوم شديد :

— يعتقلون الباشوات الكبار ! .. ياله من حدث مخيف ، ترى ماعسى ان يصنعوا بهم ؟

— الله وحده يعلم ، البلد يختنق فى ظل الحكم العرفى ..

ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا :

— اما سمعتم بآخر الأنباء ؟! .. مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

— النفى الى مالطة ، لم يعد احد منهم بيننا ، نفوا سعد واصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع فى نفس واحد :

— نفوهم !..

اثار « النفى » فى نفوسهم ماخامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة اسيفة عن عرابى باشا ونهايته ، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع : أيجرى نفس المصير على سعدزغلول وصحبه ؟ ... اينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد ؟.. اتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الازهار ؟.. وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن

ثقيل غليظ شاع فى صدره كما ينسيع الغيان . فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا . وجعلوا يتبادلون نظـــرات ساهمة واجمة . ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ؛ وفى الريق مرارة واحدة ، ثم جاء فى اثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبـأ . آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر فى نفوسهم . فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحر احد جوابا ، ولبث المتسائل يقلب عينيه فى الوجوه دون جدوى. لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان ابت أن تسلم جهارا بما يميتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن هل يعود سعد ولو بعد حين ؟ .. وكيف يعود سعد ؟ .. أية قوة تعيده ؟ .. لن يعود سعد . فاين تذهب هذه الآمال العراض ؟ .. لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

ـ ولكن أليس ثمة أمل فى أن يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يعر أحد القائل التفاتا ، فى حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لانه لم يقصد بقوله فى الحق الا تلمس مهرب ـ ولو وهمى ـ من اليأس الخانق

ـ اسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

ـ رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ؛ ومضى ..

ـ كالحلم .. وســـوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى ..

وهتف هاتف بصوت أبحه الألم :

ـ الله موجود !..

فهتفوا بصوت واحد :

ـ نعم .. وهو أرحم الراحمين

ذكر اسم الله فكان كالقطب المغطس ، جذب اليه شواردهم وجمع افكارهم التى شتتها اليـأس . فى مســاء ذلك اليوم ـ ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد ـ بدا مجلس الاخوان مجـافيا للهو والطـرب يغشاه الوجوم ، وتتجه أحاديثه جميعا الى الزعيم المنفى ، قهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب مثلا ، فقـد غلب الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيـد أنه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ؛

وما لبث أن ركبهم قلق خفى وشى بحكة الادمان التى تئن فى أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

ـ آن لنا ان نعود الى بيوتنا ..

لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن كأنما أراد ان ينذرهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى أمامهم الا ان يعودوا الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :

ـ أنعود الى البيوت دون كأس يخفف من بلوى هذا اليوم !

فأحدث قوله فى النفوس ما يحدثه الجراح فى أهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله .. نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما أثلج صدره من ارتياح :

ـ نشرب فى مثل هذا اليوم ؟!

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهكما :

ـ دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن .. الكلب ..

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما اراد السيد ان يعتذر عن هذا السلوك فقال :

ـ ان اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمنوا على قوله ، كانت أول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد ان قال متأثرا بمنظر القوارير :

ـ انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد ان الليلة لم تهنأ بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها «ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر ! »

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمى فى حديث ثورى طويل والدموع فى عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الأم أن تبدد الكآبة او تخفف البلوى ولكنها أشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن ان انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته ولوجه الى منفى بعيد ، قال ياسين :

ـ أمر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول .. مشردون بعيدا عن الوطن ..

فقال فهمى بانفعال شديد :

ـ يا لهم من أوغاد هؤلاء الانجليز !.. نخاطبهم باللغة التى كانوا يستعطفون بها الناس فى محنتهم فيجيبون بالانذارات العسكرية والنفى والتشريد ..

لم تطق الأم أن ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

ـ ارحم نفسك يابنى ، وربنا يلطف بنا !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون أن يلتفت اليها :

ـ اذا لم نقابل الارهاب بالغضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر ..!

فقال ياسين متفكرا :

ـ من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه ..

فقال فهمى بحدة :

ـ والآخرون ..؟ أليس وراءهم رجال أيضا ؟.. انها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها ..

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفا ولكن المرأتين لاذتا بالصمت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد انهم لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد فى نفيهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، أرادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو اليها ، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمى على هذا الغضب الجنونى كأن سعدا أبوه أو أخوه ؟!.. بل ماذا يبعث ياسين ـ وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر ـ على هذا الأسف ؟!.. أيحزن حقا من كان مثله على نفى سعد أو غيره من الناس ؟!.. كأن حياتها فى حاجة الى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمى عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت تفكر فى هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له : « ان كنت صادقا حقا فى حزنك فلا تذهب هذا

المساء ــ هذا المساء فقط الى الحانة ! » » ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت احكم من ان تلقى بأفكارها الباردة فى هذا التيـــار النـــارى ، فى هــذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتــابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت اعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان راسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من اسـف على افندينا ، اجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعانى فى نفسها ، بل لعلها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصـــا كفهمى فقد اقترنت فى ذهنها ــ كما اقترنت فى ذهن زوجها واصحابه ــ باليأس من العودة ، والا فاين افندينا ؟.. ومن اجدر منه بالعودة الى وطنه ؟.. ولكن ايظل فهمى على حـــزنه ما امتــد النفى بسعد ... ترى اى نحس فى هذه الأيام يأبى الا ان يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل امنهم وكدر صفوهم ؟! كم تتمنى ان يعود السلام الى ربوعه ، وان تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وان تنبســـط اســارير فهمى ويلذ الحديث ، كم تتمنى ...

ــ مالطة ..! هذه هى مالطة !

هكذا صاح كمال فجاة وهو يرفع راسه عن خريطة البحر الابيض وقد ثبت اصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى اخيه بظفر وسرور كانما عثر على ســـعد زغلول نفســه » ولـكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجاب الى ندائه ولا اعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام واعاد بصره الى رسم الجزيرة فى ارتباك وحياء ، ومضى يتامله طويلا وهو يقيس ببصره المســـافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القـــاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمى وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على اسنة الرماح فانه لم يســـعه أن يتصوره الا محمولا على اسنـــة الرماح ، لا متالما او صارخا كما يتوقع فى مثـــل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه اخوه أيضا فى مرحلة اخرى من الحديث » وكم ود لو يستطيع ان يســـــائل اخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على اسنة الرماح كالطود . ولكنه حيـــال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبتـــه الى فرصة انسب ، واخيرا ضاق فهمى بمجلسه بعد ان ايقن ان مايصدره من عاطفة اكبر من أن تروح عنها محادثة اخيه فى هذا المكان الذى يقف

من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار . نازعته نفســه الى الاجتماع باخوانه فى قهوة احمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى ، هناك يسمع اصداء الغضب المتقد فى قلبه ويستانس بايحاءاته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة .
مال الى اذن ياسين وهمس :
ــ الى قهوة احمد عبده ..

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج فى غايته ــ عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس ؛ ليمضى الى سهرته . دون ان يزيد من غضب فهمى اشتعالا . لم يكن مابه من اسف تصنعا . أو لم يكن تصنعا كله « هز النبأ الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ، ولما فرض على اعصابه مافرض من تكلف مجاراة لفهمى ومجاملة له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له ان رآه على مثله من قبل ، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبى اليوم مابذلت من جهد فى سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا » .

— ٥٤ —

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتــح فهمى عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، فى شبه ظلام الا مالاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترامى الى اذنيه همس انفاس كمال المترددة فعطف راسه الى فراشه القريب ، ثم انسالت عليه ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ؛ وانه لا يدرى ان كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لايستيقظ أبدا « لا يدرى ولا احد يدرى ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص فى أركانها ، ياللعجب ، هاهى أمه تعجن كعهدها منذ قديم ، وها هو كمال يغط فى نومه ويتقلب فى أحلامه ، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش اما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وهاهو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه فى رقة بالغة ، كل شىء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب رأسا على عقب ، كأن الرصاص لايعزف

باحثا عن الصدور والرءوس .. كأن الدم الزكى لايخضب الأرض والجدران ، وأغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل فى موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وايمان ، حقا لقد حيى فى الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل ، أو انه لم يعرفها الا اطيافا فى احلام اليقظة ، حياة طاهر ذرفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر فى سبيل شىء باهر اثمن منها واجل ، تتعرض للموت بلا مبالاة ، وتستقبله بعناد ، وتهجم عليه باستهانة ، واذا افلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة اخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى نور رائع عنه لاتحيد ، مدفوعة بقوة لاقبل لها بها ، مسلمة مصيرها لله وهى تشعر به محيطا بها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض ، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة فى خدمة امل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء ، او ان الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل ان تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لابد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن ابخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فالقى بنفسه فى خضمها .. متى حدث هذا ؟ .. وكيف حدث ؟ .. كان راكبا ترام الجيزة فى طريقه الى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقبضاتهم ، نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما ان يعود سعد ليواصل جهاده واما ان ننفى معه، وانضم الراكبون من الأهالى اليهم فى الحديث والوعيد حتى الكمسارى اهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يالها من ساعة !.. فيها اشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة ، فأيقن ان هذه النار المتقدة لن تخمد ولن تبرد ، ولما اقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى احدهم مناديا بالاضراب !.. شىء جديد لم يسمع من قبل ، بيد انهم هتفوا بالاضراب وهم يتابطون كتب القانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون فى لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب ان صعد شاب منهم الى اعلى السلم المفضى الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، انصت الى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه

يتابع دقاته فى سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباه حماسى حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا فى نفس واحد « يحيا الاستقلال » ، تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الاصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على اسنانه ليحبس الدمع الذى زوره جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شيء جديدا بدا ذلك اليوم . بيد انه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كانه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف فى صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التى باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الاعلى واحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح فى الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم مايدرون الا والمستر ايموس نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية . . لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لآبائهم ، هناك تصدى له احدهم قائلا :

ــ ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من اعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل مسرعا. ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ماتنثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الامور سراعا ، دعا الداعى الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فهرع طلبتها اليهم هاتفين كانهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الاهالى وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون فى كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تستدعت بالغضب حتى وجدت فى مظاهرتهم المتنفس ، تساءل ــ

ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه – « كيف حدث هذا كله ! ؟ » . . . لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذى شهد قنوطه وانهزامه ، ها هوالان ، قبيل الظهر «يشترك فيمظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع ان يسير الى النهاية » فاى سرور سروره ، وأى حماس حماسه ! . . لقد انطلقت روحه فى سماء من الأمل لاتحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الابرياء من ظنون ، وفىميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . راى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزى تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار ، والارض تضطرب تحت وقع السنابك، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم فى ذهول من لم يسبق له ان وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم » وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع فى محاجرها الحماس والغضب فتنهد فى عصبية ولوح بيده هاتفا، احاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يفرق بين رءوسها المشرئبة ، ثم ترامى اليهم ان البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصبدوا لمخالفته او كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه ان يكون بين المعتقلين ولكن من دون ان يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد . .

على ان ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ؛ بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيهجميع المدارس باعلامها وحشود من الاهالى لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانه ، والقى هو بنفسه بين الجموع فى نشوة فرح وحماس كانه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات » حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطرابعنيفة وصاح صائحهم: « الانجليز ! » .وما لبث ان فرقع الرصاص مغطيا على اصوات الهاتفين فسقط اول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم فى حماس جنونى ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، وكان هو ضمن الآخرين ؛ اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيا كل شيء الا حيباته ، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد رأسه » ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد

الى بيته فيما يشبه الذهول ،وفى وحدته الحزينةتمنى لوكان من الذاهبين او فى الاقل من الثابتين ، وفى وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير ، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير منسعا وقريبا

وجاء الثلاثاء والاربعاء فكانا كالاحدوالاثنين ، ايام متشابهات فىافراحها واحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا ، الفى بنفسه فى خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى افاق بعيدة من الاحساس النبيل . ويضطرب بالحياة وبعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وامله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث ان اضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الاخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين . ان قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون فى منفاهم . لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادى النيل . .

تقلب الفتى فى فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة اخرى مقلبا ناظريه فى اركان الحجرة التىاخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة . امه تعجن ! . . ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات ان يشغلها حدث عن التفكير فىاعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الاثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صغار الاعمال ، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الامور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست ام على هامش الحياة هى التى انجبته والابناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الابناء . الحق ان ليس ثمة شيءتافه فى الحياة . . ولكنالايجيء يوم يهز فيهالحادث الخبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت فى مجلس القهوة منذ خمسة ايام ؟ . . الا ما ابعد هذا اليوم ! . . ثم جرت على شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ما عسى ان يصنع والده اذا علم « بجهاده » التواصل يوما بعد يوم ؟ . . ماذا يصنع ابوه الجبار المستبد وماذا تصنع امه الرقيقة الحنون ؟ » . . ابتسم فى حيرة وهويعلم ان المتاعب التى قد تعترضه فى تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه اذا نمى سره الى السلطة العسكرية نفسها . . ثم ازاح الغطاء عن صدره وجلس فى الفراش وهو يغمغم « سيان ان احيى او ان اموت ،

الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض . . . »

- ٥٥ -

لم يعد احد يستطيع الادعاء بان الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا فى ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارىء ثقيل ضاق به كل الضيق وان لم يستطع له دفعا ، ذلك ان الام امرت ام حنفى بان تتبعه فى ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون ان تدع له فرصة للتلكؤ او مطاوعة نزوات الطيش ، داروراس الام بانباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذاك الزمن اياما كالحات ملاتها هلعا وجزعا فودت لو تستبقى ابنيها الى جانبها حتى تثوب الامور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد ان وعد فهمى - وهو من ثقتها فى « عقله » لا تتزعزع - انه لا يشترك فى الاضراب بتاتا، وبعد ان رفض الأب فكرة إستبقاء كمال فى البيت لعلمه بأن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك فى الاضراب ، سلمت الام بذهاب الاخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة ام حنفى وهى تقول له : « لو كان بوسعى ان اخرج كما اشاء لتبعتك بنفسى » وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لانه ادرك بالبداهة ان هذه الرقابة التى لن تخفى عن امه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به فى الطريق من الوان العبث والشطارة، وانها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، اشد الامتعاض من السير فى الطريق مصطحبا هذه المراة التى ستلفت الانظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه لم يسعه الا ان يذعن لرقابتها سيما بعد ان امره ابوه بقبولها ، فصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره انه كان ينتهرها كلما تدانت منه ، وانه حتم عليها ان تتاخر عنه مسيرة امتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل اغا صباح الخميس وهو خامس ايام المظاهرات

فى القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفى من البواب وسألته تنعيذا للامر اليومى الذى تلقته فى البيت :

ــ هل يوجد تلاميذ فى المدرسة ؟

فاجابها الرجل بغير اكتراث :

ــ منهم من يدخل ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لاحد . .

كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كانمهيأ النفس لسماع الاجابة التى باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهى « التلاميذ مضربون » فيعودان الى البيت حيث يمضى سحابة النهار فى حرية حببت الى قلبه الثورة من بعيد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا :

ــ انا ممن يذهبون . .

وابتعد عن المدرسة والمراة فى اثره ، بيد انها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لاول مرة فى حياته ــ ان تقول لامه ان التلاميذ مضربون ، وزيادة فى الرجاء والتودد دعا لها ــ وهما يمران بجامع الحسين ــ بطول العمر والسعادة الا ان ام حنفى لم تستطع الا ان تصارح الام بالحقيقة كما سمعتها فانبته الام على كسله وامرت المراة بان تعود به الى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة والغدر ، لم يجد فى المدرسة الا لداته . . ذوى الاسنان الصغيرة ، أما من عداهم ، وهم الاغلبية الساحقة ، فكانوا مضربين ، والقى فى فصله ، الذى كان يتوافر له من صغار التلاميذ مالم يتوافر لغيره من الفصول ــ نحوا من ثلث التلاميذ ، بيد ان المدرس امرهم بان يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم فى شبه اضراب فى الواقع. فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون أن يعيره ادنى انتباه فقد ساءه البقاء فى المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو فى البيت يتمتع بالفراغ الذى جاءت به هذه الايام العجيبة بلا حسبان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل ، وهفا خياله الى اولئك المضربين فى الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيرا ما تساءل عن حقيقة امرهم ، أهم كما تدعى امه « متهورون » لا يرحمون انفسهم ولا اهليهم ملقين بارواحهم الى التهلكة ام هم كما يصفهم فهمى ابطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟! . . وكثيرا ما مال الى رأى امه لحنقه على التلاميذ الكبار ــ فئة المضربين ــ الذين خلفوا فى نفسه ونفوس اضرابه من التلاميذ الصغار اسوأ الاثار بما ينالهم على ايديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم فى فناء المدرسة

بضخامة اجسامهم وفحة شواربهم ، بيد انه لن يستسلم الى هـذا الراى
كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الاقناع فى نفسه مالا قبـل له
بالاستهانة به ، ان يسعه ان يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة
حتى ود لو يطلع من مكان آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا
ما فى ذلك من شك ، او فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جمـاعات الى
الاشتباك بالجنود ؟!.. واى جنود ؟!.. الانجليز !.. الانجليز الذين كان
يكفى ذكر اسـمهم لاخلاء الطرقات !.. ماذا حدث للدنيـا وللنـاس ؟!
ذاك صراع عجيب قضى عنفه بان تنقش عناصره الجوهرية فى نـفس الغلام
بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء .
المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية فى اعماقه وان وقـف
من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته ان آله استجابوا
للحوادث استجابة متباينة واحيانا متناقضة ، فبينـا يجـد فهمى ثائرا
يحمل على الانجليز بحنق قاتل ويحن الى سعد حنينا يفجر الدمع ، اذا
بياسين يناقش الاخبار فى اهتمام رصين مشوب باسف هادىء لا يمنعه
من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الاشعار والقصص ،
ثم السهر حتى منتصف الليل ، اما امه فـلا تكف عن دعاء الله ان ينشر
السلام ويعيد الامان ويصفى قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والادهى
من كل اولئك زينب زوجة اخيه التى افزعتها الاحداث فـلم تجـد من
تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بانه سـبب هذا الشر
كله ، وانه « لو عاش كما يعيش عباد الله فى دعة وسلام ما تعـرض له احد
بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » .. لذلك كان حمـاس الغلام يستعـر
لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرة الموت فى ذاته دون ان يـكون
لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد او قريب ، وكم أسف يوم
دعا تلاميذ خليل اغا الى الاضراب — لاول مرة — فسـنحت له فرصـة
طيبة ليشهد مظاهرة عن كثب او يشترك فيهـا ولو فى فنـاء المدرسـة ،
ولكن الناظر بادر الى حجز صغـار التلاميذ فى فصولهم فافلتت الفرصـة
ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية فى دهشة ممزوجة
بسرور خفى ، لعل مبعثه الفـوضى التى نشبت فى كل شىء فعصـفت
بالروتين اليومى الثقيل بلا رحمـة . افلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك
فى مظـاهرة كمـا ضاعت اليوم فرصـة الاستمتاع بالفـراغ فى البيت ،
وسـيبقى مغـلولا فى هـذه الجلسـة المملة ينظر فى الكتـاب بعينين لا
تريان شـيئا ، ويسـترق لمسـات مع رفيقه على القمطر فى جـذر

وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل . ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا فى الأذن ، ولكى يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة واعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق. انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباهم ، انها اصوات مندمجة فى صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشتديمكن ان تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ؛ وسرت فى الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة ! .. » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر فى جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع اذنيه الاسماء التى ملات ذهنه طوال الايام الماضية:

سعد ... الاستقلال ... الحماية ، وتدانى الهتاف وعلا حتى اطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وايقنوا ان الطوفان لابد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبيانى تنكب عن تقدير العواقب فى حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع اقدام مقبلة فى سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والازهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون « اضراب .. اضراب .. لا ينبغى ان يبقى احد » .. وفى لحظات وجد نفسه غائصا فى موج مصطخب يدفعه امامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب فى غاية. تحرك فى بطء شديد تحرك حبوب البن فى فوهة الطاحونة لا يدرى اين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا اجساما متلاصقة فى ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق راسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم انفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدرى الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقا حتى الصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد انزل بابها الحديدى الى ما فوق العتبة بقليل فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام فى الداخل رأى عم حمدان الذى كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فاسند ظهره الى جدار القائمة التى تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

- ازهريون ، طلبة ، عمـال ، اهالى ... جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع ان تحمل كل هؤلاء البشر ..
احدى المرأتين بدهشة :
- كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟!
المرأة الاخرى بحسرة :
- ربنا الهادى ، كلهم ابناء ناس يا ولداه ..
فقال عم حمدان :
- لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..
تفجر الهتاف فى الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينـــا عن قرب كانه يدوى فى الدكان . وحينا عن بعد فى ضوضاء شديدة غير متمايزة كهـزيم الرياح ، وتواصل بلا انقطاع ، فى حركة بطيئة مستمرة دل عليها تفـاوت درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن انه انقطع جاء غيره حتى بدا وكان لا نهـاية له . تركزت حيـاة كمال فى اذنيه وهو يرهف السمع فى اضطراب وقلق ، بيد انه لما تتـابع الـوقت دون وقوع مكروه اسـترد انفاسه ومضى يعـاوده الشـعور بالطمانينة ، ثم وسـعه اخيرا ان يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه فى البيت ليروى لامه ما وقع له ؟ . « اقتحمت علينـا العصول مظـاهرة لا اول لهـا ولا اخر ، وما ادرى الا وتيـارها الزاخـر يحيط بى ويجرفنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سـعد ، لنسقط الحماية ، ليحيا الاستقـلال . ومازلت أنتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص » .. سـتفزع عنـد ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق إنه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى ترتجف .. « ومرت رصاصة جنب راسى مازال عزيفهـا يطن فى اذنى ، وتخبط الناس كالمجانين ، وكدت اهلك مع الهالكين لولا ان جذبنى رجل الى دكان ... »

انقطع حبل احلامه على صياح عال غير منتظم ووقـع اقـدام متدافعة فى اضطراب ، فخفق قلبه ونظر فى وجوه من حوله فرآهم محملقين فى الباب كمن يتوقع ضربة على ام راسه ، واقترب عم حمدان مـن البـاب وانحنى حتى نظر من الفرجة فى اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصـقه بالارض بسرعة وهو يتمتم فى اضطراب :
- الانجـليز .. !

وصاح كثيرون فى الخارج « الانجليز ... الانجليز » ونادى آخرون « الثبات ... الثبـات » وهتف غيرهم « نموت ويحيـا الوطن » .. ثم سمع الغلام لأول مرة فى حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعـدت أوصاله ، وما ان ندت عن المراتين صرخة فزع حتى أفحم فى البكاء ، وجعـل عم حمـدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله .. الله .. » ولكن الغلام شعر بالخـوف باردا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه . وتوالت الطلقات ، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيـل ؛ تتـابعت الأصوات والحركات فى سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأنين فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهـرا فى حضرة الموت .. ثم حل صمت مخيف كالاغماء الذى يعقب تبريح الألم ، تساءل كمال بصوت منهدج مبحوح :

ــ ذهبوا ؟! ...

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » ... وتلا آية الكرسى » فتلا كمال فى سره ــ اذ خانته قدرته على الكلام ــ « قل هو الله أحد » لعلهـا تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت فى الظلام . على ان الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم أطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عـرفه هتف به :

ــ كمال ؟!... أين كنت فى أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغـلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج ، بيد أنه أجابه بقوله :

ــ كنت فى دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شىء ...

فقال له بعجلته ولهوجنه :

ــ اذهب الى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتنى .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

ــ الا تعود معى ؟!

فقال باللهجة نفسها :

ــ كلا ... ليس الآن ... ساعود فى موعدى المعتاد ، لا تنس انك لم تقابلنى قط ..

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع لغلام راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبحا واقفا وسط الطريق يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر الى حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

ـ هذا الدم الزكى يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله ان يسفك فى رحاب سيد الشهداء لنصل فى الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا . .

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون . .

- ٥٦ -

كانت أمينة تتلمس طريقها الى باب الحجرة خلال ظلمة السحر ، فى حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترامى الى اذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق أذنيها فى هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد فى الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » اما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت فى تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطوتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت راسها فوجدت فى الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذى تستطيع معه رؤية ما يجرى تحتها ، بيد ان اللغط ازداد ارتفاعا ، وازداد فى الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها فى الظلام الذى أخذت تالفه شيئا ما فرات تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز اشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، واشياء على هيئة اهرام صغيرات ، واخرى كانها الأشجار القصار ، فارتدت فى حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال ، ثم ترددت ، اتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك الى حين استيقاظه ؟! . . ثم أبت ان تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة

بحب الاستطلاع الى النافذة فاطلت منها . بدا وشى الشروق ناشبا فى غلالة السحر واضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب . فامكنها ان ترى الطريق فى كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الأشباح التى راعتها فى الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمي وايقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا فى فراشه وهو يتساءل منزعجا :

ـ مالك يا أماه ..؟

فقالت وهى تلهث :

ـ الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رءوس الطرق التى تتفرع عنده ، يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلى الخيام أقيمت البنادق اربعا اربعا ، كل مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما رأى فى الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش ، ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه !.. ولكنه ما لبث أن استخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذى لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذى لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا وهى أن الحى الذى أتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا الجنود والخيام والبنادق واللوريات وقلبه يخفق فى رهبة وحزن وحنق ، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

ـ انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات فى منابتها ...

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يقول فى سره حانقا « هيهات .. هيهات » حتى سمع أمه تقول :

ـ سأوقظ والدك لأخبره بالأمر ..

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كأن السيد ـ الذى يحل لها

جميع مشكلات حياتها ـ كفيل ايضا بأن يجد حلا لهذا المشـكل يبلغ به بر الأمان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :
ـ دعيه حتى يستيقظ فى وقته ..
فتساءلت المرأة فى رهبة :
ـ ماذا نفعل يابنى وهم مرابطون امام مدخل بيتنا ؟..
فهز فهمى راسه فى حيرة قائلا :
ـ ماذا نفعل ؟!.. ـ ثم بلهجة اكثر ثقة ـ لا داعى للخوف ، ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين ..
قالت وهى تزدرد ريقا جافا :
ـ اخاف ان يعتدوا على الآمنين فى بيوتهم ..
ففكر قليلا فى قولها ثم تمتم :
ـ كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا سـاكنين حتى الآن ..
لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولـكنه وجده اوفق مايقال ، وعادت امه تسائله :
ـ وحتى متى يقيمون بيننا ؟!
بطرف شارد أجابها :
ـ من يدرى ؟!.. انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا ..
تنبه الى أنها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها فى عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتقعتين ، وفكر لحظة فى مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا اذا روى ياسين له « نادرة » من نوادر والده تدعوه بطبيعتهـا الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية أبيه الخفية ، وسمعا وقع أقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتـحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر ، وصاح الشـاب الذى بدا منتفخ العينين مشعث الشعر :
ـ أرأيتم الانجليز ..؟
وهتفت زينب :
ـ انا التى سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سى ياسين ..
وواصل ياسين الحديث قائلا :
ـ لقد نقرت على باب والدى حتى استيقظ وأخبـرته ولما رآهم بنفسه أمر بألا يغادر البيت أحد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم

فاعلون ؟.. وما عسى أن نصنع ؟.. الا توجد فى البلد حكومة تحمينا ؟.. تحمينا ؟..

فقال له فهمى :

ــ لا اظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

ــ ولكن حتى متى نظل محبـــوسين فى بيوتنا ؟!.. ان البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟

فغمغم فهمى فى ضيق :

ــ سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..

وهتفت زينب فى عصبية ظاهرة :

ــ لم نعد نسمع أو نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على اولاد الحرام..

عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا فى المجتمعين فى حجرته على غير انتظار ، ثم جلس فى فراشـــه وتطلع الى أمه بعينين متســـائلتين فاقتربت من فراشـــه وربتت بيدها الباردة على راسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

ــ ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رات ان تبلغه الخبر فى أحسن صورة ممكنة فقالت برقة :

ــ لن تذهب اليوم الى المدرسة ..

فتساءل بابتهاج :

ــ بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمى فى شىء من الحدة :

ــ الانجليز يسدون الطريق !

ثم وثب الى النافذة ونظـر من خصـــاصها طويلا ثم عاد وهـــو يقـــول

شعر كمال بانه ادرك سر تجمعهم فقلب عينيــــــه فى الوجوه مذهولا : باضطراب :

ــ البنادق اربع اربع ...

ونظر الى فهمى كالمستغيث وتمتم فى خوف :

ــ سيقتلوننا ..؟

ــ لن يقتلوا احدا ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكانه يخاطب نفسه :

ــ ما اجمل وجوههم ...

فسأله فهمى ساخرا :

- هل اعجبوك حقا ؟..

فقال كمال بسذاجة :

- جدا ، كنت اتخيلهم كالشياطين ...

فقال فهمى بمرارة :

- من يدرى ، لعلك لو رايت الشياطين أعجبك منظرهم ..!

ام يرفع مزلاج الباب فى ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولأول مرة تبسط السيد احمد فى الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون فى منع المظاهرات وانهم لهذا احتلوا الأحياء التى تكثر بها المظاهرات وانه راى أن يمكثوا يومهم فى البيت حتى تتضح الأمور، استطاع الرجل أن يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذا لأحد يتسرب منه الى القلق الذى تفشى فى باطنه مذ هب من فراشه على نقر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة راى ابيه فقال بأدب :

- ولكن ياوالدى قد تظننى المدرسة اذا مكثت فى البيت من المضربين !

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه فى المظاهرات فقال :

- للضرورة أحكام ، اخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح ...

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية ان يغضبه من ناحية ، ولأنه من ناحية اخرى - وجد فى أمره بمنع مغادرة البيت عذرا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء أمثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، ومالبثت الأم وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمسا ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز فى أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الأخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين . ووجد كمال فى خص الدجاج تسلية وأى تسلية فانتقل اليها ، وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض فى حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة التى تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة فى جنبات الوادى من اقصى شماله الى اقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات فى شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية .

التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتى لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو .
ثم قال الشاب بحرارة :
ـ هذه هى الثورة حقا ؟.. فليقتلوا ماشاءت لهم وحشينهم فلن يزيدنا الموت الا حياة ...
فقال ياسين وهو يهز راسه عجبا :
ـ ماكنت اتصور أن فى شعبنا هذه الروح المكافحة ..
فقال فهمى وكأنه نسى كيف اشفى على اليأس قبيل نشوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :
ـ بل انه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التى تشتعل فى جسده الممتد من أسوان الى البحر الأبيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد الى الأبد ..
فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة :
ـ حتى النساء خرجن فى مظاهرة !...
فتمثل فهمى بأبيات من قصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات :

خرج الغوانى يحتججن ورحت ارقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنة
واخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :
ـ ما كان اجدرنى أنا بحفظها ...
وفكر فهمى فى خاطر طارىء ثم تساءل بحزن :
ـ ترى اترامت انباء ثورتنا الى سعد فى منفاه ؟.. اعلم الشيخ الكبير بأن تضحيته لم تذهب هباء ام تراه غارقا فى يأس المنفى ؟..

- ٥٧ -

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطانى الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخا وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين فى خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون فى طابور على نداء النفير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون احد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب

بيت القاضي مما دل على قيام مظاهرات في الأحياء القريبة ، وكان فهمي يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد ...

واخيرا غادر الاخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فاقبل فهمي على كتبه يراجع مافاته في الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و « غادة كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات — بوليسية وغيرها — اشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه احب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبله ، يفهم مايسهل فهمه ، ويقتنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا اقله ، أو يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، أو لايدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره والفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى داب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتاب واقحم عليها من الألفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها مافتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من اسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد ان يلم بها في رفق ، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه الى سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد باسا في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة ، أو يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذا باقبال الغلام على الاصغاء بذاك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا ، وقد قرأ ابياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الانجليز من اعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة أخرى ، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وارزا واتممت اطباقها — التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت — بجبن وزيتون ومش ، واحضرت عسلا اسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام

تبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما احبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ ان الام لم يسعها ان تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه . ولبث ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون فى جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمال فغودر الزوجان منفردين . « ما عسى ان اصنع من الآن الى ما بعد منتصف الليل ؟ » . . ازعجه هذا السؤال الذى الح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق فى الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة احمد عبده . يحسو الشاى الاخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذى يستهوى شعوره بقدمه ويستأسر خياله بحجراته المطمورة تحت انقاض التاريخ . قهوة احمد عبده احب المقاهى الى قلبه ، ولولا الغرض — والغرض مرض كما يقولون — ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبه فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى اغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة سى على بالغورية لوقوعها امام بيت زنوبة العوادة ، فهو يبدل المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا اصدقاء له ، اين الكلوب المصرى واصحابه ؟.. اين قهوة سى على ومعارفها ؟.. من حياته ذهبوا ، ولعله لو صادفه احدهم تجاهله أو تهرب منه ، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهى واصدقاء . على انه لم يكن يمكث بقهوة أحمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكى أو بالاحرى الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء او « العادة » كما يحلو له أن يدعوها . . اين منه «العادة» هذا المساء الكالح ؟!.. وسرت فى بدنه لتذكر حانة كوستاكى رعدة شهوة ، ثم مالبث ان لاحت فى عينيه نظرةسام عميقةوتململتململ السجين. بدا البقاء فى البيت حسرة طويلة زاد من حدة الها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالراس ذلك اللعب المدغدغ الحار السار السائل بهجة وافراحا ،

فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذى جر عليه التعاسة لأهون الأسباب ، كان ابعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها ، ولم يذكر من بواعث ألمه الا الحصار الذى شده الانجليز حول البيت ، وانه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة الى زينب فوجدها تتفرس فى وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة « مالك شاردا ؛ مالك واجما ، أليس لوجودى أى أثر فى التسرية عنك ! » . . ادر كمعناها كله فى لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما، ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين ، وبالعكس لعله أحنقه وأثار ثائرته ، أجل لم يحقد على شىء كما حقد على اضطراره للبقاء معها طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التي يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر ويتساءل فى غرابة اليست هى هى ! . . اليست هى التى خلبت لبى ليلة الزفاف ؟!. . اليست هى التى شغفتنى هياما ليالى واسابيع ؟!. . . فمالها لا تحرك فى ساكنا !. . أى شىء طرأ عليها !. . مالى أتململ برما وسأما فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغرينى عن سكرة تأجلت ! ومال ــ كما فعل مرات من قبل ــ الى رميها بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه فى المعاشرة الدائمة، فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم ، ولم يكن تعلقه بإحداهما بمانعه من التنقل اذا سنحت دواعيه وقد ذكر لحظات حيرته هذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجر له فى خاطر . وانتبه على تساؤلها :

ــ لعلك غير مرتاح الى البقاء فى البيت . .؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة واصرار:

ــ بلى . . .

ومع انها تحامت النقار من بادىء الأمر الا أن لهجته آذتها اشد ايذاء فقالت بحدة ــ لا ذنب له فى هذا ، أليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة . . فقال متسخطا :

ــ دلينى على شىء واحد يجعل البيت محتملا . .

فقامت غاضبة وهى تقول فى نبرات منذرة بالبكاء :

ــ سأخلى لك المكان لعله يطيب لك . .!

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه « يالها من حمقاء لا تدرى أن القدرة الالهية وحدها هى التى تبقى عليها فى بيتى » .
ومع أن الشجار نفس عن حنقه قليلا الا انه كان يفضل الا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو اراده ولكن عقله الفتور الذى ران على مشاعره جميعا ، غير أنه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها فى آذنيه فاقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعثوره فجأة على ثمالة حب لها فى زوايا قلبه ولكن لحرصه دائما على الا يشذ فى معاملتها عن حد الأدب ـ ربما اكراما لأبيها او خوفا من أبيه ـ حتى فى فترة الانتقال العصيبة التى أخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم . واعتذر عن اسرافه بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب فى هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .
بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى الوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه اسفه الى مصالحه زوجه بل قال لنفسه « هى التى استثارت غضبى .. الم يكن بوسعها أن تخاطبنى بلهجة إرق ! » .. انه يحب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية .
اشتد ضيقه بسجنه بعد اغضابها وانسحابها فغادر المكان الى السطح .
وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا انها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة فى نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى اذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل انفاس تتردد بين لحظة واخرى فحملق فى الظلام متعجبا وهتف متسائلا :
ـ من هنا ...؟
فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول فى نبرات نحاسية :
ـ انا نور يا سيدى ..
تذكر من توه أن نور جارية زوجه تأوى ليلا الى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ،

ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم فى مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء فى الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة الصدر ، عبلة الأرداف ، ذات وجه لامع ؛ وعينين براقتين ، وشفتين ممتلئتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، او هكذا بدت له مذ طرات على بيته . وفجاة ، وعلى حين غرة ، تفجرت فى صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال ام حنفى ليلة زفاف عائشة ، انبعث فى وجدانه الخامد حياة فوارة ، وانتشر القلق فى دمه حتى تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى ، كل أولئك فى لمح البصر . ودب النشاط فى مشيته وفكره وخياله، وكف وهو لا يدرى عن قطع السطح من أوله الى آخره مقصرا خط ذهابه وايابه الى الثلثين ثم الى النصف ، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء ..؟ خادم ؟.. وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما ان تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغني كما اغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقيها . بل الدمامة نفسها ــ مادامت قد ركبت على امراة ــ اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند ام حنفى او عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على اية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى ــ لاشك ــ ملمسه بالفتوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تعد بطرافة فى الوصال وجدة فى التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء . وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه فى دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال فى سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها ، مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض فى جو من الحذر ان تكون ــ كأم حنفى ــ بلهاء فتتجاوب اركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم فى خطوات وئيدة محملقا صوبها ، يرد بكل ما اضطرم فى صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ــ رغم الظلمة الفاشية ــ الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه اعلى جسمها ولكنه واصل سيره كان ما وقع قد وقع عفوا ، غير أن رعدة سرت فى بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته فى الغيبوبة التى تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند

الافاقة النسبية فى نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند من صاحبته من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتيابها فى امره فاستدار مصمما على اعادة الكرة . اعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها ـ لم يخطئه احساسه هذه المرة ـ ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الشدى الأخرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه سندرك غايتى بلا شك ، بل لعلها ادركتها فند عنها ما يوحى بانها ارادت ان تنتحى جانبا ولكنها ابطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على اى حال لم تتقينى باليد . ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب . لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتثاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة فى الفرار لولا ان وجد منها استسلاما او بلادة اغرقت ثمالة وعيه فى تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

ـ أهذه انت يا نور ..؟!

فقالت الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط واوشك هو ان يلتصق بها :

ـ نعم يا سيدى ..

اراد أن يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب فى اعماقه كالملاكم الذى يلوح بقبضته فى الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وانفاسه تترامى على جبينها :

ـ لم لم تذهبى الى حجرتك ..؟

فقالت الجارية التى تعثرت فى نطاق حصاره :

ـ كنت اشم الهواء قليلا ..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس فى أذنها وهو يلصق خده بخدها :

ـ هلمى الى الحجرة ...

فتمتمت فى ارتباك :

ـ عيب يا سيدى ...

رنت نبراتها النحاسية فى الصمت رنينا أزعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها ـ فيما بدا ـ لا يتأتى لها الهمس او ان من طبع همسها

الرنين ولو فى اخفض درجاته ، على انه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته منّ ناحيــة لخلو لهجتها من الاحتجـاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ــ تعالى يا حلوة . . .

فسلست ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعــة ، وهو يغمر خــدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفىنشوة السرور جعل يقول لها :

ــ ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فاجابته بلهجتها العادية الخالية من اى احتجاج :

ــ عيب يا سيدى . . .

فقال وهو يبتسم :

ــ ما أرق ممانعتك ، زيدينى منها . .

ولكنها ابدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ــ عيب يا سيدى . . (ثم كالمخذرة) . . الحجرة ملأى بالبق . .

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

ــ انام على العقارب من اجلك يا نور . . .

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمــل هذه الـكالمة من معــان ، وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شــفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لادور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليهــا أن تجلس فرددت قولها « عيب يا ســـــيدى » الذى بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحــدة فاجلسها بنفســه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث أن وجد لذة جـديدة فى ترددها بين السلبية والاذعان فجد فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلى فنسى الزمن . ثم خيل اليه ان الظلام من حوله يتحرك او أن مخلوقات غريبــة فى طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث أن كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدرى كم لبث ، أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة فى رأسه تولد من ارتطامها فى بصره انوار وهمية ، ولكن مهلا ، ان جدران الحجرة تتماوج . ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الاسرار ، ورفع رأسه محملقا فراى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

— نمت يا نور ؟!.. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفه يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكيبها . ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك اذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من ان تقول بصوت باك :

— أنت السبب يا سيدى ، ماذا أفعل الآن . . ؟!

فلكزها فى كتفها بقسوة حتى امسكت ، وحدق فى الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر — بدافع لا شعورى — الى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد فى موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب . ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف :

— نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا ان تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين :

— نعم يا ستى ...

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

— ما أسرع أن تنامى يا شيخة !.. ألم ترى سى ياسين ؟.. سيدى الكبير ارسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى والفناء وها انا لا اجده فوق السطح ، هل رايته .. ؟

وما اتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب ، ثم بحركة غريزية التفت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزى والهوان ، التقت عيناهما لحظة قبل ان يغض بصره ، ومرت لحظة اخرى فى صمت قاتل ، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

— يا فضيحتك السوداء .. انت !.. انت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « انفضحت وما كان كان » ولبث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه فغادر الحجرة الى السطح دون أن يخطر له ان يتجاوزه . لم يدر ماذا يصنع ولا الى أى مدى تذاع الفضيحة ، أتنحصر فى شقته أم تنتقل الى الشقة الاخرى ؟.. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من ان

يلحق بها كي يحصر الفضيحة في اضيق حدود ، ثم تساءل وهو في أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟.. هل يسعفه الحزم هنا أيضا ؟.. ربما لو لم يتسرب نبأها الى أبيه ، وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة ، ثم هرولت نحو باب السطح ومرقت منه ، هز كتفيه استهانة ، وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك انه نسي ان يرتدي الفانلة فعاد الى الحجرة مسرعا ..

— ٥٨ —

في الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابل السيد احمد واخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بابلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الانجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين وان عليه ان يفتح دكانه ، وعلى التلميذ أن يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ، وحذره من حجز التلاميذ ان يظنوا من المضربين لافتا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب ، بذلك استرد البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح ، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام .

قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن اما داخله فهي طين ووحل » ، أجل قضت أكثرية اهل البيت ليلة نكراء احاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذي تقلق به صدرها على حزنها وتذمرها أن يصمد للمنظر المروع الذي رأته عيناها في حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدا أن يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا .. وكانت الفضيحة . قصت عليه كل شيء متشجعة بانفعالها الجنوني الذي لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال احد من الناس . انتقمت بذلك لكرامتها الذبيحة ، وللصبر الطويل الذي تجرعته حينا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحايين : « جارية ! خادمة ! في سن أمه ! وفي بيتي ! ماذا عساه يفعل في الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكي غيرة ، أو لعل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما

تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على ان تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان . اجل هجرت مخدعها فقضت الليل فى حجرة الاستقبال ، يقظى اكثره تهذى هذيان المحمومين ونائمة أقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا . اصبحت وهى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حميها نفسه ان يفعل ؟.. لن يستطيع ان يمنع المنكر بعد أن وقع ، ولن يسعه مهما يكن جبروته ان ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها . اقصى ما يراه ان يزجره ، أن يصب عليه غضبه ، وسينصت ـ الفاسق ـ خافض الرأس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة !.. هيهات . لقد رجاها السيد أن تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر او العفو . جارية سوداء فوق الأربعين !.. كلا . ستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستفضى الى ابيها ببثها كله ، وستبقى فى كنفه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه او فلتذهب هذه الحياة كلها ـ بخيرها وبشرها ـ الى الشيطان ، اخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق انه غلبها الجزع من بادىء الأمر فبثت همها الى امها ، ولكن الأم اثبتت انها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب الى الأب ، واوصت ابنتها بالصبر قائلة ان جميع الرجال يسهرون ـ كوالدها مثلا ـ وانهم أيضا يتربون ، وانه حسبها أن بيتها عامر بالخير ، وأن زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . اصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها ايما اجهاد متجملة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين فى بطنها مبشرا بالأمومة المرموقة ربما كمن التذمر فى أعماقها بيد انها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمها تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج فى صدرها بين حين وآخر عما يمكن أن يفعل زوجها فى سهراته الخمرية ، وحدث ان افضت الى امها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها مالحق بالرجل من فتور فى عواطفه . ولكن الأم الحكيمة أفهمتها أن ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع فى خاطرها ، أنه « شىء طبيعى » وأن الرجال جميعا لديه سواء ، وأنها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها

تجـــارب العمر .. على أنه حتى لو صـدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟.. هل ترضى بهجر بيتها لأن زوجها يلم بغيرها من النساء ؟.. كلا ، وألف مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأقفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة أو أخرى ولكنه يعود دائما الى بيته مادامت زوجه خليقة بأن تبقى عنـده المرجع الأخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن فى أزواجهن اخريات ، أليس طيش زوجها - ان صح - خطبا أخف من سـلوك أولئك ؟!.. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصـيره أن يعقـل فيثوب الى بيته ويشغل بذريتـه عن الدنيا جميعا ، ومعنى هـذا انه ينبغى لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجرى مجراه ، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد أن واقعـة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ..

ومع أن السيـــد لم يفطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا أن غضبته كانت أشـد من أن تمر بسـلام ، وقد احسنت الجارية صنعا بفرارها . أما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعجا فى العاصفة التى تتربص به ، حتى ترامى الى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السـياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائسـا فى مـكانه ، وما يدرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدما لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثـر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثب منـه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه راسا متصلبا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما أراد بصمته أن يعبر له عما يجـد نحوه مما يعيى الألفاظ حمله ، أو انه اراد أن يرمز به الى ما كان يود ان يؤدبه به من مُبرح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا « انت تتحـدانى تحت سمعى وبصرى !.. فلتذهب انت وخزيك الى جهنم .. دنست بيتى يا وغد ، هيهـات ان يتطهر هذا البيت مادمت فيه .. كان لك قبـل الزواج عـذر واه فأى عـذر لك الآن ؟ ! » . . « لو أصاب كلامى حيـوانا لأدبه ولـكنه

ينصب على حجـــر .. أن بيتـــا يضمـــك خليـــق بأن تـــتنزل عليه اللعنات » .. نفس عن صـــدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصـــهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الراس كأنه يوشك ان يذوب فى الظلام ، حتى اجهـــد الرجل الزعق فولاه ظهره وغادر المـــكان وهو يلعنه ويلعن اباه وامه ، ومضى الى حجرته يفور بالغضب فـــورا . فى ثورة الغضب راى زلة ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفى ثورة الغضب لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين . وانه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب ابناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات . لا لأنه فى ثورة الغضب ينسى حقا ، ولكن لأنه يحل لنفسه ما لا يحل لأحد من ذويه ؛ له أن يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التى يريدهم على أن يلتزموها فلعل غضبـــه على ما فى ذنب ياســـين من « تحد » لارادته و « استهانة » بوجـــوده و « تشويه » للصورة التى يجب ان يتصور بها ابناءه . كان انفعـــاف غضبه على الذنب نفسه ، على أن غضبه ــ كما هى عادته ــ لم يـــستمر طويلا ، ما لبث ان خبا لظاه وخمد توقده فعاوده للهدوء رويدا وان شاب مظهره ــ مظهره فقط ــ الوجوم والأسى ، عنـــد ذاك امـــكنه أن ينظر الى « جريمة » ياســـين من أكثر من زاوية واحدة ، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرارية . اول ما ابتـــدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا فى التسامح فانه يكره النســـامح فى بيته ، ولـــكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان ابنى لم يشق عصا الطاعة .. هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » .. ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟.. كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز لفهمى بل لكمال ان يتمـــاديا فى الاستهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التى تحـــل له أن يستقل بنفســـه عن ارادته ولو شيئا ما وتعفيه هو ــ السيد ــ من تحمل مسئوليـــة فعاله ، كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتى ، هيهات ، ولكنه بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتى » .. وغنى عـــن القول انه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق ولن يعفو عنـــه لو تجاسر على المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيمـــا بينـــه وبين نفسه الا فى حال الوقوع فى معصيـــــة تستـــوجب مبررا للخروج على ارادته ، ولم ينس

حتى فى تلك الحال ان يذكر نفسه ــ التماسا للمزيد من الطمأنينة ــ بانه ادبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الابناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها اى عطف ، لقد واساها اكراما لأبيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن أن الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها ــ مهما تكن الظروف ــ على النحو الذى فضحت به ياسين !.. لشد ما أعولت ! لشد ما صرخت !.. ماذا كان يصنع هو ــ السيد ــ لو ان امينة فجاته يوما بمثل هذا التصرف ؟!.. ولكن اين هى من امينة !؟.. ثم كيف قصت عليه ما رات دون حياء !.. أف ! أف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين ان يؤدبها بل لما رضى هو أن تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد اخطأ ياسين ولكنها اخطأت خطأ اكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر ــ بباطن مبتسم ــ فى الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن يدرى لعلها تضطرم الآن فى صدر فهمى تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل الا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى سمعه صوت كمال وهو يغنى « يا طير يا اللى على الشجر » !؟ .. تاخر لحظتذاك وراء الباب لا ليتظاهر بانه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب ــ ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن اليه احد ، كم يلذه ان يرى نفسه مترعرعة من جديد فى حياة ابنائه على الأقل فى ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا .. ان لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، او انه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعى المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان أعمى .. ينقض مرة على ام حنفى وبضبط اخرى مع نور ، يتمرغ فى التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! اجل انه يدرك مقدار الضيق الذى الم بياسين لاضطراره الى قضاء الليلة فى شبه سجن ، يدرك لأنه كابده هو أيضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه فى بستان السطح ــ كما فعل الفتى ــ فصادف جارية ــ ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه ــ اكان يقدم على المغامرة ؟ .. كلا . مؤكد كلا ، ولكن اى وازع كان يشكمه ؟ .. لعله المكان ؟ الأسرة ! ولعله العمر الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه ، وخيل اليه انه يغبط ياسين على ريق

شبابه وجنون زلته معا !. مهما يكن من امر فالطبيعتان مختلفتان . لم يكن السيد ـ كابنه ـ مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط . امتازت شهرته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت فى ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعيـة المالوفة . كان مغرما بالجمـال الأنثوى فى لحمه وتبختره واناقته ، فلم تخل جليلة أو زبيدة او ام مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو اكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضى طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن الى هواه فتهيىء له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشـقه كذلك فى هالاته الاجتماعية اللألاءة . تجـذبه المكانة المرموقـة والصيت البعيد ، ويلذ له ان ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من احوال توجب التستر والـكتمان كحال أم مريم ، على ان هذا الحب « الاجتماعى » لم يكن ليفرض عليه تضحيـة بالجمال . فالجمال والصيت ـ فى هذا المجال ـ يسيران جنبا لجنب كالشىء وظله، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل الى الصيت والمـكانة المرموقة ، وقد عشق اشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « أم حنفى !.. نور !. ياله من حيـوان » انه برىء من هذا الشـذوذ بيد أنه ليس فى حاجة الى أن يتساءل طـويلا عـن مصدره فانه لم ينس بعـد تلك المرأة التى انجبت ياسـين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته أما هى فمسئـولة عن نوع هذه الشـهوة النزاعة الى الحضيض . وقد عاوده فى الصباح التفكير « الجـدى » فى المسـألة فكاد يدعو الزوجين اليه كى يصفى ما بينهما ـ وما بينه وبين كليهما ـ من حسـاب ، ولكنه ارجأ ذلك الى متسع من الوقت انسب من الصباح ، ولما سأل فهمى ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة اجابه مقتضيا « شىء تافه سـوف احدثك عنـه فيما بعد » وظل فهمى جاهلا سر غضب أبيـه على أخيـه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كله . شهد الصباح الأسرة على غير مالوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرا صوب الجنود والأم من وراء خصاص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كل سوء . ولم تشأ

امينة ان تقحم نفسها فى « واقعــة » السـطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر ان تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقـرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا اثار استيـــاءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امراة قط ؟.. »

لا ريب ان ياسين قد اخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه اخطأ فى حق ابيــه وحرمتــه لا فى حقهــا هى .. الست ملاكا بالقيــاس الى هـذه الفتاة ؟!.. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية فصـعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على اثر ، ومضت من حجرة الى حجـرة وهى تنادى حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهى تقول : « رباه .. هل ارتضت زينب ان تهجر بيتها ؟!.. »

- ٥٦ -

لم تنج امينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعـرض الجنود لاحد رجالها فى ذهابه او ايابه لم يكد يفارق راسها . وكان فهمى أول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها راته متجهما فسالته :

ـ ماذا بك يابنى ؟

فهتف فهمى متأففا :

ـ اكره ان ارى هؤلاء الجنود ..

فقالت المرأة باشفاق :

ـ لا تبد لهم الكراهية ، ان كنت تحبنى لا تفعل ..

ولكنه لم يفعـل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على ان يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى أن ينحرف بصره الى احدهم ، ومضى الى البيت متســـائلا فى سـخرية عما كانوا يفعلونه لو انهم علموا بانه راجع من مظاهرة اشتبـكت مع جنودهم فى شبـه معركة ، او انه وزع فى مطلع اليوم عشرات المنشورات التى تحرض على قتــالهم . جلس يسـتعرض مالاقاه فى يومه مسـتحضرا اقله كما وقع واكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا كان رايه ان يعمـل نهارا وان يحلم مســاء ، تحـدوه فى الحـالين اسمى العواطف وافظعها ، حب قومه

من ناحية والرغبة فى التقتيل والابادة من ناحية اخرى . احلام يسكر بها وقتا يطول او يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها ، احلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه . هزيمة الانجليز ، خطبة خالدة فى ميدان الاوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر ، عودة سعد من المنفى ظافرا . لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم ، مريم بين شهود الافتتاح التاريخى . اجل كانت احلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها ــ طوال تلك الايام ــ فى ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب ابان العاصفة. وما يدرى الا وامه تقول له وهى تشد المنديل حول راسها فى ارتباك :

ــ ذهبت زينب الى بيت ابيها غضبانة ..

آه .. كادينسى ما الم بأخيه واسرته فى الصباح ، الآن تأكد اليه ماحدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى امه حياء ان تقرا مايدور بخلده خصوصا وانه ايقن باطلاعها على جلية الامر ، ولم يستبعد ان تفطن الى ادراكه له او فى الاقل ان ترجحه ، فلم يدر مايقول لاسيما انه لم يعتد فى محادثتها ان يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن ابغض لديه من ان يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، فقنع اخيرا بان يتمتم قائلا :

ــ ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس امينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة اخبارية واخرى دعائية فى معالجته ، وما لبث فهمى ان دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ ادرك ان امه تكابد مثل شعوره وانها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الاقنعة ؛ على ان ارتباكهما لم يطل فما هى الا دقائق حتى رايا ياسين مقبلا نحوهما . حيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد فى البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيرا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة ان ياسين غلبه شعور باهر بانه اجتاز مغامرة ظافرة انسته الى حين جل متاعبه . كان فى طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كانما انشقت عنه الارض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به او فى الاقل اهانة

جارحة على مرأى من اصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندى كانما يستأذنه فى المرور :

ـ من فضلك ياسيدى ..

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يبتسم ـ اجل يبتسم ـ فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه ان يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن يتصور ان جنديا انجليزيا يبتسم على هذا النحو ، او ـ اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر ـ ان يبتسم له احدهم فيما يشبه الادب ، فاستخفه سرور اربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لاداء هذه الخدمة البسيطة لذاك الجندى العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقدبادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندى مادا له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

ـ اشكرك ..

لم يكن افاق من اثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت اساريره وكان عبارة « ثانك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا انها ضمنت له ان يذهب ويجىء امام المعسكر آمنا » وما كاد الرجل يبدى اول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من اعماق فؤاده :

ـ حظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمترنح من الفرح . اى حظ سعيد ظفر به هو !.. انجليزى ـ لا استرالى ولا هندى ـ وابتسم له وشكره !.. انجليزى اى رجل يتمثل فى خياله كانموذج لكمال الجنس البشرى ، ربما ابغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا انه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره .. ! وقد اجابه اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر !.. كيف يصدق ما ينسب اليهم من الاعمال الوحشية !!.. لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله !! غير ان حماسه فتر بمجرد ان وقع بصره على الست امينه وفهمى واستطاع ان يقرا نظرتهما ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى انه يواجه مرة اخرى

المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

ــ لماذا لا تجلس معكما ؟ .. الا تزال غضبانة ؟

فتبادلت امينة مع فهمي نظرة ثم تمتمت بارتباك :

ــ ذهبت الى ابيها ...

فرفع حاجبيه دهشة او انزعاجا ثم سالها :

ــ لماذا تركتها تذهب ..؟

فقالت امينة وهى تتنهد :

ــ تسللت دون ان يشعر بها أحد ..

شعر بانه يجب أن يقول قولا يرضى كرامته امام اخيه وامه فقال باستهانة :

ــ الى حيث ..

وقرر فهمي ان يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم اخاه بانه لم يطلع على سره وبالتالى أن ينفى شبهة اذاعته هذا السر عن أمه فسأله ببساطة :

ــ ما الذى دعى الى هذا النكد ..؟!

فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كانما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال :

ــ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .

ثم ناظرا الى ست امينة :

ــ اين هن ستات الامس ..!؟

نكست امينة راسها حياء فى الظاهر ، وفى الحق لتدارى ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الان ، صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه ، والصورة التى ضبط بها مساء امس فوق السطح ، على ان انزعاج ياسين كان اعظم بكثير من القدر الذى سمح له الموقف بان يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته الزوجية لم يفكر لحظة فى قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذا ومستقرا ورعاية الى ما بشرت به من ابوه وشيكة رحب بها ايما ترحيب ، تمنى دائما ان تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية العام الى وطنه : ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين ابيه ثم بينه وبين السيد عفت ، الى مالايبس . هذا كله من فضيحة ستفوح رائحتها حتى تزكم الانوف .. بنت الكلب !.. لشد ما كان مصمما

على ان يستدرجها الى الاعتراف بانها اخطات خطأ اكبر من خطئه ، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فاقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتاديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت .. قلبت خططه راسا على عقب .. وضعته فى مازق غير يسير . بنت الكلب !.. وانتزع من تيار افكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمى وامه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فادركوا بسهولة انه صادر عن امراة ، ولكن تساءلت اعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه : انعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت امينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمى :

— انه قريب .. لعله فى طريق بيتنا ..

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :

— الا يكون الانجليز قد هاجموا امراة مارة بالطريق ..؟

وهرع الى المشربية والآخران فى اثره ، بيد ان الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بانظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امراة لفتت الانظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن احاط بها من المارة واصحاب الحوانيت ، على انهم عرفوها لاول وهلة وهتفوا معا :

— ام حنفى ...

وتساءلت امينة التى كانت ارسلتها لتعود بكمال من المدرسة :

— مالى لا ارى كمال معها ؟!. وماذا يوقفها هكذا كالجماد ..!

— كمال .. رباه .. اين كمال ..؟

ثم مدفوعة بشعور غريزى ؟!

— هى التى كانت تصرخ .. عرفت الآن صوتها .. أين كمال ؟. اغيثونى ...

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة ، استغرقهما تفحص الطريق عامة والمعسكر الانجليزى خاصة حيث رأوا انظار المتجمعين — وفى مقدمتهم ام حنفى — تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى أن أم حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبداهة بانها كانت تستغيث لان ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفها فى الانجليز ، ولكن اى خطر هو؟ .. وابن كمال ؟.. ماذا حدث للغلام ؟. ان الام لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة الى من

يسكن خاطرهما .. اين كمال ؟.. ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشانه كأن شيئا لم يقع وكان احدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمى فى كتفه :

ـ الا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين ان كمال يقف بينهم . انظر ...

فلم تملك الام ان صرخت قائلة :

ـ كمال بين الجنود .. هاهوياربى .. رباه .. اغيثونى

اربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الاذرع ، وقد مرت غينا فهمى اكثر من مرة دون ان تعثر على ضالتها ، فى هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل اليه انهم سيتقاذفونه بارجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه انساه خوفه على اخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ـ ساذهب اليه مهما تكن العواقب ..

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم « قف ».. ثم خاطب الام بصوت هادىء باسم قائلا :

ـ لا تخافى .. لو انهم ارادوا ان يصيبوه بسوء ما ترددوا .. انظرى اليه الا يبدو منهمكا فى حديث طويل ؟!. ثم ما هذا الشىء الاحمر الذى بيده ؟!. اراهن على انها قطعة من الشيكولاته !.. هدئى روعك .. انهم يتسلون به و « متنهدا » شد ما افزعنا على لاشىء .

سكن روع ياسين ، وما لبث ان تذكر مغامرته السعيدة مع الجندى فلم يستبعد ان يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ، ثم راى ان يدعم قوله ويثبته فى فؤاد الام الملتاع فاشار الى ام حنفى التى لم تزل فى موقفها قائلا:

ـ الا تريان ان أم حنفى لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعيا له . ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمانينة ..

فغمغمت امينة بصوت مرتعش :

ـ لن يطمئن قلبى حتى يعود الى ..

وتركزت اعينهم فى الغلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة واخرى ، غير أن الجنود استردوا اذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمانوا الى عدول كمال عن التفكير فى الهرب ، فبدا الغلام بكامل هيئته ، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه واشارات يديه التى استعان بها

على الافصاح عن افكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟.. هذا ما لم يستطع احد ان يخمنه ، بيد انهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الام نفسها استطاعت اخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

— الظاهر اننا غالينا فى التشاؤم حينما ظننا ان احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى ..

ومع ان فهمى بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا انه لم يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون ان تتحول عيناه عن الغلام :

— ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للاطفال ... لاتغل فى تفاؤلك ..

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامرته السعيدة ، ولكنه ادرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثارة اخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

— ربنا يخلصنا منهم على خير ..

وتساءلت امينة فى لهفة :

— الم يئن لهم ان يدعوه مشكورين .. ؟

ولكن بدا عن دائرة كمال ان ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع احد الجنود الاربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسي خشبى فوضعه امام كمال ، وما لبث الغلام ان وثب الى الكرسى فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كانما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله — دون شعور منه فى الغالب — كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز .. ماخطبه ؟ .. ماذا وراء هذه الوقفة ؟ .. لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ماعلا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عزيز عينى بدى اروح بلدى
يا عزيز عينى السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون اليه فاغرى الافواه ضاحكى الأسارير تلاحق اكفهم ترديده بالتصفيق ، وكان احدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الاغنية فراح يهتف « أروح بلدى .. أروح بلدى » .. فتشجع كمال بما جظى من سرور سامعيه وأقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلى من صوته ، حتى ختمت الاغنية بين

التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيه الاسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . اجل شاركت الاسرة فى الاستحسان بعد ان شاركت — بقلوبها ايضا — فى الغناء ، تتبعوه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغنى بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته ، وكأن كرامتهم — أفرادا ومجموعة — امست متعلقة بنجاح الغناء،نسيت امينة فى لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمى لم يكن يفكر فى اثناء ذلك الا فى الغناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الاعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل ان يطرا طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الارض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الاسرة من المتربية الى الصالة لتكون فى استقباله ، اقبل عليهما لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه واساريره وحركات اعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والفوز ، اترع قلبه الصغير سعادة غامرة ماكان بوسعه الا ان يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيها ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقى برؤية كافية لان تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه .. ولكن الفرح أعماه فهتف بهم :

— عندى خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه ...

فقهقه ياسين متسائلا فى سخرية :

— اى خبر ياعزيز عينى ؟ !

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نورشعشع فجاة فى الظلام فراى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة ادهاشهم بحديثه العجيب فاغرق فى الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

— أرايتمونى حقا .. ؟ !

عند ذلك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بنبرات متشكية :

— كان الافضل ان يروا تعاستى ! .. علام هذا الفرح كله بعد ان سيبت مفاصلى ؟ .. حادثة اخرى كهذه والله يرحمنى ..

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة ، يعلو وجهها الشحوب والاعياء وتلوح فى عينيها نظرة استسلام غريبة .. فساءلتها امينة :

ـ ماذا حدث ؟ .. ماذا دعاك الى الصراخ ؟ .. لقـد لطف الله بنا فلم نشهد شيئا مفزعا ..

فاسندت ام حنفى ظهرها الى ضلفة الباب واخذت تقول :

ـ حدث ما لن انساه ياستى .. كنا عائدين واذا بشيطـان من هؤلاء الجنود يقفز امامنا ويشير الى سيدى كمال ليذهب اليـه ففزع سـيدى وجرى الى درب قرمز ، ولكن جنديا آخر اعترض سـبيله فانحرف الى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبى من الخوف وجعلت استغيث باعلى صوتى وعيناى لاتفارقانه وهو يجرى من جندى الى جندى حتى احاطوا به .. كدت اموت من شدة الخوف وزاغ بصرى فلم اعد أرى شيئا ، وما ادرى الا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم اكف عن الصراخ حتى قال لى عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام ... وحدى الله .. انهم يلاطفونه .. » .. آه يا ستى لقد حضرنا سـيدنا الحسين ودفـع عنا الشر ..

قال كمال معترضا :

ـ لم اصرخ أبدا ..

فضربت ام حنفى صدرها بكفها قائلة :

ـ لقد ثقب صراخك اذنى حتى جننتنى ...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

ـ ظننتهم يريدون قتلى ، ولكن احـدهم جعـل يصفر لى ويربت على كتفى ثم أعطانى (وهنا جس جيبه) شيكولاته فذهب عنى الخوف ..

زايل امينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التى يجب الا تغيب عنها هى أن الفزع ركب كمال دقائق ، وانه يجب أن تدعو ربهـا طويلا كى ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى فى الفزع مجرد شعور عابر ، كلا ... انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تأوى اليها العفاريت كما تأوى الخفافيش الى الظلام ، فاذا احاط بشخص ـ خصوصا الصغار .. مسه بضر سيىء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة ، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا ام حجابا ، قالت بحزن :

ـ افزعوك ! .. قاتلهم الله ..

وقرا ياسين مايدور فى خاطرها .. فقال مداعبا :

ـ الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع .. (ومخاطبا كمـال) .. هـل دار الحديث بالعربى ؟

رحب كمال بالسؤال لانه فتح له مرة اخرى ابواب الخيـال والمغامرة ،

منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت اساريره انبساطها:
- كلمونى بعربى غريب ! .. ليتك سمعته بنفسك ..
وراح يحاكى طريقتهم فى الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى أمه ابتسمت ... فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه :
- ماذا قالوا لك ؟
- كلاما كثيرا ! .. ما اسمك ، اين بيتك ، اتحب الانجليز ؟ !
فهمى ساخرا :
- وبم اجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟ !
فرمق اخاه كالمتردد .. ولكن ياسين اجاب عنه قائلا :
- طبعا قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد أن يقول .. ؟
على ان كمال استطرد يقول متحمسا :
- ولكنى قلت لهم ايضا ان يعيدوا سعد باشا ..
فلم يتمالك فهمى أن ضحك عاليا .. وسأله :
- حقا ! .. وماذا قالو لك ؟
فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك اخيه :
- امسك احدهم باذنى وقال لى « سعد باشا نو .. »
فعاد ياسين يتساءل :
- وماذا قالوا لك أيضا ؟
فقال كمال ببراءة :
- سالونى .. الا يوجد بنات فى بيتنا .. ؟
فتبودلت نظرية جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمى باهتمـــام :
- وماذا قلت لهم :
- قلت ان أبله عائشة وابله خديجة تزوجتا ؛ ولكنهم لم يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى نينة فقلت : ...
رمى فهمى اخاه ياسين بنظرة كانما يقول : « أرأيت كيف أن سوء ظنى كان فى محله ! » .. ثم قال ساخرا :
- لم يعطوه الشيكولاته لوجه الله
فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :
- ليس ثمة مايدعو الى القلق ..
وابى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال :
- وكيف دعوك الي الغناء ؟

فقال كمال ضاحكا :

ـ فى اثناء الحديث انطلق احدهم يغنى بصوت منخفض ، فاستأذنتهم فى ان اسمعهم صوتى .. !

فقهقه ياسين قائلا :

ـ يالك من فتى جرىء ! .. الم يعاودك الخوف وانت بين ارجلهم ؟

فقال كمال فى مباهاة :

ـ ابدا .. (ثم بتأثر) .. ما اجملهم ! .. لم ار اجمل منهم من قبل . عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم ابله عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعدزغلول ثبتت فى الجدار الى جانب صور الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

ـ انهم اجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمى رأسه كالآسف وقال :

ـ يالك من خائن ! .. اشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت ام حنفى قد احضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن .. واخذت امينة تهيىء القهوة الجلسة التقليدية ، عاد كل شىء الى اصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة ، على حين انتحى كمال جانبا واخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا ان تعنيف فهمى ضاع فى الهواء اذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

- ٦٠ -

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها احد . مايدرى السيد احمد الا ومحمد عفت قادم عليه فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل ان يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

ـ ياسيد احمد .. جئتك برجاء ، يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد ان أمكن ..

بهت السيد . اجل قد ساءه سلوك ياسين اكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة بانطلاق ، لم يتصور أن تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال أن تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة ابدا ، فخيل اليه ان الدنيا انقلبت راسا على عقب ، وأبى أن يصدق ان محدثه جاد فى طلبه فقال بلهجته اللطيفة التى طالما استاسرت قلوب اصدقائه :

ـ ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفنى بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الى .. باسم صداقتنا أمنعك من ان تجرى للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس فى وجهه ليسبر أثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم .. ودعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة ، عنيد شديد المراس اذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته اسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

ـ وحد الله .. ولنتحدث فى هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذى توهج به خداه :

ـ صداقتنا فى حرز ، فلندعها جانبا .. ابنك ياسين لايعاشر ، تحققت من هذا بعد ان عرفت كل شيء ، كم تصبرت المسكينة ! .. حضنت همومها طويلا ، اخفت عنى كل شيء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، اهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل ؟ ! .. أن تضبطه فى بيتها مع خادمتها ! (وبصق على الارض) .. جارية سوداء ! ..

بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، انت اعرف النـاس بمنزلتها عندى ، كلا .. ورب السمـاوات ، لا كنت محمـد عفت اذا سكت على هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله أن ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا » ! .. اعـرف طريق الحانة ايضا ؟! .. متى ؟ .. كيف ! .. آه ليس فى الوقت متسع للتفكير او الانزعاج ، ليخف انفعاله كله ، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس ، يجب ان يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر .. قال بنبرات اسيفة :

ــ ان مايحزنك يحزننى اضعـافا ، ومن سـوء الحظ أن سوأة من السوءات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال ، اللهم الا الحادثة الاخيرة وقد أدبته عليها تاديبا لايستبيحه لنفسه اب غيرى ، ما عسى أن اصنع ؟ .. لقد اخـذته بالتاديب العنيف مذ كان صبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزا من تصميمنا وتفسد علينـا نوايانا الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر الى المكتب :

ــ لم اجىء لاوجه اليك لوما أو احمـلك تقصـيرا ، انت كاب مثـال يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهى أن ياسين كان غير ما اردت له ان يكون ، وانه بحالته الراهنة لايصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد فى عتاب :

ــ رويدك ياسيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رايه :

ــ على اى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على عـلاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهـذا .. انت أدرى الناس بمنزلتها عندى ..

ادنى السيد راسه من راس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما دارى ابتسامة :

ــ ليس ياسين بين الأزواج بنـادرة ، فـكم منهـم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفيسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة .. وقال بجفاء :

ــان كنت تشير الى جماعتنا او الى انا خاصـة ، فالحق انى أسكر واعربد واعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! ..

جارية سوداء ! ... اهذه التى قضى على ابنتى بأن تتخذها ضرة ؟ ! .. كلا .. كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

ادرك السيد احمد ان محمد عفت -ربما كابنته سواء بسواء- مستعد لأن يعفو عن امور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل .. ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين ،فقد قال له : « اصيلة بنت اصول ، محمد عفت اخونا وحبيبنا ، ابنته ابنتنا، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس ابيها .. هل فكرت فى ان محمد عفت لايتسامح من ذرةغبار اذا مست لها ظفرا ؟ ! » .. لكنه رغم هذا كله تعذر عليه ان يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بأن محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

- رويدك ، الا ترى أن مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟ .. جارية سوداء او عالمة .. اليست كلتاهما امراة .. ؟ !

فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائلا :

- انت لاتعنى ماتقول ! .. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا لاتعشق الخادمات اذن ؟ ! . لم يشابه ياسين اباه ، انى آسف لكون ابنتى حبلى ، كم أكره ان يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة .. !

وخزته الجملة الاخيرة فغضب ، ولكنه استطاع أن يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به اصدقاءه واحبابه ، حلم بين الاصدقاء لايعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

- اقترح عليك ان نؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

- ارجو ان تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحية اخرى ، اليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليدسل ما انقطع من المودات والزيجات ؟ ! .. فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟! .. أين حلمه ؟ .. أين كياسته ؟ .. أين لباقته ؟

— لقد اصهرت اليك لأوثق اسباب الصداقة بيننا .. فكيف اقبل ان اعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

— صداقتنا فى حرز ! .. لسنا اطفالا ، ولكن كرامتى لايمكن ان تمس ..

فقال السيد برقة :

— ماعسى ان يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الاول ؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

— لن يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة اخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكأن استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطى استباءه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بان الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء يستوهبه اياه باسم الصداقة التى لاشفيع له غيرها ، فاذا قال لا فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا او كرها .. ولكن تمسى الصداقة القديمة فى خبر كان ، اما اذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من العسير أن يتذرع بكل اولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق وان يكن هزيمة الا انه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما ان اطمان الى سلامة موقفه ولو بعض الشىء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على مافرط منه فى حقه .. فقال بلهجة ذات معنى :

— لن يكون طلاق الا بموافقتى .. اليس كذلك ؟ .. بيد اننى لن انبذ رجاءك مادمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التى لم ترع لها حقا فى مخاطبتى ..

فتنهد محمدعفت .. اما ارتياحا للنهاية المنشودة او احتجاجا على عتاب صديقه او للاثنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

— قلت الف مرة ان صداقتنا فى حرز ! .. انك لم تسىء الى قط ، على العكس من ذلك فانك تكرمنى بتحقيق رجائى وان كرهته ..

فردد السيد قوله محزونا :

— نعم .. وان كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وزينب وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل . ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة فى حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ .. آه ، لم يكن ليضن بنفيس فى سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية .. لكنه العناد التركى ، لكنه التيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره .. قال له بغضب وازدراء :

ـ كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :

ـ خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك .. ثم انجلى تعبى كله عن ماذا ؟ .. سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات فى بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ماكنت أتصور ان يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ماعسى أن أصنع بك ؟ .. لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الاسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان .. !

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد ان سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل فى القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبح جماح امرأة . ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التى لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، اما ان ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، انى افعل ما أشاء ولكنى اظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التى الهمتنى ان انشىء الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لما يشق أن ينهجوا نهجى ويحظوا فى نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن واأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية !

ـ وهل وافقت يا أبى .. ؟

تردد صوت ياسين كالحشرجة .. فأجابه بخشونة قائلا :

ـ نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولأنه اوفق حل فى الوقت الحاضر على الأقل .

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط فى حركة آلية عصبية ، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعر بهوان لم يشعر

بمثله الا فيما كابد من سلوك أمه ، حموه يطالب بالطلاق ! .. او بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق او على الأقل توافق عليه ! .. ايهما الرجل وايتهما المراة ؟ ! .. ليس عجيبا أن ينبذ الانسان حذاء اما ان ينبذ حذاء صاحبه !! . كيف رضى ابوه له بهذا الخزى الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟! .. حدج اباه بنظرة حادة وان عكست مايعتلج فى صدره من أنات الاستغاثة ، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على أن ينقيها من اى اثر للاحتجاج او الاعتراض ، كأنما يريد بهـا ان يذكره بمـا عسى أن يكون انسب :

ـ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض مايدور فى نفسه .. فقال له :

ـ أعلم ذلك .. ولكنى اخترت أن نكون من الكرماء ، محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هـذه الخطـوة ليست الأخيرة ، ليست النهاية ، لم اغفل مصلحتك وان كنت لاتستأهل خـيرا ، دعنى اتصرف كما اشاء ..

كما تشاء ! .. منـذا يرد لك مشيئـة ؟ ! .. تزوجنى وتطلقنى .. تحيينى وتميتنى ، لست هنا ، خديجة عائشـة فهمى ياسين .. الكل واحد ، الكل لا شىء ، انت كل شىء .. كلا .. لكل شىء حـد ، لم اعد طفلا ، رجـل مثلك سـواء بسواء ، انا الذى اقرر مصيرى ، اطلق أو اودعها بيت الطاعة ، تراب حذائى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ..

ـ مالك لا تتكلم ؟ ..

فقال دون تردد :

ـ أمرك يا أبى ....

اى عيشـة واى بيت واى اب ، زجر وتاديب ونصـائح ، ازجر نفسـك .. ادب نفسـك .. انصـح نفسـك ، انسيت زبيدة ؟ .. وجليلة ؟.. والغناء والشراب ؟.. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسـلام وسيف امير المؤمنين ، لم اعد طفلا ، اعتن بالقصر ودعنى وشأنى ، تزوج .. امرك يافندم ، طلق .. امرك يافندم .. ملعون أبوك ..

- ٦١ -

خفت حدة المظاهرات شيئا ما فى حى الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين، أمكنه ان يصطحب أبناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة .. عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التى لا ترتاح الى تحرك القافلة فى نهاية كل اسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها أنهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما ان افضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا ، بيد أنه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التى نذهب لتاديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر »

وكان فهمى يلبى دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتادية الفرائض منذ الصغر ، مطيعا فى ذلك — قبل ارادة أبيه — عاطفة دينية صادقة تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه .. لذلك كان الوحيد فى الأسرة الذى يقف من ايمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك ، وان ابت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشككه او يعلن استهانته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولى عبد الصمد الذى يجىء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهرى . اما ياسين فكان يلبى دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد ، لعله لو ترك وشأنه ما فكر يوما فى ان يدس جسمه الضخم فى زحمة المصلين ، لا عن تزعزع فى العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا .. لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته فى شىء من التذمر ، ثم يسير وراء أبيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره رويدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدى الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق فى اعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا فى اللذات التى يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى .

كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة ، وان مغفرة لن تكتب له بدونها ؛ ولكنه كان يرجو ان تجيء فى الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد فى النهاية الظروف التى تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن — عند الحساب — أن تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من اوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدى غيرها فريضة ..

اما كمال فلم توجه إليه الدعوة الا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها فى زهو وخيلاء وفرح ، شعر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه ، وانها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وابيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص ان يسير فى ركاب أبيه آمنا اى دون أن يتوقع من ناحيته شرا ، وان يقف فى الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام واحد ، بيد انه كان يستغرق فى صلاته اليومية — فى البيت — استغراقا لا يظفر بمثله فى صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لايحيط بهم حصر ، ولاشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس ابيه ، الى ان شدة شعوره بالحسين — الذى يحبه اكثر من نفسه — وهو فى مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغى للمصلى ..

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة اخرى وهم يحثثون الخطى الى بيت القاضى ، السيد فى المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهم فى الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبة الى المنبر فى صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطنى ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد مالحق به من عثار الحظ احق بالرحمة ، فدعا الله طويلا ان يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا .. على ان الخطبة جبهته بمعاصيه ، اخلت مابينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان النافذ حتى خيل اليه أنه يعنيه بالذات ، وانه يشد على إذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا : « يا احمد ازدجر .. تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فالم به قلق وضيق كما الما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه — كابنه ياسين — لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين

يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كانهما آلتان موسيقيتان تمزفان معا فى أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التى يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به ، فاذا الح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقى دفاعه فى صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك اعلم بقلبى وايمانى وحبى » اللهم زدنى استمساكا بتادية فرائضك وقدرة على صنع الخير ، اللهم ان الحسنة بعشرة امثالها ، اللهم انك أنت الغفور الرحيم » .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمانينة رويدا

ام تكن لياسين مثل هذه القدرة على التوفيق أو انه لم يشعر قط بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهى ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة . قرعت اذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفى طمانينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية ، ان الله ارحم من ان يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى أحدا من عباده، ثم هنالك التوبة !.. ستاتى « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة الى أبيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مماعسى ان يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادى الى الخطبة ؟.. اهو يعانى العذاب كل صلاة جمعة ام تراه ينافق ويخادع ؟.. كلا .. لا هذا ولا ذاك .. انه مثله — ياسين — يؤمن برحمة الله الواسعة « لو ان الأمر بالخطورة التى يصفه بها الواعظ لاختار ابوه احدى السبيلين ، استرق اليه نظرة أخرى فراه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين الى المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، لم يعد الحنق اثر فى نفسه، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمى قائلا : « لقد خرب ابوك بيتى وجعلنى اضحوكة بين الناس » الا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من ابيه .. بل هو على وجه اليقين امعن فى الضلال ، حدثه عنه مرة احد الاصحاب فى قهوة احمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين .. بالله فى السماء وبالغلمان فى الأرض ، انه من طراز حساس ترفعينه وهو فى الحسين اذا تاوه غلام فى القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذلك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى ابيه ما يجد الجندى فى الخنادق المحفورة فى الخطوط الأمامية التى على العدوان ان يقتحمها قبل ان يصل اليه .

ثم دعا الداعى الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا

متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد أجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد المحمل فى النحاسين ، واتصلت الأزياء فى خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحـــدة ، وترددت التلاوات الهامسة فى همهمة شاملة حتى اذن بالسلام .. عندذاك انتثر سلك النظام ، استردت الحرية أنفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريث حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم أيما اختلاط كالموجة الكبيرة تندفع نحو الشاطىء وهى آخذة فى النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوى كالشلال فتنفجر وتنساب فى شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر أيما انتشار ، أزفت الســاعة السعيدة التى منى كمال نفسه بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفســه وانابة عن أمه كما وعدها ، بدا يتحرك ببطء فى ركاب أبيه .. وما يدرون الا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجـــأة فيعترض سبيلهم فى حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نذر الغضب من صفحتـــه المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين، على حين بدا ياسين أشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبـــه الناس الى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين فى دهشة واستطلاع ، وعندذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا فى استياء :

— مالك يا أخى تنظر الينا هكذا ؟..

فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :

— جاسوس !..

نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحملقت أعينها وجمدت فى أماكنها ، على حين جرت التهمة على الألسن فرددتها فى فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم واذرعهم تشتبك فى جذر لتحصرهم فى دائرة مالها من منفذ ، وكان السيد أول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله .. الا انه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :

— ماذا تقول ياسيدنا الشيخ ؟.. أى جاسوس تعنى ؟

ولكن الشاب لم يأبه للسيد ، فأشار مرة أخرى الى ياسين وصاح :

ـ حذار ايها الناس، هذا الشابالخائن جاسوس من جواسيسالانجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم ينقلها الى سادته المجرمين

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير منمالك نفسه :

ـ انت تهرف بما لا تعرف ، فاما ان تكون مجرما او مجنونا . هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا الحى يعرفنا كما نعرف انفسنا ..

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابى :

ـ جاسوس انجليزى حقير ، رايته بعينى راسى مرارا وهو يناجى ، الانجليز عند بين القصرين ، عندى شهود على ذلك ، لن يجرؤ علىتكذيبى انى اتحداه .. ليسقط الخائن ..

وتجاوبت فى اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس» .. وصاح غيرهم «فليؤدب الخائن» .. ولاحت فى اعين القريبين نذر الوعيد تترصد بادرة او اشارة كى تنقض على الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد المؤثر الذى وقف لصق ابنه كانما يتلقى عنه ما يتهدده من اذى ، ودموع كمال الذى اغرق فى الانتحاب . اما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمى فاقد الوعى من الاضطراب والوجل ، وجعل يقول بصوت متهدج لم يكد يسمه احد :

ـ لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صدق قولى شهيد

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس » شرا ، على ان صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا:

ـ تمهلوا ياسادة .. هذا ياسين افندى كاتب مدرسة النحاسين فانطلقت اصوات كالهدير :

ـ مدرسة النحاسين او الحدادين فليؤدب الخائن ..

وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر .. فما بلغ الصف الأمامى حتى رفع يديه وهو يزعق: «اسمعوا .. اسمعوا» .. ولما هدات الأصوات قليلا قال وهو يومىء الى السيد احمد :

ـ هذا السيد احمد عبد الجواد من اهل النحاسين المعروفين .. ولا يمكن ان يضم بيته جاسوسا ، فتريثوا حتى تنجلى الحقيقة

ولكن الأزهرى صرخ حانقا :

ــ لا شأن لى بالسيد احمد أو السيد محمد ، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من امر إبيه ، رأيته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بابنائكم ...

وما عتم ان صاح إناس لا حصر لهم :

ــ ليضرب بالأحذية .

وسرت فى المتجمهرين حركة عنيفة ، فاقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمى بجانبى ياسين بحركة غريزية كانما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخاكاد يغطى علىاصوات الثائرين . كان الأزهرى اول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذى لاذ به بين ابيه واخيه حتى لاتخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمى اباه فى الموقف المثير لأول مرة فى حياته .. فاستفزه غضب شديد اذهله عما يحدق بهم من خطر ، فدفع الأزهرى فى صدره دفعة قوية ردته الى الوراء فصاح به متوعدا :

ــ حذار ان تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه :

ــ أدبوهم جميعا ...

عند ذاك علا صوت قوى يقول بلهجة امرة :

ــ انتظر يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فاتجهت الأنظار الى الصوت ، فاذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة فى مثل سنه وزيه ، تقدموا فى خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين « بوليس ؟ بوليس ؟ » بيد ان التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة . ثم سأل الأفندى الأزهرى بنبرات حاسمة :

ــ اين هذا الجاسوس ؟..

فاشار الشيخ الى ياسين بازدراء وتقزز ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل ان ينبس بكلمة تقدم فهمى خطوة الى الأمام كانما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر .. وسرعان

ما اتسعت عيناه دهشة واتكارا فغمغم قائلا :
ـ انت ..
فابتسم فهمى ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :
ـ هذا الجاسوس اخى ..!
فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلاً :
ـ انت متاكد مما تقول ؟..
فبادره فهمى قائلا :
ـ ربما صدق فى قوله .. انه رآه يحادث الانجليز ولكن أساء التفسير ايما اساءة ، ان الانجليز معسكرون أمام بيتنا،وهم يتعرضون لنا فى الذهاب والاياب فنتورط احيانا فى محادثتهم على كره ...هذا كل ما هنالك ..
وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته باشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :
ـ هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل فى لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق .. اخلوا سبيلهم
لم ينبس احد بكلمة، انسحب الأزهرى بلاتردد ومضى الناس يتفرقون صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قداحاطوا بهوراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضلل به من الناس ، ويؤكدون له انهم لم يالوا جهدا فى الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لايدرى متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الأبناء فى صمت ثقيل ...

- ٦٢ -

فى الطريق استرد انفاسه ، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا فى « الحادث » ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شىء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذى يسير فيه شيئـــا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متـــكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره فى ذاته ـــ ذاته الجريحة ـــ وسرعان ما فار بالغضب .. كان أحب الى أن تنتهى الحياة من ان أقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسير بين طغمة من اللئام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة . لم يرع لى حرمة سن أو مهابة ، لم اخلق لهذا ، ليس « أنا » الذى يهان بتلك الكيفية ، وبين ابنائى .. لا تعجب .. ابناؤك هم اصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبه ابدا . فقس الفضائح فى بيتى واوقع بينى وبين اعز الأصدقاء ، ثم توج عامنا بالطلاق .. لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لابد ان يسامر الانجليز جهارا كى أدفع انا الثمن السفلة المتهجمين ، اذهب بهم اليها كى يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين .. .

ـــ يبدو لى اننى لن اخلص العمر من متاعبك ؟..

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته فى تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذى يرثى له ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه فى الهجـــوم عليـــه ، حسبه الآن ما حاق به ، ليس وحده المذنب ، ليس وحده الذى يتحفـــه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلنؤجل همـــه حتى نفيق من متاعب الثـــور ، ثور فى البيت ، فى الحانة .. ثور امام ام حنفى ونور ، اما فى المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا اولاد الكلب !.. الله يقطع الاولاد والخلف والبيـــوت ، آه .. لماذا تســـوقنى قدماى الى البيت ؟!.. لم لا اتناول لقمتى بعيدا عن الجـــو المسموم ؟!.. ستولول هى الأخرى اذا علمت بالخبر ، لست فى حاجـــة الى مزيد من القرف ، الى الدهان .. ســـاجد حتما صديقا أقص عليه رزيتى واشكو اليه همى .. كلا .. لدى متاعب اخرى لا تقبل التأجيـــل اكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة يجب أن نجـــد لها علاجا ، الى الغداء المسموم ، واولى .. ولولى .. ولولى .. ملعون ابوك انت الأخرى ..

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده . فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا أن يغمغم قائلا :

ـ جاء دورك ...

فتساءل فهمى متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظه أخيه :

ـ ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين ـ اجل وسعه اخيرا ان يضحك ـ وقال :

ـ انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين ..!

اشد ما تمنى ان تغيب النعوت التى نعته بها صديقه فى الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تغب ، هاهو ياسين يرددها . ولا شك أن اباه يدعوه من اجل مناقشتها . تنهد فهمى من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفى عنيه نظرةتنم عن تفكير كئيب فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة فى خضوع وامتثال ، ورد الرجل تحينه بحركة خفيفة من راسه تدل على الضيق اكثر مما تدل على التحية ، وكانما تقول له : «انى أرد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة ، ولكن ادبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على » .. ثم حدجه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كانه مصباح كشاف يفتش عن مختبىء بالظلام وقال بحزم :

ـ دعوتك لأعرف كل شىء ، اريد أن أعرف كل شىء . ماذا قصد صديقك بقوله انك من « الاصدقاء المجاهدين » وانكما تعملان فى لجنة واحدة ؟ .. صارحنى بكل شىء دون تردد ..

ومع ان فهمى اعتاد فى الاسابيع الأخيرة ان يواجه اخطارا شتى ، حتى الطلقات النارية الف ازيزها ، الا انه لاقى تحقيق ابيه بقلب ماقبل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بانه لاشىء ، وتركز تفكيره فى تحاشى غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وادب :

ـ الأمر بسيط جدا ياباب ، لعل صديقى بالغ فى قوله كى ينتشلنا من ورطتنا ..

فقال السيد وقد نفد صبره :

ـ الأمر بسيط جدا .. عال .. ولكن اى امر هو ؟ .. لاتخف عنى اى شىء .

وكان فهمى يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى سرعة خاطفة ليختار مانصح قوله وتؤمن مغبته .. قال :

ـ سماها لجنة وهى لاتعدو ان تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا فى الشئون الوطنية ..

فهتف السيد مغيظا محنقا :

ـ ألهذا استحققت لقب المجاهد .. ؟ !

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه ان يحاول ابنه اللعب به .. وارتسم الوعيد فى تجعدات عبوسته . فسارع فهمى ـ دفاعا عن النفس ـ الى الاعتراف بشىء ذى بال ليقنع اباه بأنه امتثل امره كالمتهم الذى يتطوع بالاعتراف طمعا فى الرأفة .. قال فيما يشبه الحياء :

ـ يحدث احيانا ان نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية..

فتساءل السيد بانزعاج شديد :

ـ المنشورات ! .. هل تعنى المنشورات ؟ !

ولكن فهمى هز راسه سلبا ، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذى يقرن فى البلاغات الرسمية باقسى العقوبات ، وقال بعد ان وجد سيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

ـ ليست الا نداءات تحث على حب الوطن ..

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لايتمالك نفسه من الانزعاج .

ـ انت من موزعى المنشورات ! .. انت ! ..

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات ! .. من الأصدقاء المجاهدين ! .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ! .. هل بلغ الطوفان مرقده ؟ ! .. طالما راعه فهمى بادبه وبره وذكائه ، لولا ان الثناء فى نظره مفسدة وان الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء ، كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ؟ ! .. انه لايحتقر المجاهدين ، هو ابعد مايكون عن ذلك ، طالما تابع انباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك املا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الاعمال عن ابن من أبنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج عن نطاق التاريخ ، هو وحده الذى يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة واعمالها فضائل لا شك فيها مادامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامه وحياة ابنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلبت هوسا

وجنونا وعقوقا وقلة ادب ، فلتشتعل الثورة فى الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما فى وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه — فيه — بالاشتراك فى الثورة فهو ثائر عليه هو لاعلى الانجليز ، انه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التى يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من ابنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟ .. كيف ارتضى — وهو خير ابنائه — أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه فى مازق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه احد مفتشى البوليس الانجليز :

— الا تعلم ماجزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات .. ؟ !

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية — بين جملة اسئلة اخرى — وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف اجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الظرفين اللذين القى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيد انه اجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين :

— انى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة أو خطر ..

فهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب :

— ان الله لايكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد امرنا سبحانه بالا نعرض انفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم عن هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته ، فخاف ان يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لايغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه مايدرى الا وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

— ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ماداراه من استمساك برأيه ! .. لعله

احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى ان اباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما اسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جراته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب أن يجد لمأزقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك ان يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

ــ ذاك كان جهادا فى سبيل الله ..

اعتبر فهمى جواب ابيه قبولا للمناقشة والمحاجة ، فتشجع مرةاخرى قائلا :

جهادنا فى سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله ..

آمن السيد بقوله فى قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه ، هو ماجعله يرتد الى غضبه دون ابطاء .. بيد انه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن ايضا لاشفاقه من ان يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه ، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

ــ احسبتنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ماتنطوى عليه كلمات ابيه من نذير ، فضاعت احلامه وانعقد لسانه .. اما السيد احمد فعاد يقول بحدة :

ــ لا جهاد فى سبيل الله الا ما اريد به وجه الله وحده ــ اى الجهاد الدينى ــ لاجدال فى هذا !.. والآن أريد انأعرف الا يزال أسرى مطاعا ؟

فبادره الشاب قائلا :

ــ بكل تأكيد يا بابا ..

ــ اذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة .. ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة اصدقائك !

ان قوة فى الوجود لايمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطنى ، ان تتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبثق من اعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لايمكن ان تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده ، كل هذا حق لاشك فيه ، ولكن لماذا لايلتمس وسيلة الى ارضاء ابيه وتحامى غضبه لا ! .. انه لايستطيع أن يتحداه ولا ان يجهر بمخالفة امره ، اجل استطاع ان يثور على الانجليز وان يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا

ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا اما ابوه فرجل مخيف ومحبوب، وهو يعبده بقدر مايخافه فلن يهون عليه ان يصدمه بعصيان ، وثمة احساس آخر لاسبيل الى تجاهله هو ان وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، اما وراء التمرد على ابيه فليس الا الخزى والتعاسة ،وماذا يدعو الى هذا كله ؟ ! .. لماذا لايمده بالطاعة ثم يفعل مايشاء ؟ ! .. لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية ، ولم يكن فى وسع أحد منهم ان يتمتع بالسلامة فى ظل الأب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين انفسهم ، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج ، وهل كان فى نية الأم يوم تسللت فى غيبة السيد الى زيارة الحسين ان تعترف بفعلتها ؟ .. وهل كان فى وسع ياسين ان يسكر ، وهو ان يحب مريم ، وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟ ! .. ليس الكذب مما يتورع عنه احد منهم ، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ماذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

— أمرك مطاع يابابا ...

واعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد احمد انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجاة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لاتدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

— اقسم لى على هذا الكتاب ..

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل ان يتدبر امره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجاة ، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه ابيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليه فى غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

— الا تريد أن تقسم ؟ !

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة انذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد :

— اكنت تكذب على .. ؟

لم يطرأ على فهمى تغير الا انه غض بصره فرارا من عينى أبيه ، ووضع

السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوفا تهوى على خديه :

ـ أنت تكذب على يابن الكلب ! .. انا لا اسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقنى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك ! .. انت حشرة خبيثة مجرمة بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا ، لن انقلب امراة على آخر الزمن ، سامع ؟! لن انقلب امرأة على آخر الزمن ، حيرتمونى يا أولاد الكلب وجعلتمونى اضحوكة الناس ، انا اسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟ ! .. بنفسى يابن الكلب ، الكلمة هنا كلمتى انا ، انا انا انا .. (ثم متناولا الكتاب مرة اخرى) أقسم .. آمرك بأن تقسم ..

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون أن تريا شيئا ، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانية امعن فى الصمت واليأس ، لم يبق له الا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة . ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق :

ـ أتوهمت أنك رجل ؟ .. اتوهم انك تستطيع أن تفعل ماتشاء ؟ !.. لو اشاء أضربك حتى اكسر راسك ...

لم يملك فهمى عند ذاك الا ان يبكى ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى اذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد أنه وسعه اخيرا ان يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية اخرى ، فاسترسل قائلا فى ضراعة ورجاء :

ـ سامحنى يابابا ، امرك مطاع فوق العين والراس ولكنى لا استطيع ، لااستطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا أرضى ولاترضى لى أن أنكص واتخلف عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالاشتراك فى المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون ، لست خيرا منهم ، أن الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا هتاف فيها الا للوطن ، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتى ؟ .. وما حياة أى انسان ؟ .. لاتغضب يابابا وفكر فيما اقول .. واكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى الصغير .. !

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا . كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع ..

- ٦٣ -

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى فى بيت القاضى بأحد اقرباء أمه ، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :

ـ كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك .. حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن امه التى اورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور :

خير ان شاء الله .. ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى :

ـ والدتك مريضة ، مريضة جدا فى الواقع ، اصابها المرض منذ شهر أو اكثر ولكنى لم اعلم به الا فى هذا الأسبوع ، وقد ظنوه بادىء الأمر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء انه ملاريا شديدة ..

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كانه يتوقع حديثا عن طلاق او زواج او شجار وما شاكل ذلك ، اما المرض فلم يقع له فى حسبان ، تساءل وهو لايكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها :

ـ وكيف حالها الآن .. ؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

ـ حالها خطيرة ! .. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأجرى ازدادت الحال سوءا ، وقد ارسلتنى اليك كى أصارحك بأنها تشعر بدنو اجلها ، وانها ترجو ان تراك دون تأخير ..

ثم بلهجة ذات معنى :

ـ يجب ان تذهب اليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله غفور رحيم ...

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة اراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، هاهو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضى الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم فى ذكريات الظلام المرعشة والى

الأمام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن انه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده اليها .. الا الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقا ؟ ! .. قلبى يخفق ، الما ؟ .. حزنا ؟ .. لاادرى الا انى خائف ، اذا ذهبت فلن اعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيغشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف ... وحانق على هذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة ارغد وبال أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت سأودع اما بقلب ابن .. أم وابن اليس كذلك ؟ ... لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد ان الموت زائر جديد على لم اشهد محضره من قبل ، وددت لو كانت النهاية بغيره ، سنموت جميعا .. حقا ؟ ! يجب الا استسلم للخوف ، ان انباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هذه الأيام ، فى شارع الدواوين والمدارس والأزهر . وهنالك فى اسيوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابنه امس ، ماعسى ان يصنع أهل الشهداء ؟ .. أيقضون العمر بكاء ؟ .. انهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، اف .. يخيل الى انه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى فى البيت فهمى وعناده وأمامى امى فما أنغص الحياة ، واذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى حير وعافية ؟ ! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من نبروة ؟ .. واذا دخلت البيت التقى بذلك « الرجل » هنالك ؟ .. لا أدرى كيف أقابله .. ستلتقى عينانا فى لحظة رهيبة ، الويل له ، أتجاهله او اطرده هذا هو الحل ، هنالك الوان من العنف لاتخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصور أن يسير وراء النعش اقدم الأزواج واحدثهم وبينهما الابن دامع العينين .. حتم وقتذاك ان تدمع عيناى .. اليس كذلك ؟ .. لن يكون فى وسعى أن أطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شىء ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، أن الله وملائكته يصلون على ... هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم ... أمى تقول لك ..

فتحت له الخادم الباب — نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فانكرته — فتطلعت اليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء

لمة كأنما تقول له : « آه . . أنت الذى تنتظر » ثم افسحت له وهى تومىء الى حجرة عن يمين الداخل قائلة :

ــ تفضل يا سيدى . . لا يوجد أحد . .

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فادرك أن امه اخلت له الطريق . اتجه الى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخل . وقعت عيناه على عينى امه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما اوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشىء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه ادركه من التغير فوق ما ادرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء . وقف ذاهلا منكرا كأنه لايصدق أن ثمة قوة فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد اباه ايما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لا يقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما فى نبرات اسيفة :

ــ لا بأس عليك . . كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ــ فى احوال نادرة ــ ظاهرة مرضية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجىء . . كأنه يلقى ام طفولته التى احبها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ــ وعيناه مرسلتان الى الوجه الفانى ــ بهذا الشعور المستجد الذى رده اعواما طويلة الى الوراء ــ الى ماوراء الألم ــ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا بوشك الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تتهدده ، وان دل تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى اعماق الأعماق منذرة اياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافى ما يفسده من مشاعر اخرى . واخرجت المرأة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ الاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذلك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا :

ــ كما ترى ، صرت خيالا . .

فغمغم :

— ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت . .

فندت عن راسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا يسمع منك » . . وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت — بقوة جديدة استمدتها من محضره — تقول :

— فى اول الأمر كانت تنتابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا عصبيا . نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى ، ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا . . أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لاتدعنى حتى اكون قد أشفيت على الهلاك ، وتمر بى اوقات أجد جسمى باردا كالثلج ، وأوقات أخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة اخيرا صمم سـ . . . (امسكت عن النطق بالفاعل منتبهة فى اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذى كانت ستقع فيه) . . . اخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقـدم بى العلاج خطوة واحدة نحو الصحة ان لم يكن تأخر خطوات ، لم تعـد ثمة فائدة ترجى . . . .

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

— لاتيأسى من رحمة الله ، أن رحمته واسعة . .

فافتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

— يسرنى أن أسمع هذا ، يسرنى أن اسمعه منك انت قبل الناس جميعا ، أنت عندى أغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت أن رحمة الله واسعة ، طالما ساءنى الحظ ، لا أنكر الهفوات والأخطاء ، العصمة لله وحده . . .

آنس — جزعا — من حديثها ميـلا الى مايشبه الاعتراف ، فانقبض صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه أمورا لايطيقها ولو على سـبيل الندم والتكفير . . فتوترت أعصابه حتى اوشك أن تبدل حالا بعد حال ، قال بتوسل :

— لاتتعبى نفسك بالكلام . .

رفعت اليه عينيها باسمة وهى تقول :

— مجيئك رد الى الروح ، دعنى اقل لك انى لم اقصد فى حياتى سوءا بانسان ، كنت انشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندنى الحظ العاثر ، لم أسىء الى أحد ولكن كثيرين اساءوا الى . .

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب . . وأن عاطفته الصافية تعانى ازمة من التنغيص . . فقال بلهجة التوسل السالفة :

ـ دعى الناس بخيرهم وشرهم ، صحتك الآن اهم من اى شيء آخر . . .
فربتت على يده باستعطاف كانما تسأله ان يترفق بها ، ثم همست :
ـ فاتتنى اشياء ، لم أؤد الى الله حقه ، وددت لو طال عمرى حتى اسندرك بعض مافاتنى . . بيد أن قلبى كان دائما مفعما بالايمان والله شهيد
فقال وكأنه يدافع عن نفسه وعنها معا :
ـ القلب هو كل شيء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة . .
فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :
ـ وعدت الى اخيرا ! . . لم اجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى المرض الى ماترى ، داخلنى شعور بأننى اودع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن املأ عينى منك ، فارسلت اليك وبى من الخوف من رفضك اكثر مما بى من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك واقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء ارجو الله ان يتقبله . .

اشتد به التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ، تثاقلت الكلمات الحنونة فى فيه متعثرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما اراد توجيهها الى المرأة التى الف مجافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد فى يده أداة تعبير طيعة حساسة ، فضغط على راحتها بيديه مغمغما :
ـ ربنا يكتب لك السلامة . .
وجعلت تدور حول المعنى الذى افصحت عنه جملتها الأخيرة ، مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا آخر . . وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد انفاسها ، مما دعاه مرات الى أن يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تبسم لمقاطعته ثم تعود الى مواصلة الحديث ، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها اهتمام طارىء كانما تذكرت شيئا ذا بال . . . وقالت :
ـ تزوجت . . . !
فرفع حاجبيه فى شيء من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها اخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :
ـ لاعتاب . . حقا كنت أود ان ارى عروسك وذريتك ، ولكن بحسبى ان تكون سعيدا . .
فما ملك ان قال باقتضاب :
ـ لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا . .
لأول مرة لاحت آى الانتبــاه فى عينيها ، لو كان فى الامكان أن يلتمعـــا

لالنمعا .. ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمتمت :

ـ طلقت يابنى ! .. ماأحزننى .. !

فابتدرها قائلا :

ـ لاتحزنى ، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) اخذت الشر وراحت

ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

ـ من الذى اختارها لك .. هو ام هى ؟ !

فقال بلهجة نمت عن رغبته فى قفل باب هذا الحديث :

ـ اختارها الله ، كل شىء قسمة ونصيب .. !

ـ أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ .. امراة ابيك ؟

ـ كلا ، ابى الذى اختارها ، ولا غبار على اختياره فهى من أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت لك ..

فقالت ببرود :

ـ القسمة والنصيب واختيار ابيك .. هذه هى .. !

ثم بعد وقفة قصيرة :

ـ حبلى ؟

ـ نعم ...

وهى تتنهد :

ـ الله ينكد عيشة ابيك .. !

تعمد الا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلها تسكن .. فشملها صمت ، واغمضت المراة عينيها كأنما انهكها التعب ، بيد انها فتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهى تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال :

ـ ترى هل يمكن أن تنسى الماضى ؟

فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لاتقاوم ، ثم قال برجاء:

ـ لاتعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ..

لعل قلبه لم يعن مايقول ، ولكن لسانه قال ماينبغى أن يقال ... او لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك ، تلك اللحظةالتى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل قوله : « فليذهب الى غير رجعة » .. قد وقع من مسمعه ــ ومن قلبه ــ موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التشبث بها من بادىء الأمر . اما أمه فعادت تسأله :

ـ وهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

ـ احبها ، وادعو لها بالسلامة . .

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الذاوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كانما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة اشاعت فى الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم اغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له ان يرى ذلك الوجه مرة اخرى ؟.. وبأى قلب يلقاه أن عاد ؟!.. لا يدرى ، لا يحب ان يتصور المضمر فى علم الغيب ، يود ان يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، واحاط به شعور الخوف والقلق ، عجبا !.. لقد ركبته رغبة فى الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه انه ارتاح الى نومها كل الارتياح ، ولكنه ماكاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف .. خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر .. هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح !.. لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة الخوف والقلق هكذا ، يجب ان يضع حدا لآلامه ... غدا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية .. تهنئة أو تعزية ؟!.. ايهما احب الى نفسه ؟!.. يجب ان يقف عقلى عن الحركة ، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغى أن اسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا ان نفترق الان لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لأسوأ حياة ، اما اذا مد الله فى عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان ـ فى الجهة المقابلة ـ التى تماست صورة الفراش فرأى جسم امه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها التى أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وادخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر ! ربما عكست هذه المرآة غدا

فراشا خاليا عاريا !.. ليست حياتها ـ حياة اى انسان ... لم لا ؟ ـ بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية !.. فاشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه « يجب ان أضع حدا لآلامى .. يجب أن أذهب » ، بيد أن بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول منقهما كالثعبان فثبت عليهما فى دهشة وانكار سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب .. ذلك الرجل !.. هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وامه تروح له على الجمرات .. آه ترى اين هو الآن ، فى مكان بالبيت ام فى الخارج ؟.. هل رآه من حيث لم يره ؟.. لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة اكثر مما بقى فالقى نظره على وجه امه التى وجدها مستغرقة فى النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخادمة فى الردهة الخارجية قال لها :

ـ ستك نامت ، ساعود غدا صباحا

والتفت اليها مرة اخرى وهو يغادر الباب الخارجى قائلا :

ـ غدا صباحا ..

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ، مضى الى حانة كوسناكى راسا . شرب كعادته ولكنه لم يطب بالشراب نفسا ، انياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع ان احلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا انها لم تستطع أن تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة ابيه فى انتظاره بالدور الأول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :

ـ امى ..؟!

فاخفت أمينة راسها وقالت بصوت خافت :

ـ جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة ، العمر الطويل لك يا ابنى ..

- ٦٤ -

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين فى جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه « صغير » ، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية ، ولكى يتفادى من منعهم اياه بالقوة كان يمضى الى المعسكر رأسا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لاسيما وأنه يمرح فى المعسكر تحت أعينهم متقبلا فى كل موضع بالترحيب والتكريم ، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا فى التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرد يلهو فى غابة من الرحوش » ..

قولوا اسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت ام حنفى مرة وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقبتهم » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم انفسهم خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة ، فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلهم لم يخلوا من رجاء فى ان يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث أو أذى فى الذهاب والاياب ! اسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر . لم يكن جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه ، كان يصافح الاصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية للآخرين . وربما صادف مجيئه قيام احد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا أن يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كانما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس فى الأمر تجاهل او غضب الا من اغراق الآخرين فى الضحك . ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الانذار ، هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، وبتحرك لورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق

فيمضون اليـــه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم » بات يدرك من المنظر الذى امامه ان مظاهرة قامت فى جهة ما وان الجنود ذاهبون لتفريقها وان قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الأوقات الا أن يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وأن يملأ منهم عينيه كانما يودعهم ، وأن يبســـط كفيــه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسّـلامة ثم تاليا الفاتحة !..
على انه لم يكن يقضى فى المعسكر اكثر من نصف ساعة كل اصيل وهو اقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ، نصــف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة ؛ يقف حيال اهرام البنادق طويلا متفحصا اجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت .. يقف على بعد لا يسمح له بتجـاوزه ونفســه ذاهبة حسرات على اللعب بها او على الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاى فكان يمضى مع اصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه فى نهاية طابور « الشاى » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاى باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلســـون على سور السبيل يحتسون شرابهم, وينشد الجنود اغانى جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فى الغناء . تركت حياة المعسكر فى نفسه اثرا عميقا بث فى خياله واحلامه يقظة شاملة ، اثرا نقش على صفحة قلبــه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات امينة عن عالم الغيب والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنياها الساحرة ، والأطياف والرؤى التى تتخايل له فى أحلام اليقظة وراء اغصان الياسمين واللبلاب واصص الزهور ـ فوق السطح ـ عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العــدة والعدد ؛ أقام خيامه بالمناديل والأقلام ، واسلحته بعيدان الخشــب ، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر . وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنــادق غير اربع بينها حصــاة (تمثله هو) ينتحون جانبــا » يأخذ فى محاكاة الغناء الانجليزى ثم يجىء دور الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة » او « يا عزيز عينى » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن .. تسقــط الحماية .. يحيا ســـعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى

صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة ، ثم يدفع قبقابا وهـو ينفخ محاكيا أزيز اللورى ، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مـرة اخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين !..
ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدئها ووسطها ، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة « صـادقة مشـوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجـانبين وتتعـادل الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى اليها ، هنالك يجـد نفسه فى موقف حائر ، اى جانب ينتصر ؟ .. فى جانب اصدقاؤه الأربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفى الجانب الآخر مصريون يخفـق معهم قلب فهمى !.. فى اللحظة الأخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشـاى ومختلف الوان الحلوى !.. وكان جوليون أعز اصدقائه ، امتاز الى جمـاله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم بالعربية ، وهو الذى جعل دعوته الى الشـاى حقا ثانيـا كما بدا أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا الى غناء « يا عزيز عينى » فيتابعه باهتمام ثم يغمغم فى تشوق وحنين :

ــ اروح بلدى .. اروح بلدى !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له الثقة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله على مخرج من كربه :

ــ ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم .. !

ولـكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظـر وعلى العكس طلب اليـه ــ كما فعـل من قبل فى ظرف مشابه ــ الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا :« سعد باشا .. نو ! » وهكذا فشل ــ على حد تعبير ياسين ــ اول مفـاوض مصرى !.. وما يدرى يوما الا واحـد « الأصدقاء » يقـدم له صـورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقـول لنفسـه « صورتى ؟!.. ليست هـذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيه للواقفين حوله فألفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه ان يتقبله بسرور فجاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

— رباه .. لم تترك عيبا الا ابرزته !.. الجسم النحيف الصغير ، الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، الراس الضخم ، العينان الصغيرتان !

ثم ضاحكا :

— الشيء الوحيد الذي يبدو ان « صديقك » يضمر نحوه اعجابا هو بدلاتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وانما الفضل لنينة التي لا تترك شيئا في البيت الا هندمته !

ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

— بان السر الذي حببك اليهم !.. انهم يتسلون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة ، يعني بالعربي لست الا « قره جوز » في نظرهم .. ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟!.. ولكن كلام فهمي لم يحدث اثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم !.. وجاء يوما المعسكر كعادته فراى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام الى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيد انه توقف عن التقدم ملبيا احساسا غريزيا خفي عنه معناه ، ثم اغراه حب الاستطلاع بان يدور حول الخيام المنصوبة امام واجهة السبيل متسللا الى ماوراء جوليون وأن يمد بصره الى الهدف الذي يتطلع اليه ، هنالك راى كوة في جناح بيت آل رضوان الذي يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسما مستجيبا !. وقف يردد النظر بين الجندي وبين الفتاة في ذهول كانما يأبى ان يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة ؟!.. كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهي تبتسم !.. اجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها !.. وها هما عيناها يستغرقهما النظر اليه حتى انها لم تفطن بعد الى وجوده هو ! وندت عنه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى اغرق في الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في ذعر بين . راح يتطلع الى الجندي في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الأمر كله غموضا في غموض ، ساله جوليون متوددا :

— تعرفها ؟..

فاحنى راسه بالايجاب ولم ينبس . غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم :

ـ اذهب بها اليها ..

ولـكن كمال تراجع جافـلا وهو يهز راسه يمنة ويسرة فى عناد ، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع انه شعر بخطورتها من بادىء الأمر الا انه لم يدرك مدى تلك الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصـة فى مجلس القهوة مساء . استوت امينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظـل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وياسين الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين الى الكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدقان اليـه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت امينـة وهى تزدرد ريقها :

ـ ارايت هذا حقا !.. الم تخدعك عيناك ؟!

وتأفف فهمى :

ـ مريم ؟!.. مريم نفسها ؟!.. امتاكد انت مما تقول ؟!

وتساءل ياسين :

ـ اكان يشير اليها وكانت تبتسم اليه ؟!.. ارايتها تبتسم حقا ؟!

واعادت امينة الفنجان الى الصينية فاسندت راسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ كمال ! الكذب فى مثل هذا الامر جريمة لا يغفرها الله .. راجـع نفسك يا ابنى .. الم تعد الحق فى شىء ؟!

وحلف كمال باغلظ الايمان فقال فهمى بياس ومرارة :

ـ انه لا يكذب ، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال ، الا تدركون ان اختراع مثل هذه القصة هو ابعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه ؟!...

فتساءلت الأم بصوت حزين :

ـ وكيف يسعنى ان اصدقه !

فقال فهمى وكأنه يحدث نفسه :

ـ اجل كيف يمكن تصديقه !.. (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع .. وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسـه موقع الخنجر ، كررها وكأنمـا يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح الا فى حاشية احـلام يقظته ، ولكن الطعنة التى اصابت سمعتها نفذت اليهـا خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لا يدرى ان كان نسى أم لم

ينس ، يجب ام يكره يغضب للكرامة ام للغيرة .. ورقة شجر جافة فى مهب زوبعة متناوحة ..

— كيف يسعنى أن أصدقه ؟.. طالما كانت ثقتى فى مريم كثقتى فى خديجة أو عائشة ، أمها من الفضليات ، ابوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..

قال ياسين — الذى بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير — بلهجة لم تخل من سخرية :

— علام تعجبون ؟.. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار اشرارا فقالت امينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق انها خدعت طوال ذلك الدهر :

— يشهد الله انى لم الاحظ عليها ما يسوء قط ..

فقال ياسين بحذر :

— ولا احد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو افطن منك ومنى !

فهتف فهمى متألما :

— من اين لى أن أطلع على الغيب ؟! انه أمر يشق تصوره

وحنق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جميعا بغضاء ، الانجليز والمصريون على السواء .. الرجال والنساء — والنساء خاصة — انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء ليتنشق فى وحدته نسمة راحة بيد انه لم يبرح مكانه كأنما شد اليه بحبال غلاظ

اتجه ياسين الى كمال متسائلا :

— متى رأتك ؟

— عندما التفت الى جوليون ..

— ثم فرت من النافذة ؟

— نعم ..

— هل رأت انك رأيتها ؟

— التقت عينانا لحظة ..

ياسين ساخرا :

— مسكينة !.. انها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا وحديثنا ذا الشجون !

— انجليزى !...

هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :

ــ بنت السيد محمد رضوان ! ..

غمغمت امينة متنهدة وهى تهز رأسها عجبا ..

فقال ياسين متفكرا :

ــ مغازلة انجليزى ليست بالمسالة الهينة على فتاة ، هــذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة ..

فسأله فهمى :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ اعنى أنه لابد أن تسبقها درجات من الفساد !

فقالت أمينة برجاء :

ــ استحلفكم بالله ان تمسكوا عن هذا الحديث ..

فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :

ــ مريم بنت ســيدة لها فى التبرج فنون بشهادتكن انت وخديجــة وعائشــة ...!

فهتفت امينة بصوت ملؤه العتاب والزجر :

ــ ياســين !..

فقال ياسين كالمتراجع :

ــ اريد ان اقول أننا اسرة تعيش فى حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا مما يدور حولها ، قصارى جهدنا أن نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا مريم أعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق !..

وربت على رأس كمال ضاحكا ، ولكن امينة عادت تقول بتوسل حار :

ــ أستحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث ..

ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعد فهمى يتحمل البقاء بينهم فاستجاب الى الصوت الباطنى الذى يستصرخه ملهوفا على الفرار .. بعيدا عن الانظار والأسماع ، هنالك يستطيع أن يخلو الى نفسه ، أن يعيد عليها الحديث من الفــه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ، جملة جملة . ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر أين يكون موضعه ..

- ٦٥ -

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيد احمد عبد الجواد بيت ام مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى كله ــ كما امسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل مذ عسكر الانجليز فيه ــ غارقا فى النوم متدثرا بالظلام ، لامقهى يسمر ولابائع يسرح ولادكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه اثر للحياة أو النور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع أن أحدا من الجنود لم يتعرض لهبسوء فى الدهاب او الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر فى طريقه الى البيت خاصة وانه يعود ــ آخر الليل ــ على حال من الأعياء والآسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير فى السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظر الى الديدبان حتى دخل أشد مناطق الطريق خطورة .. تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده الاحساس الذى يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لأى صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضى الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك اذنيه صوت أجش غليظ يزعق وراءه راطنا فادرك على جهله رطانته ــ من عنف اللهجة واقتضابها ــ انه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه مرتاعا فرأى جنديا ــ غير الديدبان ــ يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟ .. أيكون الرجل ثملا ؟ .. أم لعلهاذعن لنزوة لاعتداء طارئة ؟ .. أم هو يبتغى السلب والنهب ؟ . جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من راسه . وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا ــ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ــ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد فى وجهه بيأس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به او كى يعرف على الأقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد باشارته الى بين القصرين ان يامره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه أنه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز

رأسه فى نفس الاتجاه كانما يحثه على الذهاب ، ثم بدا أنه ضاق بهفقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه فى ظهره فوجد السيد نفسه يتحركمتجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم — ومفاصله تكاد تسيب — الى المقادير ، جاوز فى مسيره المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لامنظر يرى الا أشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه فى نظام ميكانيكى رهيب كأنهما يعدان الدقائق الباقية له فى الحياة ، ولعلها ثوان ، أجل كان يتوقع فى أية لحظة أن ينقض عليه بخبطة تهوى به الى النهاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين فى الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دارة من الضوء تذهب وتجيء فادرك انها شعاع من بطارية أضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد انفاسه بعد أن تخفف من الذعر المباغت ولكنه لم يكد يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول ، خوف الموت الذى يساق اليه ، فعاد يترقب حتفه بين لحظة وأخرى كانه غريق توهم فى تخبطه أنه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له ان ما راى اعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكد تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط . الى أين يسوقه ؟ ، لو يستطيع ان يراطنه فيسأله ! ، يبدو انه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة باب النصر ، لا أثر لانسان ولا لحيوان ؛ أين الغفير ؟ ، وحيد تحت رحمة من لايرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ . الكابوس .. اجل انه الكابوس ، كابده أكثر من مرة خلال نوم مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسها لاتخلو أحيانا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من شره الآن او بعد حين ، هيهات ، أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل ، انه صاح لانائم وهذا الجندى الشاكى السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسره شيء ملموس مخيف لاوهم ، عذابه حقيقة لاسبيل الى الشك فيها ؛ أن اقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بان تطيح براسه .. لاسبيل الى الشك فى هذا ايضا ، قالت له أم مريم وهى تودعه « الى الغد » .. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟! ، سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات

السونكى الحاد المدبب ، قالت له أيضا وهى تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرنى » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شىء فى الحياة.. الآن العذاب هو كل شىء .. وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة ؟! .. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض فى الظلام فلحظ الطريق كرأى بطارية تتحرك فى يد جندى آخر يسوق بين يديه اشباحا لم يتبين عددهم !.. تساءل ترى هل صدرت الى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا ؟! .. والى أين يسوقونهم ؟.. وأى عقاب سيقضون به عليهم ؟ تساءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج فى نهاية بيد ان رؤيته للضحايا الجدد أدخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الاقل وحيدا كما كان يظن ، وجد فى بلواه اندادا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال فى مفازة الى أصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن أمنية أعز على نفسه آنئذ من ان يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف أو غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال ابرياء وهو برىء ففيم القبض عليهم ؟ ، فيم القبض عليه هو مثلا ؟ ، لاهو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر ؟ .. أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء ! ، لو كان يعرف الانجليزية فيسأل آسره ؟.. أين فهمى ليحادثه نيابة عنه ؟.. وخزه الألم والحنين ، أين فهمى وياسين وكمال وخديجة وعائشة وأمهم ؟ هل يمكن أن تتصور اسرته ما آل اليه حاله من هوان وهى التى لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟ ، هل تتصور ان الجندى دفعه بعنف حتى أوشك ان يطرحه أرضا وانه يسوقه كما تساق السائمة ؟. وجد لذكر آله ألما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر فى طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها ، ومقاه كان يوما — خاصة على عهد الصبا والشباب — من سمارها ؛ فأحزنه أن يمضى بها أسيرا دون أن تنهض لنجدته أو حتى ترثى لحاله ، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به فى حيه ، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون أن يجرى له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام ،

وما لبث أن تضاعف خوفه من ان يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، أو أن يلقى مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشي صدره تطير وكآبة ، واشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترامى الى الصمت الذى لايؤنسه الا وقع الأقدام اصوات مبهمة فأرهف السمع محملقا فى الظلام ـ وهو يتقدم بين الخوف والرجاء ـ فتناهت الى أذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان أو حيوان ، غير أنه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك أن قال لنفسه فى لهفة « اصوات آدمية ! » ، ومال مع الطريق فلاحت لعينيه اضواء متحركة حسبها باديء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل راى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف مايراد بى ، لم يبق الا مسير خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الأهالى من شتى أنحاء الحى ؟ عما قليل أعرف كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ؟ فلأستعذ بالله ولأسلم اليه أمرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان فى العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. أأنضم الى سجل الشهداء ؟ أأصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله محمد عفت وعلى عبدالرحيم وابراهيم الفار كماكنا نتناقل الأخبار فى سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ ورحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد مايبكونك ، وسيذكرونك طويلا ، ثم تنسى ، ما اشد اضطراب قلبى ؛ سلم أمرك للذى خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما أن اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه فى الأعماق مخلفا وراءه فى الأضلع ألما حادا ، ترى هل آن له أن يتوقف ؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة .

ادخل ...

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين الجنود لايكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة راى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما راى جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الاتربة فى مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر فى خوف الى الجنود الانجليز

الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :

افعل كما يفعل الآخرون ..

ثم همسا :

ـ اسرع حتى لايصيبك اذى ..

كانت هذه الجملة أول تعبير « انسانى » يلقاه فى رحلته المخيفة فسرت فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :

ـ هل يطلق سراحنا اذا تم العمل ؟

فأجابه بنفس الصوت :

ـ ان شاء الله ..

تنهد من الأعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بانه يولد من جديد؛ رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه فى حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها فى المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم فى الحياة ؛ وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :

ـ أنت وقعت أيضا ..!

ـ قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورايتك وانت تتسلم مقطفك فجعلت فى ذهابى وايابى اتبع طريقا يميل اليك رويدا رويدا حتى جاورتك .

ـ اهلا .. اهلا ، اليس ثمة احد من اصدقائنا ؟

ـ لم اعثر على غيرك

ـ قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل

ـ قيل لى ذلك أيضا ، ربنا يسمع منك ..

ـ سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..

ـ لم تعد لى ركب على ما اظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة

ـ ما اصل هذه الحفرة ؟

- يقال ان فتوات الحسينية حفروها أول الليل ليمنعوا مسير الوريات ويقال أيضا ان لوريا وقع فيها !
- ان صح هذا فقل علينا السلام !

وعندما تجاورا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد الفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى أنهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يعلآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :

- حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب

فهمس السيد باسما :
- أرجو أن يعطونا أجرا مناسبا !
- أين قبض عليك ؟
- أمام البيت
- طبعا ! . - وأنت ؟
- كنت بالعا منزولة ، ولكنى أفقت تماما ، الانجليز أقوى من الكوكايين!
- أقوى من القيء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل ، اثاروا التراب حتى انتشر فى فراغ القبة خالقا جوا خانقا فعلاهم البهر وتصبب العرق من جباههم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم اشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ؛ آى ذلك أنهم جردوا من سلاحهم .. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنى يتدلدل من أحزمتهم ، اصبر .. اصبر لعل هذه الغمة أن تنكشف ، هل كنت تتصور أنك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة أنك ستحمل التراب وتسخر فى سد الحفرة ؟ لاتريد الحفرة أن تمتلىء ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولمن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليلة وعبثها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيطة أن تنظر فيها ، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيذ المنام ، كنت استطيع ان اغسل راسى ووجهى وأشرب شربة روية من ماء القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة فى جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائرة ؛ كل يوم .. كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار شيء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ؛ هنيئا لكم أيها النائمون فى أسرتكم ، اللهم إحفظنا ؛ لست لها .. لست لها ،

اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى اى خطر يتهدده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، قال لى : « لا » لأول مرة فى حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ؛ لم اقل لأمه ، لن أقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ استعين بضعفها بعد ان اخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شىء ، يقول انه لايعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته ابدا ؛ اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ، لن يقتلونا امام الخلق ، الصباح ؟

ــ بصقت على الأرض كى أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرمانى أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر رأسى !

ــ لاتبصق ، تشبه بى ، لقد بلعت من التراب قدرا يكفى لسد هذه الحفرة !..

ــ لعل زبيدة دمت عليك ؟

ــ لعلها ...

ــ الم يكن سد حفرتها اطيب من سد هذه الحفرة ؟

ــ بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

ــ انقصم ظهرى ياهوه

ــ مثلك ، عزاؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم

ــ مارأيك فى أن أرمى بالمقطف فى وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى ، « يحيى سعد » ؟!

ــ اشتغلت المنزولة من جديد ؟

ــ يا للخسارة !.. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاى مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود فى بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وانا أقول لنفسى « الولية الآن تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء » حين طلع على ابن القرد وساقنى من قفاى ...

ــ ربنا يعوض عليك ..

ــ آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى « العمال » . ألقى على المكان

نظرة فوجده ازدحم بالجمهور او كاد وقد انتشروا حول الحفرة فى جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها فى حركة لاتنقطع وانوار المشاعل تضىء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال الكثرة بركة وأمان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البرىء بالمذنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ أين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن أن اخوانا لهم وقعوا فى الحفرة التى حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعد أو يخرج الانجليز من مصر ! لأنقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمأمون ، كيف يكون طعم الحياة ؟ لاطعم للحياة فى ظل الثورة ، الثورة.. أى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى أصلها ؟ صداع ؟.. بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة .. لا أطمع فى مزيد ! بهيجة فى سابع نومة ، امينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات أن يخطر لكم ماحاق بأبيكم ، رباه أن التراب يملأ أنفى وعينى ، يا سيدنا الحسين ، امتلئى .. امتلئى .. اما كفاك هذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه ،كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم !.. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى أنا ، هل يعسكرون أمام الست حتى تنتهى الثورة ؟

— ألم تسمع الديكة ؟

ارهف السيد اذنيه .. ثم غمغم

— الديكة تصيح ! الفجر ؟

— نعم .. ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح ..

— الصباح !

— المهم أنى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى أسفل فشعر بانه محصور أيضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

— وأنا كذلك ..

— والعمل ..؟

— ما باليد حيلة ..

— أنظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول أمام دكان خلى الزجاج ؟

— آه ..
— اخراج شوية بول اهم الآن عندى من اخراج الانجليز من مصر كلها
— اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا أولا من النحاسين ..
— رباه .. أنظر .. لايزال الجنود يأتون بالناس !
راى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة

— ٦٦ —

استيقظ السيد احمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع فى الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل — رغم جدية الأمر — من فكاهة وتهويل حتى اثار شتى التعليقات . كانت أمينة أول من سمع القصة ، القاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا انه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت فى البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم امثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه ان يغفل الجانب الفكاهى من الحادث حتى غلب على ماعداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح كانما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانى فيما عدا الأم التى شغلت مع ام حنفى بتهيئة القهوة والأشربة . شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة فى مجلس الأم التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما اصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمانينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم فى الأيام الخوالى ، على ان الطمانينة لم تستقر بنفوسهم حتى راوا والدهم بأعينهم ، اقبلوا عليه واحدا فى اثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة فى نظام وادب عسكريين . ومع ان السيد

اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة الا أنه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألهما فى رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلما هلت . كان ينعم فى اثنائها بسعادة عميقة لايعكر عليه صفوها الا تفكيره فى النهاية المتوقعة ، ودائما كان يجىء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين — ابراهيم او خليل — اذا تمطى أو تثاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » أمر مطاع لا يرد ، لم تتكرم أحدى شقيقتيه — ولو مرة واحدة — بأن تجيبه قائلة مثلا « اذهب انت وسألحق بك غدا » ! بيد انه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجىء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع فى مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره أمه قائلة « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد أن أعجب ما صادفه فى حياتهما الزوجية كان ذلك التغير العجيب الذى طرا على البطن . . وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير ، وفدت على حافظته الفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قىء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة . . ثم ماشأن بطن عائشة ؟ . . متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟ . . وهذا بطن خديجة بدأ — فيما يبدو — يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحمت على الطين فعلى اى شىء توحم خديجة ؟ ! . . غير أن خديجة لم تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه اسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع ! . وتقول امه أن بطن عائشة — وبطن خديجة بالتالى — سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه . . ولكن : اين يقيم هذا الطفل ؟ وكيف يعيش ، وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا يرى ؟ وكيف وجد . ومن اين جاء ؟ ! . . على ان هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف امه . . لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام :

— متى يخرج الطفل ؟

فأجابته ضاحكة :

— اصبر لم يبق الا قليل ..

فتساءل ياسين :

— أظنك فى شهرك التاسع ؟

فأجابته :

— نعم ولو أن حماتى تصر على انى فى الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

— أصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل ما هنالك !

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا ..

وقالت عائشة :

— أود أن أقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الانجليز عن شارعكم ..

فقالت خديجة بحماس :

— اجل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة ، فيقيم بابا ونينه عند عائشة لأنها فى الدور الأوسط ، وتقيمون أنتم عندى ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم عن التحريض :

— من يقول لبابا ؟

ولكن فهمى قال وهو يهز منكبيه :

— انكما تعلمان حق العلم أن بابا لايمكن أن يوافق ..

فقالت خديجة بأسف :

— ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين ! .. ساقوه فى الظلام وحملوه التراب ! .. آه ، رأسى يدور كلما تصورت هذا ..

فقالت عائشة :

— كنت انتظر دورى لتقبيل يده وانا اتفحص جسمه جزءا جزءا لاطمئن عليه ، كان قلبى يدق .. وعيناى تغالبان الدمع .. لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب ! ..

فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه .

— لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا اصدقاء .. ؟

فقال فهمى متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا ان يعلم أن الجندى الذى قبض عليه ليلا ما . هو الا صديق من أصدقاء كمال ..

فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

ـ الا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا :

ـ لو عرفوا أنه أبى ماتعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا أن ضحك ضحكة عالية حتى انه غطى فمه بيده وهو ينظر فى حذر الى السقف كأنما خاف أن يترامى صوت ضحكته الى الدور الاعلى .. ثم قال ساخرا :

الأحرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصرى ماصبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة :

ـ دع هذا الكلام لغيرك انت !.. اتنكر انك من أصدقائهم كذلك ؟!

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

ـ اتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلى الجمعة فى سيدنا الحسين ؟

ففطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الأسف :

ـ يحق لك أن تتطاولى على مادمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين ..

ـ الم يكن لى هذا الحق من قبل ؟!

ـ الله يرحم ايام زمان ..! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح !.. أسجدى شكرا للاولياء .. ولتعاويذ وإقراص أم حنفى .

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

ـ يحق لك انت أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد ان ورثت المرحومة وصرت فى عداد الملاك

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الأمر شيئا :

ـ أخى فى عداد الملاك !.. ما أجمل أن اسمع هذا !.. انت غنى حقا يا سى ياسين ؟!

فقالت خديجة :

ـ دعينى اعد لك املاكه ، اسمعى ياستى : دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

ـ ومن شر حاسد اذا حسد ..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :

ـ وما خفى من الحلى والنقود المخبأة اعظم ..

فهتف ياسين فى أسف صادق :

ـ اختفت كلها وحياتك ، سرقت ، سرقها ابن الكلب . جعلت أبى يسأله عما اذا كانت تركت حليا او نقودا فقال اللص « ابحثوا بانفسكم ، علم الله أنى كنت انفق عليها فى أثناء مرضها من جيبى الخاص » ... اسمعوا ياهوه .. جيبه الخاص ابن الغسالة .. ..

فقالت عائشة بتأثر :

ـ يا ولداه !.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجع طامع فى مالها !.. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها احد

فتساءل ياسين :

ـ من دون أن يحزن عليها احد ؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :

ـ وهذا البابيون الأسود ؟!.. أليس آية على الحزن ؟!

فقال ياسين جادا :

ـ لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم نكن تصافينا فى آخر لقاء ؟. الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :

ـ احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن حزن شديد ؟!

فرماها بنظرة مغيظة قائلا :

ـ ما قصرت فى واجبي نحوها والحمد لله ، أقمت لها مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفواكه .. أم تريدينى أن ألطم وأعول وأحثو التراب على رأسى ؟.. ان للرجال حزنا غير حزن النساء

فهزت رأسها كأنما تقول « أفدتنى افادك الله » ثم قالت متنهدة :

ـ آه من حزن الرجال !.. ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !!

فقال متأففا :

— صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..
— من قائل هذا ؟..
أجابها باسما :
— حماتك !..
فضحكت عائشة ، وضحك فهمى وهو يسأل خديجة :
— ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟
فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :
— سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينهما ..
فقالت خديجة بحنق لأول مرة :
— امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله انا بريئة ومظلومة ..
فقال ياسين متهكما :
— نصدقك يا أختى بلا قسم ، هذا شيء نشهد به أمام الله فى يوم العذاب !
فعاد فهمى يسأل عائشة :
— وانت كيف حالك معها ؟
فقالت عائشة وهى تلحظ خديجة باشفاق :
— على ما يرام . . .
فتهتفت خديجة :
— آه من اختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطاطيء الرأس .. الفولخص . .
فقال ياسين متصنعا الجد :
— على أى حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة !
فقالت بسخرية :
— التهنئة الحقة لك انت قريبا ان شاء الله حين تزف الى عروسك الثانية !.. أليس كذلك ؟..
فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :
— ربنا يسمع منك ..
فتساءلت عائشة باهتمام :
— حقا ؟ . .
ففكر قليلا .. ثم قال فى شيء من الحد :

ــ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الغد ؟!
ربما ثانية وثالثة ورابعة ..

فهتفت خديجة :

ــ هذا ما اتوقعه ، الله يرحم جدك !

فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت اسيف :

ــ مسكينة زينب !.. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..

ــ كانت .. ! وكانت حمقــاء أيضا ، ابوها ــ مثل ابى ــ لايطاق ..
لو رضيت بمعاشرتى كما احب ما فرطت فيها ابدا

ــ لا تعرف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة ..

قال باستهانة :

ــ نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها ..

فغمغمت عائشة :

ــ ولكنها حبلى يا ولداه !.. اترضى لوليدك بأن ينمو بعيــدا عــن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟! ..

آه ، أصابت مقتلا ، ينمو فى حضانة أمه كما نما ابوه من قبــل . ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه أو لأبيه ، تعاسة على اى حال . قال عابسا :

ــ ليكن حظه كحظ ابيه ، ما باليد حيلة

وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :

ــ وانت يا ابله متى يخرج الطفل ..؟

فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :

ــ انه لا يزال فى سنة أولى

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس فى وجهها :

ــ نحفت جدا يا أبله وصار وجهك قبيحا ..!

ضحكوا جميعا وهم يغطون افواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شــعر كمال بالحياء والارتباك ، أما خديجة التى لم يكن الاستياء من كمال ممــا تستطيعه فقد مالت الى أن تجارى التيار فقالت ضاحكة :

ــ اعترف لكم بانى خسرت فى ايام الوحم كل اللحم الذى تعبت ام حنفى أعواما فى جمعه وله ، نحفت وبرز أنفى وغارت عيناى وخيل الى ان « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها اليه !..

ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :

ــ الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وســـيم الطلعة فسبحان من جمع الشامى على المغربى ..

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومىء الى عائشة :

- كلاهما - زوجى وزوجها - فى الغباء سواء ! . لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، اما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت فى الأعياد ، وأما زوجى فلا تراه الا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى ..

قالت عائشة كالمعتذرة :

- الأعيان لا يعملون !

فقالت خديجة هازئة :

- العفو ! . . يحق لك ان تدافعى عن هذه الحياة ، الحق أن الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما فى الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبى يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجىء أمام المرآة ..

تساءل ياسين :

- لم لا مادامت ترى منظرا حسنا .. ؟ !

وقبل أن تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا :

- خبرينى يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟

كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة :

- سيجىء باذن الله شبيها بأبيه أو جده أو جدته او خالته ، أما .. ثم ضاحكة :

- اما اذا ابى الا ان يجىء شبيها بأمه فالنفى يكون احق به من سعد باشا ! .

ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :

- الانجليز لايهمهم الجمال ياآبلا،انهم يعجبون كثيرا براسى وانفى ..

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :

- يدعون صداقتك وهم يعبثون بك ! .. ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

- كم يسر دعاؤك بعض الناس ..

فابتسم فهمى مغمغما :

- كيف أسر ولهم فى بيتنا اصدقاء مغفلون !

- يا خسارة تربيتك له..

— من الناس من لاتنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

— الم أرج جوليون أن يعيد سعد باشا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

— فى المرة القادمة حافه براسك الذى يعجب به . .

شعر فهمى اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد أن ذلك لم يجد شيئا فى التخفيف من الاحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الأمر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين،عائشة . . هانئة وان‌تكن تعبت قليلا بسبب‌الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى بتعبها ، خديجة . . متوثبة ضاحكة ، ياسين . . صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيام ! . . من منهم يهمه بقى سعد ام نفى ، جلا الانجليز أم مكثوا ! . انه غريب ، أو غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع أن هذا الاحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه فى الأيام الأخيرة . كثيرا ما توقع ان يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكربه بيد انه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يالفه بكرور الأيام ، الا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لا مطمع لها فى الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه الغازلة ؟ . . هل تصدر الا عن متهتكة ؟ . . مريم متهتكة ؟ . . وفيم كانت أحلامه الماضية ؟ . . ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه أن يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، وأين كان موقف الجندى ، وأين كان موقفه هو ؟ وهل هو متاكد من ان مريم نفسها التى كانت فى الكوة ؟ وانها كانت تنظر حقا الى الجندى ؟ . وهل رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعض على اسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت فى خوف حين وقعت عيناها عليك ؟ . ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر ، موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ؟ ويتخيل الابتسامة طويلا حتى

كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهـا تسبع العروس فى فناء بيت آل شوكت .

ــ يبدو ان نينه لن تجالسنا اليوم .

قالته عائشة بصوت يدل على الاسف .

فقالت خديجة :

ــ الزوار يملأون البيت ..

ياسين ضاحكا :

ــ أخاف أن يشتبه الجنود فى كثرة القادمين فيظنــوا أن اجتماعا سياسيا ينعقد فى بيتنا ..

خديجة فى مباهاة :

ــ أن اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس ..

فقالت عائشة :

ــ رأيت السيد محمد عفت نفسه على راس القادمين ..

فأمنت خديجة على قولها قائلة :

ــ كان صديقا حميما لبابا من قبل أن نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز رأسه :

ــ اتهمنى بابا ظلما باننى قطعت ما بينهما .

ــ الا يفرق الطلاق بين أعز الأصدقاء ؟ !

ياسين باسما :

ــ الا أصدقاء ابيك !

عائشة بفخار :

ــ من ذا تطاوعه نفســه على مخاصمة بابا ؟ .. والله ما فى الدنيا كلها نظــير له ..

ثم وهى تتنهد :

ــ كلما تصورت ماوقع له أمس شاب شعر رأسى .

اخــيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعــد ان اخفقت ــ فيما رأت ــ الطرق غير المبــاشرة ، فالتفتت اليه متسـائلة :

ــ ارايت يا اخى كيف ان ربنــا اكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو ... مريم ؟ !

نظر فهمى اليهــا بين الدهشة والحيــاء ، وسرعان ما تركزت فيــه

الأنصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن شعور مكبوت طال فى الصدور تجاهله أو اخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة فتطلعوا الى الشاب فى صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذى طرح السؤال ؛ غير ان ياسين رأى ان ينهى الصمت قبل ان يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور :

ــ اصل أخيك ولى والله يحب أولياءه ..

وكان فهمى يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب :

ــ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

ــ لم يكن سى فهمى وحده الذى خدع بها ، كلنا خدعنا بها ..

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ــ بأقصى مافى وسعها ــ تهمة الغفلة :

ــ على أى حال انا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى مع اعتقادى ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمى يقول متظاهرا بالاستهانة :

ــ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى .. سيان ، دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير فى « مسألة » مريم .. مريم ؟ ! .. لم يكن ينظر اليها فيما مضى ــ ان مرت فى مجال بصره ــ الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها ، حتى ذاعت فضيحتها فى الأسرة .. هناك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : اى فتاة هى ؟ ود لو كان ملا عينيه منها ، تمنى لو كان سبر الفتاة التى استرعت تشوق « انجليزى » .. انجليزى جاء الحى مقاتلا لا مغازلا ، لم يبد سخطه عليها الا مجاراة للحديث كلما تناولها اما فى الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجود « مفضوحة » جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها الا جدار ، شاع فى صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى الصيد وان وقف ــ اكراما لحزن فهمى الذى يحبه ــ عند حد الشعور واللذة السلبية المجردة ، لم يعد فى الحى كله من يستثير اهتمامه كمريم .

ــ آن اوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

— ٦٧ —

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاول عمله اليومى الذى يتناسى به ـ ولو الى حين ـ همومه الشخصية والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية . غدا يحب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب لأنه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا أن جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كلّ يوم ، فلا تخلو من أن تبعث فى نفسه شيئا من الثقة الموحية بامكان عودة كل شىء الى اصله ، الى حالته الأولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟ .. اين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟ . حتى فى هذه الدكان تجرى احاديث الدماء همسا مفجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو السنتهم ان تردد الأنباء وتندب الأحداث ، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح اسيوط والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذى انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنية فانغرست فى جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تقرع اذنيه بين حين واخر فى المكان الذى يلوذ به ناشدا النسيان . ما اتعس الحياة فى ظل الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل ان يمتد اذاها اليه او الى احد من ذويه !.. انه لايبخل بمال ولايضن بعاطفة امابذل الحياة فأمر آخر ، أى عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء !. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ، انها تهدد امنه فى الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه « العاصى » ؛ فنى حماسه لها ، لها هى دون غايتها ، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة او دماء او ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده فى المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن شىء وان جل من حبه للحياة ، فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن فهمى ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمى العاق الذى رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ..

ـ هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان

كأنه مقذوف آدمي فرفع راسه عن مكتبه فراى الشيخ متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققا النظر - عبثا - صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت اساريره ثم هتف بالقادم :

- تفضل يا شيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان فى وجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بين الوراء والأمام كأنه راكب جملا ، فمال السيد فو قمكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسى على يمينك ، تفضل بالجلوس » فأسند الشيخ متولى عصاه الى المكتب وجلس على الكرسى ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

- الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

- ما أطيب دعاءك وما أحوجنى اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن ارزا لزبون :

- لا تنس ان تهيىء لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

- من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع راسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء فى هينمة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

- ابدا بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

- عليه أزكى الصلاة والسلام .

- والثنى بالترحم على ابيك طيب الذكر .

- رحمه الله رحمة واسعة .

- ثم اسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

- آمين .

متنهدا :

- وادعوه أن يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..

- اللهم استجب .

- وان يخرب بيت الانجليز بما اثموا وبما يأثمون ..

- سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

ــ أما بعد فقد رأيتك فى منامى تلوح لى بيديك فما فتحت عينى حتى صح عزمى على زيارتك ..

فابتسم السيد ابتسامه لاتخلو من حزن وقال :

ــ لا أعجب لذلك فانى فى مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة على بركه ..

فمال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف وتساءل :

ــ احق مابلغنى عن حادث بوابة الفتوح ؟

فاجاب السيد مبتسما :

ــ نعم .. من أبلغك ياترى ؟

ــ كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى « ألم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد أحمد وبى » فاستوضحته منزعجا فقص على العجب العجاب .. قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه فى الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات .

واصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسى .أفزعت يابنى ؟ .. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لاحول ولا قوة الا بالله .. ولكن هل قنعت بالسلامة ؟ .. انسيت أن الفزع لايمضى الى حال سبيله ؟ . صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب ..

ــ كيف لا !..

يزيدنا بركة ياشيخ متولى ، والاولاد وامهم ، الم يدركهم الفزع ؟

ــ طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ، الحجاب .. الحجاب .. الحجاب وفيه الشفاء ..

ــ انت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجانى الله من شر كبير ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .

مال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف مرة أخرى وتساءل :

ــ ماذا بك يابنى عفا الله عنك ؟

فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم فى ضجر :

ــ ابنى فهمى ..

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلا او منزعجا ثم قال برجاء :

ــ محفوظ باذن الرحمن ...

فهز السيد راسه بأسى وقال :

ــ عقنى لأول مرة والأمر لله ..

فبسط الشيخ متولى ذراعيه أمامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :
ــ معاذ الله ، فهمى ابنى ، وانا أعلم علم اليقين أنه طبع على البر ..
فقال السيد احمد متسخطا :
ــ يأبى حضرته الا أن يفعل كما يفعل الشبان فى هذه الأيام الدامية ..
فقال الشيخ فى دهش واستنكار :
ــ انت اب حازم ما فى ذلك شك ، ماكنت اتصور أن ابنا من ابنائك يجرؤ على أن يرد لك أمرا ..
حز هذا القول فى قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ثم وجد من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وامام نفسه معا فقال :
ــ لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته الى أن يحلف على المصحف بالا يشترك فى اى عمل من اعمال الثورة فبكى ، بكى من دون أن يجسر على قول لا ، ما عسى ان أصنع ؟ .. لا استطيع أن أحبسه فى البيت ولا يسعنى أن اراقبه فى المدرسة ، وأخاف أن يكون تيار هذه الأيام اقوى من ان يقاومه شاب مثله ، ماذا اصنع ؟ .. أاهدده بالضرب ؟ .. أأضربه ؟ لكن ماعسى ان يجدى التهديد مع شخص لايبالى تعريض نفسه للموت !
فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :
ــ وهل القى بنفسه فى المظاهرات ؟ !
فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :
ــ كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه يكتفى بالتوزيع على خاصة اصدقائه .
ــ ماله ولهذه الأعمال ! .. انه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر ، الم يعرف أن الانجليز وحوش لاتتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟ .. وأنهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟ .. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ، قل له انك ابوه وانك تحبه وتخاف عليه ، أما أنا فسأعمل من ناحيتى على اعداد حجاب من نوع خاص ولأدعون له فى صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد ..
قال السيد بحزن :
ــ ان انباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما الذى أصاب عقله ؟ . لقد ضاع ابن الفولى اللبان فى غمضة عين فشهد

ماتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشـاب يوزع سلاطـين اللبن الزبادى فصـادف فى طريقه مظاهرة فاغراه القضـاء بالاشتراك فيهـا بلا وعى وما هى الا ساعة أو نحوها حتى خر صريعا فى ساحة الأزهر ، لا حول و لاقوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق ابوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون انه لم يمر عليهـم كعادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجـد عنـده الصينية وما تبقى مـن السلاطين التى لم توزع وأخبره الرجـل بانه تركها عنـده واشترك فى مظـاهرة المساء فجن جنون المسكين وقصـد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحذافيرها كما قصها علينا الفولى ونحن فى بيتـه نعزيه ، علم كيـف فقـد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن ابيه المبرح وسمع صوات أهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير ابنائى فلله الحمد والشكر ..

فقال الشيخ متولى بصوت أسيف :

— اعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر ابناء الفولى اليس كذلك ؟ .. كان جده مكاريا وكنت اكترى حماره للذهاب الى سيدى ابى السعود ، ان للفولى أربعة اولاد ولكن الفقيد كان أحبهم الى قلبه ..

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة فى الحديث قائلا :

— أيامنا هـذه مجنونة وقد اتلفت عقول النـاس حتى صغارهم ، بالأمس قال ابنى فؤاد لأمه انه يود لو يشترك فى مظاهرة !

فقال السيد بقلق :

— يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! . ابنك فؤاد صديق ابنى كمال وكلاهما فى مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسـه .. الا تحدثهما نفسهما مرة بان يسيرا فى مظاهرة ! .. هه ؟ .. مامن عجيبة تعد الآن عجيبة .. !

فقال الحمزاوى وقد ندم على مافرط منه :

— ليس الى هذا الحد يا سى السيد ، على انى ادبته بلا رحمـة على تمنياته السـاذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفى حفظه الله ورعاه .

ساد الصمت فلم يعد يسمع فى الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :

— فهمى ولد عاقل ، لا ينبغى أن يمكن الانجليز من نفسـه العزيزة ،

الانجليز ! . . حسبى الله . . ألم نسمع بما فعلوا فى العزيزية والبدرشين . . ؟

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة فى التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام ، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فانشأ الشيخ يقول :

ـ كنت أول أمس فى زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين . .

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد :

ـ تاجر الأقطان المعروف ؟

ـ شداد بك عبد الحميد اكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه فى التذكر :

ـ اذكر انى رأيته مرة فى مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ، ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل افندينا ، أما من جديد عنه . ؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين . ليعود الى حديثه الأول :

ـ لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم فى بلاد فرنسا ومعه زوجه واولاده ، لشد مايخاف شداد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه فى هذه الدنيا . .

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز راسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

ـ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاثة والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح . .

انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدتين والناس نيام ؟ . . اليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت ؟ . بدءوا بالاعتداء على فأى خطوة تالية يضمرون ؟ ! .

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم استطرد قائلا :

ـ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى واهانوا النساء وجروهن من شعورهن

الى الخـارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدتين ! . العمـدة شخصيـة حكومية اليس كذلك ؟ . لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما انا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى أن يصنعوا بأمثالنا ؟ . تصور امينة مجرورة من شعرها ، ايقضى على بأن اتمنى الجنون ! . الجنون ؟ ..

واصل الشيخ حديثه وهو يهز راسه قائلا :

– واجبروا العمـدتين على أن يدلوهما على بيوت مشـايخ البلدتين وأعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النسـاء اعتداء أجراميا بعـد أن قتلوا اللاتى حاولن الدفاع عـن انفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادروهما بعـد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « أو عرض لم يثلم ».اين رحمة الله؟ ابن انتقامه ؟ . الطوفان . نوح . مصطفى كامل . تصور .. ! كيـف يمكن أن تبقى معه بعـد ذلك تحت سقف واحد . ! اى ذنب جنت !. وهو بأى وجه ؟ ! ..

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد تهـدج صوته فصار بالنواح أشبه ، قال :

– واضرموا النار فى البلدتين مستعينين بما على اسقف الدور من حطب وقش وبمـا صبوا عليهـا من بترول ، استيقظت القرى فى فزع رهيب وفر اهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وعلا الصراخ والأنين ، وامتدت السنة اللهيب فى كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران ..

هتف السيد بلا وعى :

– يا رب السماوات والأرض !

فمضى الشيخ قائلا :

– وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيـد يتربصون بالأهالى البؤسـاء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنـام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما أن بلغوا مواقف الجنود حتى أنهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النسـاء ليسلبوا حليهن ويهتكوا أعراضهن ، فاذا قاومت احـداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج أو أب أو اخ حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفت الشيـخ متولى الى السيـد الذاهل وضرب كفا على كف

وهو يهتف ــ وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن ماانزله الانجليز بهم جزاء حق على ماقعلوا ، هذا ما حصل يا سيد احمد للعزيزية والبدرشين . هذا مثل من أمثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد . .

وساد صمت كئيب اليم خلا فيه كل الى افكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متاوها :

ــ ربنا موجود . .

فهتف السيد مؤمنا على قوله :

ــ نعم ! (ومشيرا الى الجهات الأربع) فى كل مكان . .

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

ــ قل لفهمى : ان الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما اهلك الذين من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته . .

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها فى يده ثم ساعده على النهوض . صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول :

ــ « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . . صدق الله العظيم . .

— ٦٨ —

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت امينة بأن عائشة قد جاءها المخاض . كانت امينة فى حجرة الفرن فعهدت بالعمل الى ام حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على ام حنفى الاستياء ربما لأول مرة فى تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، أما كان يحق لها أن تشهد ولادة عائشة ؟ . لها كل الحق . . كأمينة سواء بسواء ، فتحت عائشة عينيها فى حجرها ، كل ابن فى هذا البيت له أمان : امينة وأم حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها فى هذه الساعة الرهيبة ! . هل تذكرين ولادتك ؟ . وربع الطمبكشية ، كان المعلم فى الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت فى

ام حسنية صديقة وقابلة معا ! . ترى أين ام حسنية الآن ؟ .. الا زالت على قيد الحياة ؟ . ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب بين تأوهات الألم أيضا ، وهو فى المهد ، لو عاش لـكان ابن عشرين الآن ! . سيدتى الصغيرة تتألم وأنا هنا اهيىء الطعام . امتلأ قلب أمينة بفرح موصـول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها اول مـرة يوم اسـتقبلت التجربة بنفسها . هاهى عائشة تتأهب لاستقبال اول مولود تستهل به امومتها ، كما استهلت هى امومتها بخديجة ، هكذا تمتـد الحيـاة التى انبثقت منها الى غير نهاية . ومضت الى الأب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة فى حيائها وتهذيبهـا ان يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة فى الانطلاق الى ابنتها غير أن السيد تلقى الخبر فى هدوء ثم أمرها بالذهاب دون ابطاء ! .. راحت ترتدى ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكتسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات احيانا . وعلم الاخوة بالخبر عنـد استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظـرة متسـائلة . عائشة أم ! .. أليس ذلك غريبا ؟ .. ما وجه الغرابة فيه . كانت نينة اصغر منها يوم ولدت خديجة . هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟. ابتسامتان . هذا نذير لى ، عما قليل تلد بنت الكلب ايضا .. من تعنى ؟! زينب . آه لو سمعك بابا . عائشة ام ، وانا اب . وأنا خال وعم . ستكون انت أيضـا عما وخالا ياسى كمال ، يجب أن اتخلف اليوم عن المدرسـة لأذهب الى آبلا عائشة . جميل جدا ، اسـتأذن بابا ان اسـتطعت على المائدة ! .. أوووه . نحن فى حاجة الى مزيد من المواليدلنسد العجزالذى اوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ماحـدث شىء غـير عادى ، ثلاثة ارباع التلاميذ مضربون منذ أكثر من شهر . قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول فى وجهك . أوووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير باباجدا ونينة جدة ونحن اخوالا ، شىء خطير، كم مولودا ياترى يرى نور الدنيا فى هذه اللحظة ؟ .. وكم انسانا يغيب عنه هذا النور فى هذه اللحظة ؟ .. يجب أن نبلغ جدتى . استطيع أن اذهب الى الخرنفش لابلاغها اذا تخلفت عن المدرسة !. .. قلنا لك لاشأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أوووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لايلين للشعر الذهبى والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر أم انثى ؟ .. أيهما تفضل ؟ .. الذكر طبعا ، ربما بدأت بأنثى كأمها . لم لا

تـدا بذكر كأبيها ؟ .. هاها ، عندمايحين ميعاد انصراف المدرسـة يكون الطفل قد خرج فلن اتمكن من مشاهدة خروجه . اتريد أن تراه وهـو يخرج ؟ .. طبعا . اجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك انت ! . كان كمال اشد الجميع تاثرا بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالا . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وانه يحصى حركاته وسكناته ليبلغهـا أول فأول الى ابيه لما كان فى وسعه ان يقاوم الاغراء الذى يناديه للذهاب الى السكرية . ومكث فى المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه فى السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه اشهرا وهـو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحادفهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوقالسطح فوجدها تتلوى الما وقد جحظت عيناها ، ثم راى جسمها يتصـدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهـو يصرخ باعلى صـوته . طافت هـذه الذكرى بمخيلته والحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حـوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير انه لم يستسلم للخوف ، ابى أن يتصور ان ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا مايكون بين الحيوان والانسان وهو — فى ايمانه — ابعد مما بين الأرض والسماء ، ولكن ماذا يحدث فى السكرية اذن ؟ .. ماذا طرأ على عائشة من غرائب الامور ؟ .. ثمة اسئلة حيارى لاتنعم بجواب .. ماكاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضىالى باب الحريم فلاحت منه التفاتة الى المنظرة فما يدرى الا وعيناه تلتقيـان بعينى والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر فىمكانه جامدا محملقا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حـراكا ، ركبه شعور بالذنب لايدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى فى أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد فى حديث معشخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح فى داخل المنظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل ان يفر الى الداخل ، رقى فى السلم وتبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا فى الصالة ، وراى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه الى سمعه اصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لايعرفه ، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

ــ آبلا عائشة ولدت ؟ !

فرفع الرجل سبابته الى شفتيه محذرا وهو يقول :

ــ هس ...

أدرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا ، واراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

ــ لا ...

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له فى عجلة ولهوجة :

ــ انزل ياشاطر والعب تحت ...

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة ، بدأ رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، أو هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة القطة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يالطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما فى البكاء . وعندما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له « الحمد لله ياسيدى » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لايدرى مايفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد فى أعقابهم خافق القلب، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

ــ الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل فى وجوم :
ــ الحمد لله على كافة الأحوال ..
فسأله السيد احمد باهتمام :
ــ مالك ... ؟
فقال بصوت منخفض :
ــ انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..
فتساءل السيد قلقا :
ــ المولود ... ؟
فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :
ــ عائشة ! .. ليست على مايرام ، ساجى بالطبيب حالا ..
وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ، ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبتسم لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :
ــ قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما اقول ولكن ابنى بدا اليوم خوافا على غير عادته ، على انه لاضرر البتة من مجىء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب ..
لم يعد السيد يطبق مايلتزم عادة من وقار وبرود أمام أبنائه فسألها فى قلق غير خاف :
ــ ماذا بها ؟ .. الا أستطيع أن اراها ؟
فابتسمت المرأة وقالت :
ــ ستراها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب ..
كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب أشد العذاب ، كان وراء العينين الواجمتين الرزينتين دمع متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟ .. الطبيب ؟ ! ، لماذا تحول العجوز بينى وبينها ؟ ! ، ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة منى انا ، منى انا خاصة ، حقيقة بان تخفف من آلامها ، زواج وزوج وألم ، لم تذق فى بيتى مرارة الألم قط ، العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لأهون أذى يتهددهم ، فهمى .. أراه واجما متألما .. هل أدرك معنى الألم ؟ .. من اين له أن يعرف قلب الأب ! ، العجوز مطمئنة وواثقة مما

تقول ، ابنها أزعجنا بغير موجب ،اللهم استجب ؛ انت اعلم بحالى بان تنجيها كما نجيتنى من الانجليز ، قلبى لايطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛ وهو قادر على حفظ ابنائى من كل سوء ، لا طعم للحيـــاة بغير ذلك ، لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرست فى جنبى شوكة حادة ، قلبى يدعو لهم بالسلامة ، لانه قلب اب ؛ ولأنه لاتطيب المسرات الا لخلى ، هل الفى سمار الليل بقلب سعيد ؟ .. أحب اذا ضحكت ان تنطلق الضحكة من اعماق قلبى صافية ، القلب القلق كالوتر المختل ، حسبى فهمى ؛ انه يلح على كوجع الأسنان ، ما أبغض الألم ، دنيـــا بلا الم ؛ لا شىء على الله بكثير ، دنيا بلا الم ولو تكون قصيرة ، دنيـــا تقر فيها عينى بهم جميعا . هنالك أضحك وأغنى والهو ؛ ياأرحم الراحمين ، عائشة ياأرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما . وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

ــ لتعلمن صدق رايى حالما يتكلم الطبيب ..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى أعلى :

ــ عنده العفو ...

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب . ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل . ان ايمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم اليه أمره ، سيخرج الطبيب طال مكوثه فى الداخل أم قصر وعند ذلك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟... لم يفكر فى ذلك من قبل ، طبيب عند نفساء ! .. مع الرحم وجها لوجه ، أليس كذلك ؟ ولـكنه طبيب !...ما الحيـــلة ؟! اللهم ان ربنـــا يأخـــذ بيدها فلنسأله السلامة ، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة ، وتبعه الأبناء حتى تجمعـوا حـول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

ــ بخير وعافية ..

ثم فى شىء من الجد :

ــ جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت ان التى فى حاجة الى العناية حقـــا هى المولودة ...

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :
ـ اطمئن اذن على عهدتك ؟
فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :
ـ نعم ، ولكن الا تهمك حفيدتك ؟ !
فقال السيد باسما :
ـ لا عهد لى بعد بواجبات الجد . . .
وتساءل خليل :
ـ أليس ثمة أمل فى حياتها ؟
فقال الرجل وهو يزوى مابين حاجبيه :
ـ الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل ان تموت الليلة ، واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنى لاأظن أنها تعمر طويلا ، فى تقديرى انه لايمكن أن يمتد بها العمر الى مابعد العشرين ،ولكن من يعلم ؟ . . الأعمار بيد الله وحده . .
ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو امه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :
ـ كان فى نيتى أن أسميها نعيمة باسمك . .
فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :
ـ الطبيب نفسه قال : ان الأعمار بيد الله أفتكون انت اضعف ايمانا منه ! سمها نعيمة ، يجب ان تسميها نعيمة اكراما لى ، وسيكون عمرها باذن الله مديدا كعمر جدتها !
كان السيد يحادث نفسه : دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب ! . . ياله من أحمق . ولم يستطع ان يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :
ـ حقا ان الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك ان تفكر قليلا قبل أن تبادر الى احضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!
لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :
ـ لايجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب . .

- ٦٩ -

ـ ماذا فى الطريق ... ؟!

تساءل السيد أحمد وهو ينهض فى عجلة من وراء مكتبه ، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوى وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان ابعد مايكون عن الهدوء ، صوته الجهير لا يخفت من الفجر الى ماقبيل الفجر ، حناجره عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين. ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى اخص الشئون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا آخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد بادىء الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفت الحى كله قريبه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى فى هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغى لرجل عاش فى تلك الأيام ولكن جلجلت فى طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر:

ـ أبلغك الخبر ؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

ـ كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

ـ سعد باشا أفرج عنه ..

فما تمالك السيد أن تساءل صائحا :

ـ حقا ؟ ؟ ..

فقال شيخ الحارة بيقين :

ـ اذاع اللنبى الساعة بيانا بهذه البشرى ...

فى اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثر بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :

ـ كان العهد به دائما ان يذيع الانذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة ؟ ! ..

فقال شيخ الحارة :

ـ سبحان الذى لايتغير ..

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله أكبر ، الله أكبر ، النصر للمؤمنين ! »

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه فى انحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع أثر الخبر السعيد فى كل مكان ... فى الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهانى ، فى النوافذ التى تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها ، فى المظاهرات التى تألفت ارتجالا مابين النحاسين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد ، وسعدوسعد ثم سعد ، فى المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، فى العربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغانى الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين او بالأحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد فى كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه . وجرى نبأ فوقالرءوس الحاشدة انالانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات . لم يرالسيد أحمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات « ياحسين .. حملة وانشالت ! » حتى أدنى جميل الحمزاوى رأسه من أذنه قائلا :

ـ الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام ..

فقال له بحماس :

ـ اصنع كما يصنعون واكثر ، أرنى همتك .. !

ثم بصوت متهدج :

ـ علق صورة سعد تحت البسملة ..

فنظر اليه جميل الحمزاوى كالمترذد ثم قال محذرا :

ـ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا أن نتريث حتى تستتب الأمور ؟

فقال السيد باستهانة :

ـ مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، الا ترى أن المظاهرات تمر

تحت اعين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟ .. علق الصورة وتوكل على الله ..

غار عهد الخوف والدماء ، اليس كذلك ؟ . سعد حر طليق ولعله فى طريقه الآن الى أوروبا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة أو كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الأحياء منبأ قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ؛ فهمى ؟ ! . نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد والشكر لله ، اجل نجا فهمى ، ماذا تنتظر ؟ . صل الى الله ربك . لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم ملىء بالهتاف . كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتى امينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالافراج عن سعد .

ـ من المشربية رأيت مالم ترعين من قبل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟ ! . وأولئك النساء هل جنن ! ؟ . لايزال صدى ترديدهن يرن فى أذنى « ياحسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :

ـ تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراءه .. !

نظر اليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت امينة تتساءل :

ـ أرضى الله عنا أخيرا .. ؟

فأجابها ياسين قائلا :

ـ بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظن ؟

قال فهمى الذى بدا فى فرح الأطفال :

ـ لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى أوروبا ثم يعود بالاستقلال ، هذا مايؤكده الجميع ، ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

ـ ياله من يوم ! . اشترك الموظفون فى المظاهرات علانية ، ماكنت اظن ان بى هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالى .

فضحك فهمى قائلا :

ـ وددت لو رايتك وانت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف ! .. يا له من منظر فريد !

يوم عجيب فى الأيام حقا . اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين أمواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لايكاد يصدق أنه ثاب الى رشده وانه آوى الى برج المراقبة الهادىء يشاهد من منظاره الحوادث فى هدوء وعدم اكتراث ! . جعل يستحضر الحال التى تلبسته فى المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمى حتى قال بغرابة :

ـ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكانه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمى باهتمام :

ـ أكنت تشعر بحماس صادق ؟

ـ هتفت لسعد حتى بح صوتى واغرورقت عيناى مرة أو مرتين ..

ـ كيف اشتركت فى المظاهرة ؟

ـ بلغنا نبأ الافراج عن سعد ونحن فى المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، أكنت تتوقع غير هذا ؟ . واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة فى الخارج فلم أجد من نفسى ميلا الى مجاراتهم وفكرت فى التسلل الى البيت ، غير انى اضطررت الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟ . وجدت نفسى فى بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت ان ذهلت عن نفسى واندمجت فى التيار كأشد مايكون المرء ـ صدقنى فى هذا ـ حماسا وبهجة واملا .. !

فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

ـ شىء عجيب ...

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

ـ أحسبتنى فاقد الوطنية ؟ ! المسألة انى لاأحب الزياط والعنف ، ولا أجد حرجا فى التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ..

ـ واذا شق التوفيق بينهما .. ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

ـ قدمت حب السلامة ! . نفسى أولا ، الا يستطيع الوطن أن يسعد الا بالتهام حياتى ؟ ! . يفتح الله ، أنا لا أفرط فى حياتى ولكنى سأحب الوطن مادمت « حيا » ..

قالت أمينة :

ـ هذا عين العقل . (ثم متطلعة الى فهمى) هل عند سيدى رأى آخر .. ؟

قال فهمي بهدوء :

ـ كلا طبعا ، انه عين العقل كما قلت ..

ولم يرض كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لاسيما انه كان مقتنعا بانه لعب فى يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ـ واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا مازلنا صغارا .. واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام . ثم سمح لنا بالتظاهر فى فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين فى الخارج ... !

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

ـ ولكن اصدقاءك ذهبوا .. !

ـ فى داهية ..

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى ابعد ماتكون عن حقيقة شعوره، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولأنه اراد ان يدارى بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية اخرى ، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة فى المكان المهجور الذى كان يحتله المعسكر يقلب عينيه فى ارجائه فى صمت اليم وعيناه مغرورقتان. سوف يمضى وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاى على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذى كان يحظى به غناؤه ، والمودة التى كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون ، والصداقة التى ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون فى اعتقاده على سائر البشر ! . قالت أمينة :

ـ سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا افندينا فى زمانه ، رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لاينصر الا المؤمنين ، نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، اى فوز وراء هذا ؟! . لقد ولد الرجل فى ليلة القدر .

سألها فهمي باسما :

ـ أتحبينه .. ؟

ـ احبه ما دمت تحبه ..

بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال :

ـ لا يعنى هذا شيئا .. !

فتنهدت فيما يشبه الارتياك ثم قالت :

ـ كنت كلما بلغنى نبأ اسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى « ترى

اكان يقع هذا لو لم يقم سـعد قومته ؟!.. على أن رجلا يجمع الـكل على حبه لابد أن الله يحبه كذلك ..

ثم متنهدة بصوت مسموع :

ـ اسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟.. كم أما لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة ..

قال لها فهمى وهو يغمز ياسين بطرفه :

ـ الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت اصبعيها فى أذنيها وهتفت :

ـ اللهم انى اشـهدك على ما يقول سـيدى الصـغير !.. أم تزغرد لاستشهاد ابنها !. اين ؟! على هذه الأرض ؟.. ولا تحت الأرض فى عالم الشياطين !..

قهقه فهمى عاليا ، ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

ـ نينه ..! سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذيع ، لقد اشتركت فى المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه ..!

سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

ـ انت ؟!.. محـال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست كالآخرين ..

فقال بيقين وهو يبتسم اليها :

ـ أقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتسامة واتسعت العينان فى ذهول ، ثم رددت بصرها بينه وبين ياسـين الذى حدجه بدوره بنظرة متسـائلة ، ثم غمغمت وهى تزدرد ريقها :

ـ رباه !.. كيف اصدق اذنى !

ثم بعد أن هزت رأسها فى حيرة اليمة :

ـ أنت !..

كان يتوقع انزعاجها ولـكن ليس ـ بالنظر لمجىء اعترافه بعـد زوال الخطر ـ الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لاداعى الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة :

ـ صه ، انت لاتحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى فى شىء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو يبتسم بمكر :

ـ اتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟.. رأيته وانا عائد فى

الطريق المقفر فنبه على بالا اخبر احدا بانى رايته ..

ثم نظر الى فهمى وساله باهتمام وتشوق :

ــ قص علينــا يا سى فهمى ما لقيت فى المظاهرات ، كيف كانت تقــع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ الم تطلق النار قط .. ؟

فتدخل ياسين فى الحديث قائلا للأم :

ــ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشــكرى الله على نجاته ، هذا أولى بك من الانزعاج :

سالته بجفاء :

ــ اكنت تعلم بذلك .. ؟

فبادرها قائلا :

ــ لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وايمانى وربى ..

ثم نهض من مجلســه ، منتقلا الى جوارها فوضــع يده على منكبيهــا وقال برقة :

ــ اتطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان ! وحــدى الله ، زال الخطر وعاد الســلام ، ها هو فهمى بــين يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق ..

وقال فهمى جادا :

ــ نينه ، رجائى اليك الا تكدرى صفونا بحزن لاموجب له ..

تنهدت .. فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ، ثم نكست وجههــا لتخفى عينيها المغرورقتين ..

— ٧٠ —

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيــه مهما كلفه الأمر ، وفى صباح اليوم التالى صمم على تنفيذ عزمه دون تردد . ومع انه لم يضمر لأبيه ــ طول فترة العصــيان ــ اى احساس بالغضب أو التحدى فان ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحســاس المشرب بالطاعة والولاء حقا لم يتحده بلسانه ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليــه فى

حجرته واعلانه بالبكاء تمسكه برايه رغم ارادة الرجل ، كل اولئك احله — على حسن نيته — موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية ان ينكأ الجرح دون ان يسعه ان يلأمه ، لانه قدر أن يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة اخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد أن يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق ان يقوم بينه وبين ابيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذى يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التى لا تشوبها شائبة .. دخل حجرة ابيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء ، لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذاك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كانما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟! » فتغلب فهمى على ارتباكه وتقدم من مجلس ابيه فى خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير يابابا .

واصل التحديق فيه صامتا كانه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم فى نبرات نمت عن اليأس :

— انى آسف ..

صمت واصرار على الصمت ..

— آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ ...

وجد أن الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه أن يتحاشاه فامسك ، وما يدرى الا والسيد يساله بجفاء وتبرم :

— ماذا تريد ..؟

رحب باقلاعه عن الصمت ايما ترحيب فتنهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : اريد أن تكون راضيا عنى ..

قال السيد بضجر :

— غر من وجهى .

فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :

— عندما أنال رضاك ..

تساءل السيد متحولا فجاة الى التهكم :

ــ رضاى ! .. لم لا ؟ .. هــل فعلت لا سمح الله ما يستــوجب السخط ؟ !

رحب بالتهكم اضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهكم عنــد ابيه اول خطوة نحو الصفح . غضبه الحقيقى صفع او لكم او ركل او سب او كل اولئك جميعا ، التهكم أو بشير بالتحول ، انتهز الفرصة وتكلم ؛ تكلم كما ينبغى لرجل قد يعمل فى المحاماة غدا أو بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لاتعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم أفعــل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الاصــدقاء .. وما توزيع المنشورات على الأصــدقاء ؟ اين انا ممن بذلوا الحيــاة رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك انك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقمت بشىء من الواجب وانا مطمئن الى انى ــ فى الواقع ــ لا اخالف لك ارادة ، الخ الخ ..

ــ علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن اعصى لك امرا .

قال السيد بحدة :

ــ كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لانه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضاى قبل اليوم .. ؟

قال فهمى بحزن :

ــ كانت الدنيا فى دم وكرب وكنت من الحزن فى شغل شاغل ..

ــ شغلك عن طلب رضاى ؟ !

قال بحرارة :

ــ شغلنى عن نفسى لا عن طلب رضاك ..

ثم بصوت منخفض :

ــ لن استطيع أن أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لاغضبا كما تظــاهر ، ولكن ليخفى الأثر اللطيف الذى بعثه كلام الشاب فى نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيــد صناعــة الكلام حقا ، هذه هى البلاغة أليس كذلك ؟ سأعيــد أقواله على مسامــع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره فى نفوسهم ، ترى ماعسى أن يقولوا ؟ ، الولد سر أبيه .. هذا ما ينبغى أن يقال ، قديما قيل لى اننى لو أتممت مراحــل التعليم لكنت أبلغ المحــامين ، انى أبلغ النــاس بغير التعليم والمحــاماة ، الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء فى الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو موظف كبير ينكمش فى المجلس امامى كالعصفور ! ولا فهمى نفسه بمستطيع ان يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحــكون

حقا الولد سر ابيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز فى نفسى ، لكن اليس من دواعى الفخر لى أنه اشترك فى الثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك فى الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، ساقول من الآن فصاعدا أنه خاض غمار الثورة ، اتظنون انه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى ؟ .. لقد رمى ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى ، ياسيد احمد ينبغى ان نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة .. لم نشأ أن نقول لك هذا فى ابان الخطر أما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله .. اتنكر انت شعورك الوطنى ؟ .. الم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد .. والله لو كنت شابا لفعلت مالم يفعل ابنك ولكنه عصانى ! عصى لسانك وأطاع قلبك ! الآن ماعسى ان افعل ؟ يريد قلبى ان يهبه العفو ولكنى اخاف ان يستهين بمخالفتى !

ــ وانا لن استطيع ان انسى انك خالفت ارادتى ، احسبت ان الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن ان تؤثر فى ؟!

هم فهمى بالكلام ولكن امه دخلت فى تلك اللحظة وهى تقول :

ــ الفطور جاهز ياسيدى ..

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكات قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رات فى الصمت ــ الذى خافت ان يكون مجيئها باعثه ــ مادعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف اثره عن عينى الرجل فتردد لحظات ثم قال اخيرا بصوت سلمى :

ــ اريد مستقبلا الا تصر على حماقتك وانت تخاطبنى ..

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة :

ــ اظنك حاسب نفسك على راس الذين افرجوا عن سعد !

غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع بزملائه اعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر فى تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر ان يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها ، دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية ، لئن كان بعد ما يعهد عادة اليه ــ بالقياس الى غيره ــ من الأدوار

الثانوية الا أنه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كانما هو أسعد ما يحظى به فى حياته غير أنه لم يكن يخلو فى جهاده من تعاسة خفية لم يعلم بها احد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من انه دون الكثيرين من اقرانه جراة واقداما. أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التى دعت اليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا .. فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه فى قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء فى مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان فى الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات ؟ ! ، اين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟ ! اين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من ايدى الجنود فى الأزهر ؟ ! اين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الأنباء بآى بطولتهم واستشهادهم ؟ ! . كانت اعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى الاقدام والتأسى بالأبطال ، ولكن كانت تخذله اعصابه فى اللحظة الحاسمة فما أن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه فى المؤخرة ان لم يكن مختبئا أو هاربا ؛ ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لاتحد ، متعزيا أحيانا بقوله « ما أنا الا محارب أعزل ، ولئن فاتنى الرائع من اعمال البطولة فحسبى اننى لم اتردد مرة واحدة عن الالقاء بنفسى فى أتون المعركة » . فى طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون - فيما بدا - وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ؛ تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه الى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب قلق تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر .. انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولا له .. ولا له ؟ ! ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو اصابة غير مميتة ! اليس من المحزن ان تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له ان يظفر باية شهادة ... أتنكر سرورك بالنجاة ؟ ... أكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ،

اكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك فى وسعك فلم تكصت ؟ لم تكن تضمن أن تقع الاصابة غير مميتة أو ان يكون السجن عابرا ، انت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو كان اصابك شيء دون ان يغير من هذه النهاية الجميلة ، ينبغى اذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب ! امضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق — بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه فى الموضع الذى حدد له ! . . باب المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا ان شمس ابريل صبت على من تعرض لأشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فاخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمى فى عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بساطة العمل الذى لم يعد ان يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها الا أنه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وانه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا فى زحمة التلاميد الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم ولاحظ اعينا ترمقه باهتمام وشفاها تتهامس عليه كما سمع اسمه — مقرونا بصفته الشعبية — يجرى على بعض الألسن « فهمى أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى اطبق شفتيه أن تند عنهما بسمة حياء أو ارتباك من « مهابته » أجل ينبغى ان يحافظ منظر مندوب اللجنة العليا على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الاول من شباب المجاهدين كى ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفى وراءه من اعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة — التى عجز عن تحقيقها فى الواقع — فى اخيلتهم ، لن تفتر له رغبة فى المزيد منها وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة : ترى هل يقدر الآخرون عمله اكثر مما يقدره هو ؟ ! لشد مايحبونه بالاحترام والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه راى مسموع ، والخطابة ؟ . . ليس من الضرورى ان تكون خطيبا . . اليس كذلك ؟ ليس محالا أن تكون عظيما وانت غير خطيب ولكن اى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ انت بالصمت . كلا لن الوذ بالصمت . سوف اتكلم ، ساطلق القلبى العنان اجاد أم لم يجد ، متى تقف بين يدى

سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناى تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رباه !.. امتلأ الميدان بل امتلأت الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة ، مائة ألف ؟ طرابيش عمائم ، طرابيش عمائم ، طلبة .. عمال . موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة .. من كان يتصور هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ، لم لم أدع بابا ؟ صدق ياسين .. الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلو على نفسه ، أين همومى الشخصية ؟.. لا شىء ، لشد ما يخفق قلبى ، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينه مرة أخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن ، أريد أن ألمس أثره فى وجوه الشياطين ! هاهى ثكناتهم تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف ، هناك رءوس فى النوافذ ... فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، لم تقض رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد فى هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ، سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة . بل رجلا واحدا ، بل هتافا واحدا تتابعت طوابير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم أمام باب المخطة ، أول مظاهرة تسير دون ان تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى ، وافتر ثغره عن ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظاهرته « الخاصة » ورفع يديه فسرت فى الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرا . واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن احاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها ، دار على عقبيه مرة أخرى سائرا بوجهه ، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات امتلأت بمنظر الالوف الحاشدة قوة الى قوة وطمأنينة على طمأنينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها

الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد ان اعياها الطعان والهجوم.
ار منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟!.. أليس هذا هو رسل بك . بلى هو انه يعرفه حق المعرفة ، وهذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة منرفعة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هل يمكن ان ينسى الاسم الذى ملأ الأسماع فى الأيام السود الدامية ؟! اوله جيم أليس كذلك ؟ جا .. جو .. جى .. يأبى أن يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا ان نلبى نداء الحماس والظفر مادام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة ، ألم تعاهد نفسك على النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم .. من هى ؟ ! ذلك التاريخ القديم لا ! نحن نعيش للمستقبل لا للماضى .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه ، عد الى الهتاف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرته » تقترب رويدا من حديقة الازبكية التى لاحت اشجارها الباسقة فوق الاعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسا متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا. كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحديقة دوت — على حين بغتة — فرقعة حادة فشلت حنجرته وتلفت فيما حواليه متسائلا فى انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما سك اذنيه فى الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه فى ذاكرته فى هداة الليل بيد أنه لم يستطع ان يألفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان ..

— رصاص .. ؟ !

— غير معقول ، ألم يصرحوا بالمظاهرة ؟..

— اسقطت من حسابك الغدر ؟

— ولكن لا أرى جنودا ..؟!

— حديقة الازبكية معسكر هائل مكتظ بهم ..

— لعلها فرقعة عجلة سيارة ...

— لعلها ..!

أرهف اذنيه لما يدور حوله من دون ان يثوب الى السكينة . وماهى الا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، اين ياترى استقرت ؟ أليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها الى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعثين فى كل ناحية دفعاتٌ جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ماانتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وانين الالم . ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شىء فى طريقها ولا تذر . اهرب ، مامن الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب او بالتراجع او حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع ؟! فى خلاء انت ، اهرب صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما اشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ أن تهتف ؟ اي هتاف ؟ أو هو نداء فحسب .. من ؟ ما ؟ فى باطنك يتكلم ، هل تسمع هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشىء ، لاشىء ، ظلام فى ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص فى هوادة ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية . لا شىء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ..

— ٧١ —

سمع السيد احمد عبد الجواد وقع اقدام على مدخل الدكان فرفع راسه عن مكتبه فراى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون — السلام عليكم ورحمة الله فنهض السيد قائلا بادبه المعهود :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكراسى) تفضلوا

ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال اوسطهم :

— حضرتك السيد أحمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسما وان لاح فى نظرة عينيه التساؤل :

— نعم يا سيـــدى ...

ماذا يريدون ياترى ؟ الشراء مستبعد.. ما للشراء والمشية العسكرية التى جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التى يتكلمون بهـا ! ثم ان الساعة جاوزت السابعة مساء . الايرون الحمزاوى وهو يرفع الوكائب الى الرفوف ايذانا باغلاق الدكان ؟ ايكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد افرج عنه وانتهت الثورة ، وانا لم أعد صالحا الآن الا للسهرة ! ياهؤلاء اعلموا انى لم أغسل راسى ووجهى بالكولونيا وامشط شعرى وشاربى واحبك جبتى وقفطانى كى القى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه أن وجهه ليس غريبا عليه . رآه من قبل ؟ اين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه ... قال باسما وقد شاع الارتياح فى وجهه :

— اليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا فى الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا فى مسجد الحسين رضى الله عنه ؟

فقال الشاب بصوت خفيض :

— بلى يا سيدى ..

صدق ظنى ، يقـول البـلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الى هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبىء عن خير ، اللهم اجعله خيرا ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى ينقبض لأمر ما جاءوا لامر يتعلق بـ ...

— فهمى ؟!.. جئتم تريدونه .'. لعلكم الا..

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

ـ مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر !

مال السيد فجأة الى الأمام معتمدا على حافة المكتب وهتف :

ـ الصبر ؟! علام ! .. فهمى ؟! ..

قال الشاب بحزن بالغ :

ـ يؤسفنا أن ننعى اليك أخانا المجاهد فهمى احمد ..

صاح بلهجة منكرة وان لاحت فى عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس:

ـ فهمى ؟..

ـ استشهد فى مظاهرة اليوم ..

وقال الذى الى يمينه :

ـ انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلا وشهيدا كريما ..

تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه فى نظرة شاردة غائبة. مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، اخيرا عاد الشاب يغمغم :

ـ لشد ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا الا أن نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك أول من يحسن القاء التعازى فى مثل هذا الموقف !.. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟ لا شىء ! من أين للكلام أن يطفىء النار ؟ مهلا .. الم تخطر الرزية بقلبك قبل ان يتكلم قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ، الآن والموت حقيقة تلقى الى سمعك تأبى أن تصدق ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف أصدق أن فهمى مات حقا ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف ساعات فتثاقلت عنه، فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية واملا وسرورا ، مات .. مات ! لن اراه بعد اليوم ! لا فى البيت ولا فى اى مكان من ظهر الأرض ؟.. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف أكون أبا بعده ؟ أين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا فى الصبر الصبر ؟ آه ... هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا .. كنت تخدع أحيانا فتزعم أنك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا ..

ـ سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..

رفع السيد راسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :

ـ ظننت عهد القتل قد انتهى ...

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

ـ كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد اذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت أول الأمر فى أمان حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية ، وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب ، لم يتعرض أحد للجنود لابخير ولابشر حتى الهتاف بالانجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز . ولكن مسهم جنون القتل فجأة فعمدوا الى بنادقهم واطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان اللنبى سيعلن أسفه عما بدر من الجنود ..

قال السيد بنفس اللهجة المريضة :

ـ ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..

ـ واأسفاه ...

قال السيد بتفجع :

ـ لم يشترك فى المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم اليها :

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم بكلمة .. وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :

ـ الأمر لصاحب الأمر ، اين أجده الآن ؟

قال الشاب :

ـ فى قصر العينى « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا فى تمام الساعة الثالثة من مساء الغد ...

هتف السيد فى جزع :

ـ الا يترك لى تشييع جنازته من بيته !..

فقال الشاب بقوة :

ـ بل تشييع جنازته مع اخوانه فى احتفال شعبى ..

ثم برجاء :

ـ القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولابأس من الانتظار مادمنا نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لايليق

ان يشيع فهمى فى جنازة عادية كمن قضوا فى بيوتهم ..

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

- اصبر وما صبرك الا بالله ...

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا .'. أسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعـزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى أن يخرج من حيرته ، فانه لايدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن أين ؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها متى يتهيأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟ يبدو هذا بعيدا .. ولكنه آت لاريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء فى راهنه .. أجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ،هنالك ينعم النظر فى موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه، ماأثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها، حقا ان أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، أنظر الى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى مادار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتـاب ، كم يستغرقان من وقتـه تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟.. كيف يجزع والأيام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثقل بالفـكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخـونه قدماه .. ما عسى ان يقول لهـا ؟ كيف تتلقى الخبـر ؟ ... الصعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصـفور !... أتذكر كيف هملت دموعهـا لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصـنع لمقتل فهمى ؟ .. مقتل فهمى !.. أهذه هى نهايتك حقا يابنى ؟... يابنى العزيز التعيس !.. أمينة .. ابننـا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أتأمر بمنع الصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل ؟.. أم تصـوت بنفسـك ؟.. أم تدعو النائحات ؟ ! ... لعـلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمـال متسائلة عما أخر فهمى ، سوف يتأخر طويلا ، لن تريه أبدا .. ولاجثته؛

ولا نعشه ، يا للقسوة ، سأراه أنا فى القصر اما أنت فلن تريه ، لن اسمح بهذا .. قسوة أم رحمة ؟ ما الفائدة ؟.. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح فى جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل .. ترامى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة :

زورونى كل سنة مرة   حرام الهجر بالمرة

تمت

« نجيب محفوظ »

للمؤلف

« قصر الشوق »

« السكرية »

وهى تصور فترة اخرى من حياة هذه الأسرة ...

للمؤلف

		الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
مصر القديمة	(مترجم عن الإنجليزية)	١٩٣٢	
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	
رادوبيس	« «	١٩٤٣	١٩٤٦
كفاح طيبة	« «	١٩٤٤	١٩٤٧
القاهرة الجديدة (فضيحة فى القاهرة)		١٩٤٥	١٩٥٣
خان الخليلى		١٩٤٦	١٩٥٤
زقاق المدق		١٩٤٧	١٩٥٥
السراب		١٩٤٨	
بداية ونهاية		١٩٤٩	١٩٥٦
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	
قصر الشوق		١٩٥٧	
السكرية		١٩٥٧	



الثمن ٣٥ قرشا